الإنسان بين المادية والإسلام

للشيخ



حفظه الله

الإنسان
بين المادية والإسلام

للشيخ

محمد قطب

حفظه الله



الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا"

[قرآن كريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

هذا الكتاب هو أول كتبي، ومن أحبها إلي!

إنه يمثل في نفسي خط الاهتداء إلى الإسلام!

ولقد عشته سنوات طويلة قبل كتابته بالفعل. عشته خواطر متفرقة وتأملات متشعبة في النفس والحياة. ولكنها لم تتبلور ولم تأخذ صورتها النهائية إلا في أثناء كتابة الكتاب!

ولذلك أحسست وأنا أكتبه أنني أجد نفسي! وأجد إسلامي واضح الصورة مفصل القسمات!

ولقد كان مدخلي إليه هو دراسة النفس الإنسانية. وما زال هذا أوسع مداخل البحث لدي. فأنا أشعر دائماً أن دراسة النفس الإنسانية هي القاعدة التي نبني عليها معرفتنا وتصوراتنا في كل ما يختص "بالإنسان" سواء كان أدباً وفناً، أو تاريخاً، أو سياسة، أو اقتصاداً، أو اجتماعاً، أو تربية وعلم نفس.. وأننا لا نستطيع أن نخوض في هذه المجالات بغير تصور سليم ودراسة وافية للنفس الإنسانية.

وأيا كان الرأي فهذا هو المدخل الخاص الذي دخلت منه إلى الدراسة الموضوعية في هذا الكتاب، وفي كتب كثيرة تالية.. وما زلت مقتنعاً بأنه يمكننا التوصل إلى كثير من الحقائق عن هذا الطريق!

ثم إن هذا الكتاب —في الوقت الذي تبلورت فيه أفكاري ومشاعري و"مدخلي" إلى الإسلام ذاته– كان في الحقيقة "مستودعاً" لكثير من الأفكار التالية التي تولدت عنه، فكانت امتداداً له أو بلورة أو تخصيصاً لما جاء فيه من موضوعات. وبهذه النظرة أنظر مثلاً إلى كتاب "شبهات حول الإسلام" و"في النفس والمجتمع" و"معركة التقاليد" و"منهج التربية الإسلامية" و"دراسات في النفس الإنسانية" و"التطور والثبات في حياة البشرية" وحتى "جاهلية القرن العشرين"!

لقد كانت كلها بذوراً محتواة في الكتاب، أو براعم تفتحت فيما بعد وامتدت في شتى الاتجاهات..

وربما كان هذا كله تفسيراً للصلة النفسية التي تربطني بالكتاب!

غير أنه ينبغي لي أن أقول إنني عند مراجعتي له من أجل هذه الطبعة —وتلك أول مراجعة حقيقية منذ كتبته أول مرة سنة ١٩٥١– وجدت أن هذه المدة المتطاولة من الزمن قد فعلت فعلها ولا شك في طريقة تفكيري وفي موقفي من بعض قضايا الكتاب!

لقد وجدت مثلاُ أنني أعطيت فرويد —والتفكير الغربي عامة– أكثر مما ينبغي من "التوقير العلمي"! وأن هذا التفكير الغربي —بما فيه فرويد بالذات– لا يستحق كل هذا التوقير، ولا كل هذه العناية بتفنيده! ولست أعني بذلك أنني عدلت عن منهج المناقشة الموضوعية لأية فكرة أو نظرية. بل هذا الذي ينبغي دائماً أن نفعله. ولكن المناقشة الموضوعية شيء و"التوقير" شيء آخر.. وأرى اليوم —بعد زيادة خبرتي بانحرافات الفكر الغربي، وبمخططات الإفساد التي تخطط لإفساد البشرية — أن ذلك الفكر يناقش– إذا لزم الأمر– مناقشة موضوعية، نعم، ولكن بغير الحفاوة والاحتفال الذي كان قبل عشرين سنة من الزمان! وأن الأجدر بنا أن نعرض حقائق الإسلام المشرقة الوضيئة دون التفات لتلك الانحرافات!

ومع ذلك فقد رأيت أن أبقي الكتاب تقريباً على ما كان عليه، فيما عدا تعديلات خفيفة في بعض الألفاظ. ولكني أضفت مجموعة من الهوامش تبين موقفي من بعض ما جاء في الكتاب من قضايا خاصة بفرويد وبالتفكير الغربي.

ولست أدرس بعد هل انتهت "البراعم" التي كانت كامنة في هذا الكتاب، أم إنني سأجد مزيداً منها في المستقبل يوحي إليّ بكتاب جديد؟!

والحمد لله أولا وآخراً.. ومن الله التوفيق.

محمد قطب

مقدمة الكتاب

كنت في صغري شديد الإعجاب بفرويد إلى حد الفتنة!

كنت في سن المراهقة التي يستهويها الكشف عن المجهول، في كل شيء. في الكون وفي الحياة والإنسان. وكان فرويد يخايل لي بنظرية العقل الباطن، فيخيل إلي وقتئذ أنه يمنحني المفتاح السحري الذي يفتح مغاليق الأسرار، أو المنظار السحري الذي يكشف المجهول. وأن أغوار النفس الإنسانية السحيقة حاضرة كلها بين يديّ، بنظرة واحدة في المنظار المسحور!

وظللت على فتنتي هذه سنوات، أقرأ كل ما يصل إليّ من أقوال فرويد أو شروح تلاميذه المعجبين به، وإن كان قد هالني منذ اللحظة الأولى أنه في تفسيره للأحلام لا يدع مجالاً للأحلام التنبؤية، ويلغي كل صلة للإنسان "بالمجهول" الكبير..

وأكملت دراستي الثانوية ودخلت الجامعة، وزادت بالطبع معلوماتي عن الكون والحياة والإنسان. وبدأت أنظر إلى فرويد بغير نظرة الإعجاب المسحور. بل بدأت أتخذ منه موقف الناقد، بقدر ما كانت تسمح به تجاربي في ذلك الحين.

ثم دخلت معد التربية، حيث درست علم النفس بشيء من التوسع، وفرويد بشيء من التفصيل...

وخطر لي في أثناء هذه الدراسة أنه بينما يتطرف فرويد في إطلاق النفس من عقالها، ورفع "الكبت" عن الغرائز المحبوسة، وتتطرف الدعوات المتزمتة من الجانب الآخر في فرض الكبت على الطاقة الحيوية للإنسان، يقف الإسلام بينهما موقفاً وسطاً، فلا يفرض القيود إلى الحد الذي يرهق النفس، ويعطل دفعة الحياة، ولا يطلق الإنسان من عقاله إلى الحد الذي يرده حيواناً، ويلغي ما تعبت الإنسانية في الوصول إليه في جهادها الطويل، من "ضوابط" لنزعات الحيوان.

بين هذين الحدين المتطرفين يقف الإسلام، وفي حدوده الرحيبة يمكن أن يحيا الإنسان، حياة طابعها السلامة والاتزان.

ولقد يلتقي الإسلام في نظرته للنفس الإنسانية ببعض النظريات الأخرى، أو يختلف عنها في التفصيلات والفروع. ولكنه يبقى بعد ذلك مستقلاً عنها قائماً بذاته، وله نظرته الخاصة التي ينبغي أن تدرس على هذا الأساس.

وظلت هذه الفكرة تتضح في نفسي وتتأصل، مدى السنوات العشر التي تلت تخرجي في معهد التربية، حتى وجدتها تدفعني دفعاً إلى تسجيلها في كتاب.

وأنا أعلم أن "الذعر" يصيب بعض المشتغلين بالعلم حين يذكر اسم الدين! وأن "المثقفين" و"أحرار الفكر" تصيبهم النوبة فتكفهر وجوههم وتتشنج عضلاتهم، ويشيرون بأيديهم إشارات عصبية يطلبون تنحية هذا الكلام الفارغ عن مجال البحث العلمي الصحيح!

فأحب أن أقول هنا: إن هذا البحث دراسة نفسية بحتة، وإنه يأخذ مفاهيم الدين أخذاً موضوعياً خالصاً. فإذا ظهر لنا بعد الدراسة الموضوعية أن الدين هو الصواب، فإنها الحماقة إذن، أو العبودية المقنعة للغرب، هي التي ترفض الاعتراف بالحقائق، خوفاً على حرية الفكر، أو خوفاً من الاتهام بالرجعية والجمود.

وثمة حقيقة أخرى جديرة بالتسجيل: هي أن النزاع قد قام في أوربا بين العلم والدين لأن الكنيسة هناك احتضنت نظريات علمية معينة، قالت عنها: إنها مقدسة، وإنها من وحي السماء، فلا يجوز الخروج عليها، وإلا عدّ الخارجون كفاراً مارقين. فلما أثبت العلم بطلانها كان أمراً طبيعياً أن يصدق الناس العلوم التجريبية، وينتفضوا على سلطان الكنيسة الذي يفرض عليهم الأكاذيب، و"يتحرروا" بأفكارهم من ربقة الدين.

ولكن هذا النزاع لم يقع بين الإسلام والعلم. ويشهد التاريخ بأن علماء في الفلك وفي الطبيعة والكيمياء والطب والهندسة والرياضيات قد نبغوا في ظل الإسلام، ووصلوا إلى حقائق تعد بالقياس إلى زمنهم كشوفاً علمية ضخمة، وكانوا هم أنفسهم من المسلمين المتدينين، فلم يقع في نفوسهم الصراع بين العلم والعقيدة، ولا وقع بينهم وبين السلطات الحاكمة ما يؤدي إلى القتل والتعذيب، كما حدث لكوبرنيكوس وجاليليو في العالم المسيحي. وكل ما حدث من اضطهاد لبعض ذوي الرأي كانت الملابسات السياسية كامنة من ورائه. ولكن العلم وحقائقه النظرية أو التجريبية لم تتعرض قط لكبت ولا اضطهاد.

فالتقليد الأعمى وحده لا حرية الفكر ولا قداسة العلم، هو الذي يصيب هؤلاء "الباحثين" بالذعر حين يذكر اسم الدين.

نظرة المسيحية

نزلت المسيحية لمواجهة المادية المتطرفة التي كانت شائعة في بني إسرائيل وفي العالم الروماني كله يوم بعث المسيح عليه السلام. مادية تغالي في التشبث بالأرض والقيم الأرضية البحتة، حتى لتقطع كل صلة لها بعالم الروح، وتنسى كل دواعي السماء. لذلك كان من المناسب أن تشتمل على قدر غالب من الروحانية الصافية المرفرفة الجميلة، لتتعادل مع تلك المادية، لعلها تصلح النفوس.

ومن ثم كانت كل تعاليم المسيح عليه السلام دعوة للتطهر والروحانية. دعوة ترتفع بالإنسان عن نفسه، وتصل به إلى الآفاق العليا التي تسمو عن الجسد والمادة. الآفاق الطليقة من قيود الأرض ومن نوازع الشهوات.

ولكن هذه التعاليم المرفرفة الصافية، لم يكن المقصود بها أن تكون هي النظام الدائم الذي تسير عليه البشرية. فقد أنزل الله رسالته الأخيرة بعد ذلك بما يقرب من ستة قرون، حين اقتضت الحكمة العليا أن ينزل النظام الأخير...

ومهما يكن من أمر فإن هذه التعاليم المترفعة المتسامية التي تنفخ فيها روح نبي، قد تحولت من بعده إلى قيود متزمتة تتشدد بها الكنيسة ورجال الدين، حتى حولوها إلى رهبانية تنعزل عن الحياة وتقهر النوازع الفطرية، بحجة أن هذه النوازع دنس ينبغي أن يتطهر منه الأتقياء، الذين يخشون ربهم ويرجون لقاءه يوم القيامة، أو الذين هم –على حد تعبيرهم– "في المسيح".

وربما كانت الكنيسة ورجال الدين قد استوحوا من تعاليم المسيح وهم يحولون المسيحية إلى تشددها المتزمت، حين وجدوا المسيح مثلاً يقول:

"إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى بدنك كله في جهنم".

ولكنه كان استيحاء خطراً، يوشك –لو أنه نفذ بحذافيره– أن يعطل دفعة الحياة المتجددة الدائبة، ويصل به إلى البوار.

وما من شك أن هذه لم تكن حكمة السماء من إنزال المسيحية، ولا حكمة المسيح عليه السلام وهو يدعو لصلاح البشر. وإنما كانت تصرفاً بشرياً تطرف عن الحد المقبول، فانقلب عن مقصده الأصيل.

"وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا"[1].

وقد فشلت المسيحية في صورتها تلك عند التطبيق العملي، لأنها تتطلب من البشر فوق ما يطيقون احتماله. ولأن كبت النوازع الفطرية على هذه الصورة أمر مستحيل. فدفعة الجسد قوية عنيفة. وهي لا تفتأ تلح على الإنسان، وتضغط عليه ضغطاً ليستجيب إليها. فإذا وقع الفرد بين ضغط الغريزة الدائم الملح، وبين العقيدة التي توحي إليه أن الاستجابة لهذا الضغط دنس لا يجوز أن يلوث به نفسه، فليس لذلك إلا نتيجة واحدة، أو إحدى نتيجتين: إما أن يستجيب لوحي العقيدة –إن استطاع– فيترهبن، وينقطع عن الحياة والأحياء، أو يستجيب لدفعة الجسد العنيفة الملحة، فيطلق الشحنة الحبيسة التي يرهقه حبسها ويعذبه. ولكنه مع هذا لا ينجو من العذاب. فهناك الصراع الداخلي العنيف الذي ينشب في ضمير الفرد الذي تستولي عليه هذه العقيدة: صراع بين ما فعله وما كان ينبغي أن يفعله، صراع بين الجسد والروح. ينتهي بالعقد النفسية التي أشار إليها فرويد، وخصص حياته للكشف عنها، أو ينتهي بالاضطرابات العصبية التي تضيع نشاط الفرد وتبدد طاقاته، فلا ينتفع بها لنفسه، ولا ينتفع بها أحد من الأحياء.

ولنأخذ مثالاً لذلك الطاقة الجنسية: فالطريقة المثلى في المسيحية هي عدم الزواج. هي التطهر من رجس الغريزة. هي الانقطاع عن هذه الشهوة المدمرة التي تنهك الجسد وتهبط بالروح. ويصنع ذلك كثير من أتقياء المسيحيين، وخاصة رجال الدين. وتنظر المسيحية إليهم على أنهم الأبطال الذين استطاعوا أن يخمدوا شوكة الجسد، ويظهروا على نزعات الشيطان! والشيطان الأكبر في المسيحية هو المرأة التي تخايل للرجل، فتثير فيه ما لا ينبغي أن يثور في نفوس الأتقياء!

ولكن بقية "الشعب" المسيحي يتزوج على أي حال، ولا يأخذ نفسه بالرهبنة والانقطاع عن شهوات الحياة. فهل تنتهي المشكلة عندهم بالزواج؟ كلا! إن الصبي الذي ينشأ في جو العقيدة المسيحية، ينشأ وفي نفسه عقد تستنكر الجنس وتستقذره. وذلك من وحي الإشعاعات الدينية التي يلقيها إليه رجال الدين والكتب المقدسة، ويتلقاها من أبيه ومن مدرسه، ومن كتب النصائح والتحذيرات. فإذا كبر هذا الصبي، ووصل إلى سن المراهقة

[1] سورة الحديد [٢٧].

فالبلوغ، فهناك الأزمة العنيفة التي يصطدم بها على غير انتظار. هناك الدفعة الجارفة التي تنادي به آناء الليل وأطراف النهار: أن اقبل واستجب، واستمتع بتلك اللذة العارمة التي تنبت في أطواء جسدك، وفي الجانب الآخر ذلك السيف المصلت، أو ذلك السوط المرتفع في الفضاء يهدد تهديداً لا ينقطع، ويكاد يهوي على ظهر ذلك المراهق المسكين، بل هو يهوي عليه فعلاً بين الحين والحين، تمسكه يد خفية لا تبين، يتخيل أنها يد الله، أو يد القسيس، أو يد الوالد، أو المدرس، أو من يكون من صور الرادعين والزاجرين.

عند ذلك يبدأ الصراع، ثم لا يكف أبداً...

فدفعة الجسد متجددة لا تنقطع. وإيحاءات الدين التي تصور الجنس دنساً وقذارة، تلك الإيحاءات التي ترسبت في نفس الفتى وهو طفل صغير، تظل هي الأخرى متجددة لا تنقطع. ومن هذا الصراع تنشأ كما أسلفنا العقد النفسية والاضطرابات العصبية، التي تترك أثراً لا يمحوه بعد ذلك أن يتزوج هذا الفتى –أو الفتاة– في مقبل الأيام. بل أثبت الطب والتحليل النفسي أن كثيراً من أسباب الشقاء الزوجي يرجع أصله إلى عقد الصبا والمراهقة، وأن الزواج لم يحلها، بل كبرها كما يكبر المجهر النقطة الصغيرة.

ذلك مثل من أمثلة الاضطراب الذي ينشأ من تعارض هذه التعاليم مع طبائع الأحياء، اخترناه لأنه أبرزها وأوضحها. ولكنه ليس المثال الوحيد. فخذ مثلاً ذلك القول المنسوب للمسيح عليه السلام:

"إذا ضربك أحدهم على خدك الأيمن، فأدر له الأيسر".

إنها كما ترى دعوة نبيلة إلى الصفح والتسامح والغفران. ولكن كم من البشر يستطيع أن يخضع سورة غضبه لهذا الروح الملائكي الذي يقبل العدوان ويمنح الغفران؟ إنها لأقلية ضئيلة جداً دون شك. أما بقية البشر –الطبيعيين– فإن أول ما يخطر في نفوسهم هو الغضب للإهانة، والرغبة في الانتقام حفظاً للكرامة، وإرضاء للذات. فما موقف المسيحي المخلص لعقيدته بين هذه الرغبة الملحة، التي تعتبرها المسيحية نزغة من نزغات الشيطان، وبين التعاليم المتزمتة المتسامية، التي تفرض عليه الصفح لإرضاء الله أو المسيح؟

إنه على أقل تقدير موقف الصراع. وليس لهذا الصراع –إذا انتهى– إلا إحدى نتيجتين: إما أن تنتصر التعاليم المتسامية، فتكبت الرغبة في الانتقام في باطن النفس؛ ويقول التحليل النفسي إن كثيراً من الجرائم يرجع مصدره إلى مثل هذا الكبت، وإما أن تنتصر هذه

الرغبة، فتعود النفس بعد أن تهدأ سورة الغضب إلى الندم والأسف، وإلى الشعور بالخطيئة، وهو شعور مقلق لا يترك صاحبه في راحة.

وهكذا وهكذا.. كل التعاليم الكنسية المتزمتة.

فالنتيجة الحتمية لذلك هي أن يعيش الفرد حياته كلها في صراع مستمر، بين سطوة العقيدة وسطوة النوازع الفطرية. وينقضي العمر في شقاء لا يتيح للإنسان أن يستمتع بطيبات الحياة.

وليس عجيباً إذن -مع هذا التعارض الواضح بين هذا التعاليم وطبيعة الأحياء- أنها لم تطبق أبداً في واقع الحياة. إلا في أفراد قلائل، هم الذين ترهبنوا واعتزلوا الحياة كلها، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة -في نظرهم وفي واقع الأمر- التي يستطيعون بها أن ينفذوا التعاليم الكنسية على الوجه الأكمل المطلوب.

ولعله من حسن حظ البشرية أن كان تطبيقها في هذا الحيز المحدود؛ وإلا فأي كارثة كانت تصيب الإنسانية، لو أن الناس كلهم قد اعتزلوا في الصوامع والأديرة، فانقطعت الحياة بانقطاع النسل، ووقف التقدم البشري كله بانصراف الرغبة عن الحياة الدنيا، إطاعة لأوامر السماء؟!

وإذا كانت المسيحية -لأسباب سياسية وتاريخية- قد انتشرت في رقعة كبيرة من الأرض، فإنها مع ذلك لم تطبق تطبيقاً عملياً، وإنما بقيت في حدود الكنيسة لا تبسط ظلها على الأحياء إلا وهم خاشعون في صلاتهم، يسمعون التراتيل الساحرة والصلوات المؤثرة، فإذا انطلقوا بعد ذلك إلى أعمالهم، انطلقوا إليها بشراً لا مسيحيين: لا يدير أحدهم خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن؛ ولا يقلع أحدهم عينه ويلقيها عنه لأنها تعثره؛ ولا يرضى بأن يهلك عضو واحد من أعضائه تكفيراً عن إثم من الآثام!

وهكذا ظلت المجتمعات الأوربية -المسيحية- تعيش في ظل القانون الروماني، وبتعاليم الإمبراطورية الرومانية الوثنية، وإن كانت -في الظاهر- تعتنق المسيحية، وتقاتل من أجلها بين الحين والحين، في همجية ووحشية، كما حدث في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش.

على أن عدم تطبيقها بحذافيرها لم يخفف من آثار تعارض التعاليم الكنسية مع الطبيعة البشرية، بل ظل الصراع النفسي قائماً في نفوس المسيحيين، حتى تخلصوا من الدين كله جهرة في العصر الأخير كما سيجيء، ذلك أن التعاليم الذي تلقى في الصبا تترك أثرها الذي

لا يمحى من النفوس. وليس معنى عدم إطاعة هذه التعاليم حين يكبر الفرد، ويستقل بنفسه عن سلطان أبويه، أو سلطان المدرسة والطنيسة، أن المسألة قد انتهت، وأن الصراع الدفين قد استقر. وذلك أمر حققه المحللون النفسيون بما لا يدع شكاً في صحته، وأثبتوا أن العقد التي تصيب أفراد العالم المسيحي يرجع أغلبها إلى سلطان الدين، حتى ولو لم يكونوا في كبرهم متدينين!

ولعل القائل أن يقول: إن هذا شأن الدين كله، لا شأن المسيحية الكنسية وحدها في هذا المجال!

وهذا خطأ وقع فيه علماء النفس الغربيون عن جهل أو سوء نية، وقلدهم فيه أغلب المشتغلين بعلم النفس في الشرق الإسلامي، فصاحوا مع الصائحين: إن الدين جميعاً مخالف لطبائع البشر، فلننزع عن النفوس سلطانه، ولنحررهم من أغلاله، حتى يشعر الناس بالسعادة ويستمتعوا بالحياة.

وإن هدف هذا البحث أن يثبت أن نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية هي النظرة التي تتسق مع الطبيعة البشرية وتسايرها. وقد تحدثت عن ذلك بالتفصيل في الفصل الخاص بنظرة الإسلام. ولكني أكتفي هنا بكلمة مجملة: هي أن الإسلام يعترف بالكائن البشري كما هو —بنوازعه وميوله الفطرية– ولكنه يهذبها ويضع لها الحدود في الدائرة التي تتحقق بها مصالح المجتمع ومصالح الفرد ذاته. وأنه إذا كان يطلب من النفوس أن تتسامى وتترفع، فإنه لا يفرض هذا فرضاً، بحيث يعتبر المخالف له مذنباً أمام الله وفي نظر الشرع، وإنما هو يفرض فقط الحد الأدنى التي لا تصلح بدونه الحياة، ويترك المجال بعد ذلك للسمو والتطهر، تطوعاً لا فرضاً. فلا يثقل على النفوس، ولا يقهر نوازع الحياة في الأحياء.

* * *

على أن الذي يهمنا هنا هو أن نسجل بعض خطوات التاريخ، التي كان لها أثر في تطور النظرة إلى النفس الإنسانية، وما تلا هذا التطور من تغيرات في المجتمع والحياة.

كانت الكنيسة في أوربا هي ممثلة المسيحية. ولكنها لم تكتف —كما يفهم من تعاليم المسيحية– بالدعوة الروحية، ومحاولة الارتفاع بالبشرية إلى ذلك المستوى المثالي، الذي ترتسم صورته في الأنبياء والقديسين، بل ادعت لنفسها سلطة زمنية مسلطة على أرواح البشر وعقولهم وأجسادهم، واشتطت في ذلك إلى حد الدكتاتورية، بله الفظاظة والوحشية.

وهكذا أصبحت الكنيسة، مهبط الرحمة والتواد والتعاطف، غولاً بشعاً يطارد الأفراد في يقظتهم ومنامهم: يفرض عليهم الإتاوات، ويفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين الذين زعموا لأنفسهم قداسة ليست لبقية البشر؛ ويزيد على ذلك كله أن يفرض عليهم أفكاراً معينة باعتبارها أفكاراً سماوية مقدسة، لا يجوز الخروج عليها، وإلا اعتبر من لم يعتنقها كافراً بالكنيسة وبالمسيحية، ووجبت عليه لعنة الرب ولعنة البابا والدولة والناس أجمعين.

وكان من هذه الطائفة الأخيرة علماء قالوا بكروية الأرض، فعذبوا ونكل بهم أبشع تنكيل، لأنهم يخالفون "الحقائق المقدسة" التي احتضنتها الكنيسة، وقالت: إنها كلمة السماء!

ولم يكن ثمة شك، حين يقوم الصراع على هذا الصورة، بين الكنيسة وبين العلم التجريبي، أن يؤمن الناس بما يثبته العلم، ويكفروا بما تقوله الكنيسة، وأن ينتهزوا هذه الفرصة السانحة فيقفوا في وجه طغيان الكنيسة ودكتاتوريتها الفظيعة، وقد أمسكوا بأيديهم السلاح الذي يحطمون به أوهامها، ويزلزلون به كيانها، وينزعون قداستها من نفوس المؤمنين بها، وكان ذلك السلاح الجبار هو العلم.

ولعل أكبر زلزلة أصابت الكنيسة كانت على يد دارون، حين نادي بنظريته في أصل الأنواع. وتتالت الضربات بعد ذلك على أيدي العلماء والباحثين، فترنحت هيبة الكنيسة وأخذ تتهاوى. ولم يعد لها على أي حال ذلك السلطان الطاغي الذي يفرض نفسه على الضمائر والعقول.

ولكن أوربا حين نزعت عنها سلطان الكنيسة لم تكتف بذلك، بل نزعت عنها سلطان الدين أيضاً، إذ كان الدين لديها ممثلاً في الكنيسة، مجسماً فيها. وأغراهم بهذا أن في العقيدة المسيحية، كما صورتها الكنيسة لا كما أنزلتها السماء، كثيراً مما يناقض العقل ويثقل على الأفهام، وليست مشكلة التثليث إلا واحدة من هذه المتناقضات.

على أي حال لقد تجردت أوربا من نير الكنيسة ومن سلطان الدين معاً. وارتدت بذلك رومانية كاملة، لا يقف شيء في سبيل نزعتها الرومانية المادية التي لا تعرف غير الجسد ونزواته، ولا تؤمن إلا بالواقع المادي الذي تثبته الحواس.

ونشأت على أنقاض الكنيسة والدين فلسفة مادية بحتة، تستمد وحيها من الأرض، من واقع الحواس، ولا ترتفع ببصرها لحظة واحدة إلى السماء.

وكان داون كما ذكرنا بطل هذا الانقلاب التاريخي، حين قرر حيوانية الإنسان. فنفى عنه تلك النفحة الإلهية التي رفعته عن مستوى الحيوان، وهبط به إلى الأرض، لا يحلق ولا يسمو إلى الملكوت الأعلى.

ولست هنا بصدد عرض نظرية دارون. ولا أنا أحب أن أخطئ خطأ الكنيسة الأوربية حين كانت تعارض نظريته العلمية بنظرياتها الفلسفية. ولكني أقرر فقط أنه بصرف النظر عن صحة الوقائع التي وردت في نظريته، فإنه كان من ورائها فلسفة مادية بحتة، لا تتيح مجالاً لأي شيء خارج عن الأرض وعن المادة المحسوسة. وليس تهرب الداوينيين من البحث في مسألة نشوء الحياة على ظهر الأرض، بحجة أنها مسألة لا تهمنا في البحث، ولا يمكن الوصول إل دليل فيها، إلا مظهراً للتهرب من الاعتراف بوجود كائن أعلى يشرف على الحياة والأحياء، ويتدخل في الخلق والإنشاء. إنها فلسفة ترفض كل ما لا تستطيع الحواس أن تدركه، ولا تؤمن إلا بهذا الواقع الصغير الذي يبصره العقل ويصل إلى ميدانه العلم.

ومن هذه الفلسفة المادية نشأت كل النظريات الغبية الحديثة، وكل الفلسفات المسيطرة عليها. منها نشأت الشيوعية كارل ماركس في الشرق، وفلسفة فرويد في أوربا، والبراجماتزم في أمريكا. وكلها تمثل أصلاً واحداً وإن اختلفت المظاهر والفروع.

وبعد، فلم يكن من هذا العرض التاريخي، قبل أن نناقش المذاهب النفسية المختلفة، لنعرف كيف نشأت، والظروف التي كانت تجعل نشوءها أمراً منطقياً مع الظروف. ولكي نعرف أن ما نسميه "نظريات علمية ثابتة لا يتطرق إليها الشك" أو "مسائل موضوعية بحتة" إن هو إلا نتيجة لفلسفات معينة، و"لدوافع" نفسية خاصة، بحيث لا يمكن فصل هذه عن تلك.

وقد رأيت أن أتحدث عن فرويد بشيء من التفصيل، وأعرض لبعض المذاهب النفسية الأخرى عرضاً سريعاً، لسببين: الأول هو أن مهمة هذا البحث ليست استعراض كل النظريات السيكلوجية ومقارنتها بنظرة الإسلام، وإنما الاكتفاء بما كان منها خاصة ذا تأثير قوي على المجتمع. والثاني هو أن معظم النظريات الأخرى التي تبدو مخالفة لنظرية فرويد في التفصيلات والفروع، تلتقي كلها عند أصل واحد كبير: هو حيوانية الإنسان وماديته. فإذا تحدثنا عن نظرية فرويد بشيء من التفصيل، فإننا نكون في الوقت ذاته قد ألقينا على بقية النظريات شيئاً من الضوء.

فرويد

فرويد عبقرية فذة دون شك.

وقد كان لنظرياته في علم النفس أثر خطير، لم يقف عند حد المباحث النفسية، والتربية والتعليم، بل تعداها إلى كثير من نواحي النشاط الإنساني، فأثر في الأدب والفنون عامة، وفي الطب، والتجارة، وغيرها من شئون الحياة. ولكن أخطر آثاره وأعنفها كان في الحياة الاجتماعية، في أوربا وأمريكا، ثم في الشرق عن طريق العدوى والتقليد. فقد أحدثت نظيته في العقل الباطن، وفي التفسير الجنسي لمختلف نواحي السلوك الإنساني، انقلابات خطيرة جداً في المجتمع وفي الحياة. وعلى الرغم من ظهور نظريات أخرى جديدة في علم النفس، وبخاصة في أمريكا، إلا أن مفعول نظريته ما يزال يسري في الأفراد والمجتمعات، وما يزال هو الدافع لكثير من الحركات الفكرية هنا وهناك.

نعم. لقد كان لتلك العبقرية آثار بعيدة في أفكار الناس. ولكن العبقرية لا تعني بطبيعة الحال أن فرويد كان على صواب دائماً فيما يبديه من آراء، ولا تعني أنه لم يخطئ في تفسير النفس الإنسانية أخطاء أساسية خطيرة.

وقد وجه كثير من النقد لنظرياته، وخاصة بسبب إصراره على زج الجنس في كل مجالات النشاط الحيوي للإنسان. وقيل في هذا الصدد: إنه تأثر بدراسة الشواذ الذين كان يفحصهم، ثم أخطأ في تعميم أحكامه المستقاة من حالات شاذة على بقية البشر الأسوياء.

ولكن النقد الأول الذي ينبغي أن يوجه إلى فرويد، هو في أساس نظرته إلا الإنسان على أنه كائن أرضي بحت، لا يرتفع بمشاعره وعواطفه عن عالم الأرض إلا في حالات الشذوذ!

وقد أشرت في الفصل السابق إشارة سريعة إلى تأثر فرويد بدارون، في نظرته الحيوانية المادية للإنسان. وينبغي هنا أن نشرح الإشارة المجملة بشيء من التفصيل:

إن العيب الرئيسي لنظرية دارون ليس في الوقائع العلمية التي بسطها في كتبه، وتابعه فيها أعوانه ومريدوه، بقدر ما هو في إيحاءات تلك النظرية التي خلقت طابعها الخطر، لا في أفكار الجماهير وحدها، بل في اتجاه العلماء كذلك منذ عهده إلى العصر الأخير.

ولن نتعرض هنا للوقائع العلمية التي تحتوي عليها النظرية، وإنما نتعرض للفلسفة التي أدت إلى ظهورها وأثرت في تطبيقاتها فيما بعد. فهذه الفلسفة ليست "واقعاً علمياً" ولا هي "حقيقة موضوعية ثابتة" حتى تكون فوق مستوى النقاش! وإنما هي نزعة شخصية، وزاوية نظر معينة يحاسب عليها صاحبها ولو أدت إلى كشف بعض الحقائق الجوهرية. ذلك أنه ليست الحقيقة ذاتها هي التي تعمل، حتى في ميدان العلم التجريبي كما يخيل لكثير من الناس. وإنما الطريقة التي تعرض بها الحقيقة، والوجهة المقصودة منها، هي التي تمنحها الأثر وترتب عليها النتائج، سواء في العلم أو في المجتمع والحياة.

وهذه حقيقة تستأهل كثيراً من النظر والتحقيق، فنحن في الشرق خاصة يخدعنا هذا العنوان الضخم، عنوان "العلم التجريبي" فنظن أنه حقائق نهائية ثابتة، لا يعتبر من يتصدى لمناقشتها إلا جاهلاً أو مخرفاً! وقد كان ينبغي أن نحترس في الإيمان بالمعلومات "العلمية" حتى في العلوم البحتة كالرياضيات والطبيعة والكيمياء، ونحن نرى أن العلم ما يزال في طفولته، وما يزال كل يوم يصل إلى آفاق جديدة، فيلغي إلغاء تاماً معلومات كان ينظر إليها بالأمس على أنها "حقائق نهائية" لا تقبل الجدل ولا تحتمل التأويل.

وليس العهد ببعيد حين قال إينشتين: إن قوانين نيوتن في الجاذبية لا تصلح للتطبيق إلا على سطح الكرة الأرضية، ولكنها لا تصلح للكون الكبير. فهي إذن حقائق محلية صغيرة لا حقائق مطلقة. وهي قابلة للنقض والتبديل حين تطبق "على الاتساع"!

واليوم تكتشف أسرار الذرة، فتنشأ حولها نظريات كثيرة في تفسير الكون والحياة كانت مجهولة من قبل؛ ويبدو بجانبها بعض ما كان يسمى "نظريات علمية نهائية" أقرب إلى الخرافات والأساطير.

فإذا كان هذا كله في ميدان العلوم البحتة، التي تخضع خضوعاً كاملاً للتجربة المعملية، فأولى بنا إذن أن نكون أكثر احتراساً ونحن نتلقى نظريات علم النفس، أو النظريات التي تتصل بمجاهيل لم يتح للعلم التجريبي أن ينفذ إليها حتى اليوم. وينبغي ألا تأخذنا العزة بالإثم، أو بالعلم، فنقول: إن كذا أو كذا حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل والنقاش.

ومرة أخرى أقول: إنه ليس غرضي من ذلك أن أتعرض لوقائع النظرية الداروينية، ما ثبت منها وما لم يثبت[1]. وإنما أعرض للفلسفة التي نشأ عنها ذلك اللون من التفكير. فأول ما يتبدى لنا منها أنها فلسفة مادية بحتة، تقطع كل صلة للأرض بأية قوة خارجة عنها (ولو حتى على سبيل الاحتياط لما قد يجد من العلوم في المستقبل)[2].! وكأنما يقصد دارون قصداً إلى تحديد مجال بحثه بهذه الأرض، أو المجموعة الشمسية على الأكثر، لينفي أي أثر لقوة خارجة عنها، لها إرادة في الخلق أو دخل في النشوء والارتقاء! ويتضح ذلك من سرعته في معالجة مسألة الخلق الأول، أو نشوء الحياة على سطح الأرض الميتة الخالية من الحياة. وإن الداروينيين ليقولون: إن هذا البحث غير مهم، لا يقدم في المسألة ولا يؤخر! وإن الدليل اليقيني فيه غير موجود ولا يمكن الحصول عليه!

أي نعم، لا يمكن الحصول عليه، ولكن أهميته أو عدم أهميته مسألة ترجع لوجهة النظر الخاصة. فأما النظرة المادية البحتة، التي لا يهمها إلا واقع الأرض وواقع الحواس، فلا تهتم بهذه المسألة الضخمة، لأنها تحس إحساساً باطنياً كاملاً بأن مسألة الخلق الأول مردها إلى قوة ليست في حدود الأرض، وليست مما تدركه الحواس! وأما النظرة الشاملة والأفق المتسع، فيحسب لهذه المسألة حسابها الضخم، لأنه يترتب عليها اختلاف خطير في سير المجتمع وفي حياة الناس.

ذلك أن النظرة الأولى التي تحدد بحثها بحدود الأرض وحدود الحواس تنفي، أو تسقط من حسابها على الأقل، وجود القوة العليا الخالقة[3]، ويترتب على ذلك أن تنفي أو تسقط من حسابها كل ما يتصل بهذه الفكرة من قيم أخلاقية أو روحية، كما تنفي الدين بداهة، لأن الدين هو عبادة الخالق الذي أنشأ الوجود كله بقدرته.

([1]) كتب جوليان هكسلي وهو من علماء "الداروينية الحديثة" فصلاً بعنوان "تفرد الإنسان" في كتابه "الإنسان في العالم الحديث" ألقى فيه في الحقيقة جذور نظرية دارون فيما يختص بالإنسان وأثبت أنه متفرد في كل شيء حتى في تكوينه البيولوجي فضلاً عن تكوينه العقلي والنفسي!

([2]) ذكرت الصحف أخيراً أن عالمين أمريكيين قد كشفا في أحد الكهوف آثاراً من مخلفات الإنسان الأول، وأن هذا الكشف سيؤدي إلى نتائج مخالفة لنظرية دارون.

([3]) يقول داروين بصراحة: إن ذلك (أي تفسير شئون الحياة بوجود خالق له إرادة في الخلق) يكون بثمابة إدخال عنصر خارق الطبيعة في وضع ميكانيكي بحت!

والمجتمع الذي ينشأ عن هذه الفلسفة المادية هو بدوره مجتمع مادي، لا يقيم وزناً لشيء من القيم المعنوية. ولا يؤمن بما يقع خارج حسه، ولا تقوم معاملاته ولا أحاسيسه إلا على أساس المنفعة، ولو تعارضت مع الخلق أو نداء الضمير.

بل إن نظرة الناس إلى النفس الإنسانية وإلى عالم المشاعر في مثل هذا المجتمع لا يمكن أن تنجو من آثار تلك الفلسفة العامة، فلا ترى من جوانب النفس إلا ما يتفق مع نظرتها، وتنفي، أو تسقط من حسابها على الأقل، كل جانب يخرج عن هذه الحدود!

ومن هنا كان دارون أخطر من قام من العلماء في العصر الحديث. ومن هنا كذلك كان فرويد بنظرياته كلها، أثراً من آثار تلك الفلسفة، ونتيجة من نتائجها. وكان لزاماً علينا ألا نتلقى آراءه على أنها "حقائق علمية ثابتة" أو "مسائل موضوعية" تتأثر بالبيئة والظروف والملابسات!

وعلماء الغرب لا يحسون بطبيعة الحال بأن دارون قد أتى أمراً إدًّا حين قدم نظريته بهذه الروح المادية المتنكرة لكل قوة خارجة عن محيط الأرض، لأنهم كلهم من طينة واحدة. وهم بطبيعة بيئتهم وظروفهم التاريخية، يعيشون حياتهم على الأرض ولا يتطلعون إلى السماء[1].

أما نحن هنا! فما بالنا نؤمن الإيمان الأعمى بأن ذلك كان الأمر الواحد الصواب؟

وما بالنا نغلق بصيرتنا وأبصارنا، ونتلقف كل ما يصدر عن الغرب كالمسحور الذي لا عقل فيه، أو المبهور الذي تتقطع أنفاسه من البهر؟ لماذا لا نمحص الأمور، ونعلم على الأقل أن الظروف التي أوحت إلى علماء الغرب اتجاههم وفلسفاتهم، ليست هي ظروفنا، ولم تمر علينا؟ لماذا لا نؤمن بأننا أقدر –ونحن في نجوة من ظروفهم القاهرة– أن نقف من الأشياء موقفاً آخر، وننظر إليها نظرة أشمل وأعمق وأدق؟

وي! ألا إنه الغرور المرذول دون شك، هو الذي يدفعني إلى هذا القول الخارج على حدود الأدب بالنسبة لأولئك العلماء المقدسين!

([1]) ظهر فيما بعد الطبعة الأولى (١٩٥٢) وهذه الطبعة (١٩٧٥) اتجاه عند بعض علماء الغرب للرجوع إلى الله، وتفسير كل ما يجري في الكون بأنه إرادة الله الخالق المدبر المبدع. انظر نماذج من هذا الاتجاه في كتاب "العلم يدعو للإيمان" تأليف: جون أ. كريسبي، ترجمة: محمود صالح الفلكي.

وما لم يكن هو الغرور المرذول، أو هو الجهل المضحك بالنظريات العلمية، فما تراني كنت أريد من دارون أن يقول؟!

كنت أريد منه أيها السادة أن يقول: إنني توصلت بالشواهد والتجارب إلى تكوين نظرية معينة في النشوء والارتقاء، ولكن أموراً أخرى فاتتني ولم أستطع إدراكها، ومنها سر نشوء الحياة على ظهر الأرض، والسر الذي يجعل الأحياء تتشبث بالحياة، ثم السر الخفي في قدرتها على التطور لمواجهة ما يحيط بها من الظروف، لكي تحقق ما في طبيعتها من حب البقاء. ولا يمكنني في الوقت الحاضر إلا أن أقول: إنها من أسرار خالق الحياة التي لم يكشف عنها بعد للأحياء (وذلك بدل التمحك في "الطبيعة" و"القوانين الطبيعية")، وقد يصل العلم إليها في مقبل السنين، فيكشف عما فيها من مجهول.

هل يتنافى ذلك –يا مقدّسي الغرب وعبّاده المخصين– مع حرية الفكر، أو مع احترام العقل، أو ما ينبغي للعلم من قداسة وتوقير؟

هل يتنافى العلم الحق مع ذكر هذه الحقيقة الكبرى التي تشمل في أطوائها كل حقائق الأرض والسماء؟ أو هل يدفع الاعتراف بتلك الحقيقة إلى وقف التقدم العلمي عند حد محدود؟

كلا. كلا!

ولو قال ذلك دارون لتغير المجتمع الحديث كله، ولتغير التاريخ. فلو أنه ترك في نظريته العلمية التجريبية مجالاً للقوة الخالقة، ولم يلزم الناس –حين يصدقون علمه– أن ينفوا من أفكارهم ومن ضمائرهم تدخل تلك القوة الكبرى في شئون الحياة والأحياء، لسار العلم التجريبي في خطواته الجبارة جنباً لجنب مع العقيدة، وما يتصل بها من قيم خلقية ومعنوية وروحية.

ولكنه لم يقل ذلك: أولاً، لأن ظروف الصراع بين العلم والكنيسة، التي نشأت من دكتاتورية تلك الأخيرة وفظاظتها الوحشية في معاملة العلماء، كانت توجد جواً من العداء السافر بين العلماء وبين كل ما تقول به الكنيسة، ولو كان حقاً كفكرة وجود الله! فلم يكن من المعقول إذن أن يجامل دارون الكنيسة فيعترف لها "بإلهها" وهي لا تجامل أحداً من طلاب الحقيقة ولا ترحمهم من العذاب!

ولم يقل ذلك: ثانياً، لأن الاعتراف بإله الكنيسة كان يقتضي الاعتراف بسلسلة من الخرافات التي تعتنقها، والتي تتصل اتصالاً وثيقاً -في نظرها ونظر الجماهير- بفكرة الإله.

هذا طبعاً إذا كان هو شخصياً يؤمن بوجود إله؛ وعلم ذلك عند الله[١]!

تلك ظروف دارون التي أثرت في كل علاء الغرب من بعده، فجعلتهم يؤمنون بأنه لا سبيل إلى تقدم العلم إلا بمعاداة الدين ونفيه نفياً باتاً من الحياة[٢].

فأما نحن فما عذرنا في إقامة العداء بين العلم والدين؟ وما عذرنا في تصديق تلك الخرافة التي تقول: إنه ينبغي لنا أن نطرد الدين من مجال البحث العلمي الصحيح؟!

إنها العبودية للغرب الظافر المستعبد، والتقليد على طريقة العبيد، أو طريقة القرود.

إننا نملك من ظروفنا الخاصة، ومقوماتنا الخاصة، ونظرتنا الخاصة إلى الأمور، أن نعقد السلم بين العلم التجريبي والعقيدة، حين نؤمن بأنفسنا وبكياننا الذاتي، وحين نتخلص من هذا الأسر المنكود الذي أوقعنا فيه الاحتلال من الخارج، والتفكك والانحلال من الداخل.

وعند ذلك سنرى أننا حين آمنا بكل ما يأتينا من الغرب على أنه حقائق موضوعية ثابتة لا يرقى إليها الشك، كنا مخدوعين، وكنا مستعبدين!

* * *

يقول التاريخ الأوربي: إن نظرية دارون كانت نقطة تحول في تاريخ العلوم، وإنها أثرت في اتجاه التفكير البشري بحيث يمكن تتبع آثارها في كل ما أنتجه العلماء في العهد الأخير...

وهذا صحيح.

([١]) كتب داروين إلى أحد أصدقائه يقول: إنه لا يعرف لماذا يتهمه الناس بالكفر مع أنه لا يعتقد أن نظريته تنفي وجود إله! ولقد مر علينا من قوله ما يثبت نفوره من الإقرار بوجود إله يتدخل في شئون الخلق ويشرف على تطوراته.

([٢]) مر بنا في هامشة سابقة أن هذا الوضع قد بدأ يتغير. والحقيقة أن الكشوف العلمية الكبرى التي تمت في الفترة الأخيرة قد بهرت العلماء أنفسهم وأجبرتهم أن يعترفوا بأن هذا الكون الهائل الدقيق التكوين إلى حد الإعجاز لا بد أن يصدر عن إله خالق مدبر.

وقد تأثر بها فرويد كما أسلفنا. وأول ما يبدو من هذا التأثر هو نظرته إلى الإنسان على أنه مخلوق أرضي، عالمه كل محصور في هذا النطاق الضيق القريب.

ولكن هذا ليس كل شيء. فقد تأثر به من زاوية أخرى حين أزال عن الإنسان ما كان يحوطه من "كرامة" إنسانية، ومن رفعة وشفافية وروحانية. وذكل على اعتبار أن "رعاية الله" لهذا المخلوق، وتكريمه له، خرافة كبيرة، نتجت من الخرافة الكبرى المتصلة بخلق آدم!

وتأثر به من زاوية ثالثة حين تابعه في قوله: إن "غرائز" الإنسان هي الامتداد الطبيعي لغرائز الحيوانات السابقة له في سلم الصعود، مشافاً إليها قدر من التطور، هو القدر الذي نتج من الظروف التي صادفت الجد الأعلى للإنسان، فأثرت فيه، وأنتجت منه الكائن البشري على مر الأيام.

ومن هذا نجد أن نظريات فرويد هي الامتداد الطبيعي لنظرية دارون، أو هي تخصيص لها في ميدان "الإنسان". وعلى ذلك ينبغي أن نحترس مما فيها من المزالق الخطيرة. فكل هذه الإيحاءات التي نشأت من نظرية دارون ليست "حقائق موضوعية" كما قدمنا، وإنما هي وجهة نظر خاصة، وفلسفة معينة، مردها إلى المزاج الشخصي لصاحب النظرية، وإلى الظروف التي لابست حياته، والتي جعلت النفور من الدين والكنيسة واجباً مقدساً على كل صاحب رأي حر. ولكن هذه الملابسات الشخصية لا تُفرض علينا نحن، ولا تمنعنا من مناقشتها بالمنطق العلمي.

فأما قطع الصلة بين الأرض والسماء، أو بين الإنسان وخالقه، على أساس أن "الطبيعة" هي التي تشرف على الحياة في الأرض، وهي التي تتدخل في عملية النشوء والارتقاء، وأنها هي في آخر الأمر التي خلقت الإنسان، ومنحته أعضاء جسمه و"غرائز" نفسه. فتلك مغالطة مضحكة، إذا كان الأوربيون قد آمنوا بها لأسباب خاصة، فليس لنا نحن أن نؤمن بما آمنوا به. لقد لجأ إليها الأوربيون لأنها تخلصهم من سلطان الكنيسة المرهق، وترد إليها "إلهها" الذي تستبعد الناس باسمه؛ وتستبدل به إلهاً آخر له معظم خصائص الإله الأول، ولكنه يفترق عنه في أنه يعيش معهم على الأرض، ولا كنيسة له تستبد بالناس وتذلهم، ولا متناقضات حوله كمشكلة التثليث التي تحير العقل، ولا التزامات له عليهم من صلاة أو صوم أو تنسك وطهر... نعم. لقد صدق الأوربيون هذه المغالطة لأنهم تخلصهم من ذل الكنيسة، وتطلقهم على أعنتهم يبحثون عن اللذة دون ضابط ولا نذير، ويستعبدون غيرهم من أمم الأرض، لتزيد في ثرائهم ومتعتهم، كما كان الرومان يصنعون من قبل. أما نحن فليس لنا أن نتابعهم... أولاً: لأن ظروفنا غير ظروفهم، وثانياً: لأن هذه المغالطة لا تخضع لأي منطق علمي؛ وإلا فليقل لنا أحد ما هي على وجه التحديد هذه "الطبيعة" التي

تخلق كل شيء، والتي لا حدود لقدرتها على حد تعبير دارون؟ فإن لم تكن شيئاً له حدود معلومة وماهية مفهومة، فما المبرر المنطقي أو العلمي –لا العاطفي ولا الشخصي– الذي يبرر ترك فكرة الإله، والاستعاضة عنها بفكرة الطبيعة؟

أما نزع "الكرامة" الإنسانية عن الإنسان، بعد نفي النفحة الإلهية عن خلقه ونشأته، فتلك مسألة تبدو مفهومة وواضحة، إذ كان القصد منها مكايدة الكنيسة ورجال الدين، بتسفيه آرائهم، وتسوئ سمعتهم العلمية، وتصويرهم بصورة المخرفين الذين يستعبدون الناس بالخرافات. وقد كانت مسألة خلق آدم من أشد الأسلحة التي استخدمها الفريقان المتنازعان كل من وجهة نظره، فاتخذت ذريعة لتكفير دارون من جانب، وذريعة لرمي الكنيسة بالتخريف من جانب آخر.

ولكنا اليوم وقد انتهت تلك المعركة أو خمدت إلى غير رجعة، لا تجد في "العلم الموضوعي" ما ينفي قط أن الإنسان، أيا تكن خلقته الأولى، جدير بالتكريم والرفعة، وهو المخلوق الوحيد على ظهر الكرة الأرضية، الذي سما بعقله وروحه إلى ما يشبه المعجزات.

ويكفي أن يكون هو الذي حطم الذرة وعرف أسرارها وبدأ يطلق طاقتها. وأن يكون هو مبدع كل فن، والقادر على إنشاء كل حضارات التاريخ المادي منها والروحي سواء. فإذا كان هذا كله يميزه عن جميع الحلقات السابقة له في سلم التطور، فليس عجيباً إذن أن يكون وحده موضع التكريم، وأن يكون له شأن غير بقية المخلوقات.

وأما الثالثة: مسألة غرائز الإنسان التي تعتبر امتداداً لغرائز الحيوان، فقد انساق إليها دارون بطبيعة بحثه في "أجسام" المخلوقات وتطورها. فكان من الطبيعي بالنسبة إليه أن يلاحظ الشبه العظيم بين الإنسان وأسلافه من الحيوانات العليا. وجرته حماسته لنظريته أن يعتقد بأن التشابه في وظائف الجسم وأعضائه، لا بد أن يؤدي إلى التشابه في الوظائف النفسية، أو "التركيب النفسي"، بين الحيوان والإنسان[١].

وهذا خطأ لا شك فيه. فهناك بطبيعة الحال قدر مشترك من الحياة في جميع الأحياء. فالرغبة في البقاء، وما تستتبعه من حب الطعام والبحث عنه، والرغبة في حفظ النوع وما تستتبعه من الرغبة الجنسية... الخ، هي مسائل مشتركة بين الجميع وإن اختلفت الوسائل

---

(١) أشرنا في هامشة سابقة إلى اعتراف جوليان هكسلي، العالم الداروييني الحديث، بتفرد الإنسان حتى من الناحية البيولوجية البحتة التي زعم دارون أنه مشابه فيها للحيوان، فضلاً عن التفرد العقلي والنفسي، ونضيف نحن التفرد الروحي أيضاً.

حسب سلم الرقي. ولكن الإنسان وحده يتفرد –بعد ذلك، أي بعد هذه الجوانب المشتركة بين جميع المخلوقات– بأشياء خاصة، ولا يكون مقياسه فيها هو مقياس الحيوان[١]. وذلك كما يمتاز جنس من أجناس الحيوان عن سابقه بحاسة السمع أو البصر مثلاً، فلا يكون مقياسه فيها هو مقياس الحيوان السابق له في سلم الرقي، والذي لا يملك هذه الحاسة الجديدة. وتلك بديهية لا تحتاج إلى جهد في الإثبات، لولا أن الأمر كما يقول القرآن: "وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً"!

وقد يسلم لك المجادلون بامتياز الإنسان "بالعقل"، وأنه على الرغم من أن الحيوان على قدر من الذكاء والتفكير إلا أنه لا وجه للمقارنة بين ذكائه وذكاء الإنسان. ولكنهم يجادلون أشد الجدل في امتياز الإنسان "بالروح". لا لأن هذه ليست حقيقة. ولكن لأن اعترافهم بها يكلفهم تكاليف كثيرة، كتلك التي كانت تفرضها عليهم الكنيسة ففروا منها هاربين. فهم اليوم يهربون من الاعتراف بالروح والروحانية، لنفس الدافع القديم الذي جعلهم يهربون من سلطان الدين، فضلاً على أن الاعتراف بها يخالف طبيعتهم المادية الوثنية، التي ورثوها من روما القديمة، وما زالت تعمل في دمائهم بشعور أو بغير شعور.

فالنظرة الحيوانية للإنسان، إن كان يصلح تطبيقها في علم الحياة[٢]، فمن الخطأ أن تطبق كما هي في علم النفس، لأنها تؤدي إلى نتائج أبعد ما تكون عن الصواب.

* * *

وأحسبنا الآن قد عرفنا إلى أي مدى تأثر فرويد بفلسفة دارون ونظرياته. ولكن هذا كله كان تأثرا واعياً اقتنع به، واتبعه عن روية وقصد[٣].

ولكني أزعم أن هناك تأثيراً آخر ينبع من اللاشعور، قد لا يحس به فرويد نفسه، وقد ينكره إذا أحس به أو ووجه به، ولكن هذا لا ينفي أنه ممكن الحدوث.

أنا أزعم أن فرويد متأثر بكونه يهودياً، وأن إحساسه بيهوديته قد أنتج أثره اللاشعوري في فلسفته كلها، ونظرياته جميعاً.

---

(١) انظر الهامشة السابقة.

(٢) انظر الهامشة السابقة.

(٣) تبين لي بعد كتابة هذا الكتاب بسنوات أن المسألة لم تكن مجرد تأثر علمي بداروين وإنما كان استغلالاً مقصوداً لنظريته من أجل إفساد البشرية. انظر فصل "اليهود الثلاثة" في كتاب "التطور والثبات".

وأحب –قبل أن ينزعج عبّاد فرويد ومريدوه، وقبل أن يصيحوا بدافع الاستهجان أو الاستنكار: حاشا لله ما هذا بشراً! وإنما هو عالم لا يسري عليه ما يسري على بقية البشر العاديين –أحب قبل ذلك أن أنقل إليهم اعترافاً من فرويد ذاته، بأنه لا يبرئ نفسه من الهوى، وأنه بشر يعتمل في نفسه ما يعتمل في نفس غيره من نزوات وأحقاد![1]

قال في كتابه "تفسير الأحلام": إن دراساته كلها تقع في محيط الشواذ، ولذلك فقد يعترض المعترضون على نظريته في التفسير إذا كانت كلها مستمدة من تلك الأحلام. ولكنه شرح عذره في عدم استطاعته تفسير أحلام الأصحاء، بأنه يحتاج دائماً أن يعرف كثيراً جداً من الملابسات المحيطة بنفس أي شخص لكي يتمكن من تفسير حلم من أحلامه. وهذا لا يتيسر له بين الأصحاء بقدر ما يتيسر في محيط المرضى الذي يفدون إلى عيادته يطلبون العلاج، فيسألهم عن شئون حياتهم، ويسجل ما يلقون إليه من معلومات تعاونه على حل مشاكلهم النفسية.

وقرر لذلك كله أن يأتي بمثال من أحلامه هو، على اعتبار أنه يعرف ملابسات حياته، ويستطيع بالاستبطان أن يفسر خوافي نفسه.

ثم أورد حلماً سماه "حلم ٢٣ –٢٤ يولية سنة ١٨٩٥"، وفسره على طريقته الخاصة في عدة صفحات. ولا نحتاج هنا إلى نقل كل ما قال في التفسير. وإنما أكتفي بأن أنقل عنه قوله: "إن الدكتور "م" لا يوافق على العلاج الذي أجريته، ويعترض عليه فانتقمت منه في الحلم بوضع هذه الكلمات المضحكة على شفتيه، وتصويره بما يفهم منه أنه جاهل[2]"... "وقد أحسست أن "صديقي" الدكتور أوتو Otto يقف ضدي (إذ يتهمني بالتقصير في علاج "إرما") فانتقم لي منه الحلم بتحويل اللوم إليه... وتصويره بصورة من يرتكب الأخطاء"[3].

([1]) ظهرت بعد هذا الكتاب بسنوات طويلة مؤلفات بالعربية والألمانية والإنجليزية وغيرها تؤكد أن فرويد كان يصدر في كتابته عن نفس يهودية خالصة. اقرأ بالعربية كتاب الدكتور صبري جرجس وبالألمانية أو الانجليزية كتاب يونج تلميذ فرويد بعنوان "ذكرياتي عن فرويد".

([2]) عن كتاب "تفسير الأحلام" ترجمة أ. أ. بريل، طبعة سنة ١٩٥٠، ص١٢٢.

([3]) ص ١٢٦ من المصدر السابق.

فإذا كان هذا اعترافه عن نفسه فأنا لا أتجنى عليه حين أطبق عليه نظريته في الدوافع البشرية والعقل الباطن واللاشعور، وأزعم بناء على ذلك أنه متأثر بكونه يهودياً. وأن إحساسه بيهوديته قد أنتج آثاراً بعيدة في كل نظرياته.

فاليهود كما هو معروف، أقلية عالمية مكروهة ومنبوذة في أرجاء الأرض، وفي العالم المسيحي بوجه خاص. فإذا كانوا قد عاشوا أزماناً متطاولة داخل العالم الإسلامي يتمتعون بكل حقوق الإنسان، ويقومون بنشاطهم الاقتصادي، المشروع وغير المشروع، دون محاسب ولا رقيب، فلم يكن الأمر كذلك في العالم المسيحي الذي كان ينكل بهم، ويلتذ بتعذيبهم، ويصر على تحقيرهم علانية دون مواربة ولا إنكار. ولم يعترف لهم بحقوقهم الإنسانية أبداً، إلا حين أراد في العصر الأخير أن يكايد بهم العرب المسلمين، فقواهم وناصرهم، وسلطهم على العالم الإسلامي الآخذ بأسباب النهوض، ليؤخر نهضته أو يحطمها، وذلك بوحي من الروح الصليبية المتعصبة ضد الإسلام، والتي ما تزال آثارها باقية في نفوس المسيحيين رغم أنهم تخلوا عن المسيحية كدين[1] .

ومع كل هذه المناصرة والتشجيع، التي لم تصدر عن شعور إنساني، وإنما عن مصلحة خبيثة كما رأينا، فما تزال في أمريكا ذاتها، أشد مناصري الصهيونية، أماكن وضعت عليها لافتات تقول: "ممنوع دخول الكلاب واليهود"!

أما في غير أمريكا، فالأدب الإنجليزي غني بالشواهد على كراهية الإنجليز لليهود في القديم والحديث، واحتقارهم لهم والاشمئزاز منهم. وأذكر مثالاً قصة "الزنبقة الحمراء" الشهيرة "Scarlet Pmpernel" كما تشهد مسرحية شكسبير "تاجر البندقية" بما كان اليهود يلقونه في إيطاليا من مهانة وتحقير. أما في ألمانيا فقد وصلت المسألة إلى درجة الإبادة والاستئصال!

وأشد ما يتهم به اليهود أنهم قوم ماديون مغرقون في المادية، لا يرعون في سبيل تحقيق مصلحتهم الخاصة إلا ولا ذمة، وليس لهم ضمير يمنعهم من ارتكاب أخس الأعمال إذا كان لهم فيها كسب قريب أو بعيد.

ويتهمون كذلك بأن المثل العليا –والقيم الخلقية خاصة– كلام فارغ في نظرهم، وسخف لا يعود على الفرد إلا بالخسارة والحرمان.

---

(1) عن كتاب "الإسلام على مفترق الطرق" تأليف ليوبولدفايس، وترجمة عمر فروخ.

ولا ريب في أن الصبي "سيجموند فرويد" قد وقع في نفسه كثير من ذلك، وترسبت في لا شعوره أحاسيس معينة تجاه هذا الاضطهاد والتحقير الذي يلقاه اليهود، وهو منهم، وإزاء التهم التي تكال لهم بالشمال واليمين. فكيف "انتقم" لا شعوره من كل ذلك في صورة بريئة المظهر، معقولة، لا اعتراض لأحد عليها من أولئك "الجناة المعتدين" من المسيحيين؟

إنه ينتقم لنفسه ولليهود جميعاً بأن يقول: أيها الناس الذين تتهموننا بأننا نعيش على غرائزنا، لا نعرف إلا صوالحنا الخاصة، ولا نقيم وزناً لقيمة عليا أو ميزان خلقي... انظروا إلى أنفسكم! انظروا إلى دخائل شعوركم! وها أنذا أرفع أمامكم المرآة السحرية التي تنفذ إلى دخائل النفوس، وتكشف ظلمات المجهول في اللاشعور! انظروا إلى أنفسكم... إنكم كلكم كاليهود!! كلكم ماديون تعيشون على الغرائز! كلكم لا ضمير لكم، ولا أخلاق، ولا مثل عليا، ولا قيم معنوية! كلكم تنطبق عليكم الصورة البشعة الشائهة التي تلصقونها باليهود. فلماذا تخصونهم بها، وهي صورة الإنسانية عامة في القديم والحديث؟!

وهكذا يرفع فرويد –في اللاشعور– لعنة الأجيال التي انصبت على اليهود وحدهم، وينتقم لهم بأن يصب اللعنة على الجميع!

وليس ذلك فحسب...

ففي تصويره للمجتمع على أنه "الغول" الذي يتعقب الفرد ويحاول تحطيمه، كان يصور في لا شعوره الأغلبية المسيحية، التي تتعقب الأقلية اليهودية وتحاول تحطيمها والقضاء عليها. وحين يصور شعور الفرد نحو المجتمع بالكراهية والحقد، ونظره إليه على أنه القيد الذي ينبغي تحطيمه والتغلب عليه، يصور في لاشعوره إحساس الأقلية اليهودية نحو بقية العالم، وأمنيتهم في أن يحطموهم ويتغلبوا عليهم، ويكون لهم عليهم السلطان آخر الأمر. وكذلك في تصويره للكبت على أنه في الأغلب الأعم شيء مرذول يعود بأسوأ النتائج على الفرد، ويعذبه بالحرمان، والاضطرابات النفسية والعصبية، كان في لا شعوره يصور قمع العالم لليهود، وتعذيبه لهم، وإيقاع الاضطراب في صفوفهم.

وهكذا تكون آراء فرويد الأساسية كلها استجابة لا شعورية لما يعتمل في نفسه كيهودي، من حقد على العالم كله ورغبة في الانتقام. وهي استجابة تحايل لها عقله الباطن

بطريق التبرير "Rationalisation" –كما يقول فرويد– لتتخذ مظهراً علمياً بريئاً لا غبار عليه من الظاهر![1]

وأيا كانت التأثيرات الشعورية أو اللاشعورية، فلن نعتمد عليها في مناقشة آراء فرويد. إذ ينبغي أن نناقشها في ذاتها مناقشة موضوعية علمية. وإنما ذكرنا هذه التفسيرات لأنها تلقي بعض الضوء على اتجاه فرويد في تفسير النفس الإنسانية، وتقنعنا أن آراءه لم تكن حقائق علمية، بقدر ما كانت ملابسات شخصية.

* * *

وقد تحدثنا عن بعض الآراء التفصيلية لفرويد في فصول: "الفرد والمجتمع" و"الجريمة والعقاب" و"المشكلة الجنسية" و"القيم العليا". ولكنا نكتفي هنا بعرض عام لنظريته ومآخذنا عليها.

فأول ما يعاب عليه هو "تحقير" الإنسان، بتصويره مجموعة من الغرائز والشهوات لا يرتفع عن واقع الأرض المادي، ولا ينطلق من قيد الغريزة لحظة في فن رفيع أو فكرة عليا أو سبحة من سبحات الروح، إلا أن يكون قد وقف في طريق الطاقة الغريزية عائق قهري منعها من الانطلاق!

فالصورة التي يرسمها للإنسانية هي دائماً صورة الفرد الذي يسعى جاهداً طوال حياته لتحقيق لذائذه، مدفوعاً إلى ذلك بدفعة "اللبيد" (Libido) وهي الطاقة الشهوانية التي لا تكف عن الإلحاح. فإن استطاع تحقيقها مباشرة فبها ونعمت! وإلا فهو دائب التحايل على الحواجز التي تقف في سبيله، ليفلت منها بطريقة ما. وهو سعيد كلما استطاع أن "يضحك" على حارس من الحراس الواقفين له بالمرصاد، فيمر من أمامه بريء المظهر لا يثير الشبهات، وهو يخفي بين طياته في الواقع ما لو عثر به الحراس لانهالوا عليه بالعذاب والتنكيل! وهو لا يقوم بهذا الاحتيال واعياً في أغلب الأحيان، بل يقوم اللاشعور بمئات من أنواع المغالطة

([1]) على الرغم من عدم اعتراضي –من الناحية العلمية– على هذا المعنى الذي كتبته في سنة ١٩٥٢ فقد تكشف لي فيما بعد أن هناك قصداً –واعياً– مدبراً لإفساد البشرية بنشر تلك الصورة المشوهة "للإنسان" وتحطيم إيمانه بالقيم العليا كلها. ولا تعارض على أي حال بين هذا المعنى وذاك فهما متكاملان.

والتحايل[1]، هدفها جميعاً أن تجد منفذاً للطاقة الشهوانية التي لا تسكت عن الإلحاح. فإذا لم يستطع اللاشعور أن يحقق في اليقظة ما يريد، فإنه يلجأ إلى الأحلام، وفيها متسع كبير لتحقيق كل رغبة لم يتسع المجال لتحقيقها في اليقظة (وكل الأحلام عند فرويد تعبير عن رغبة مكبوتة أو كراهية مكبوتة). والفرد على أي حال لا يكف أبداً عن تحقيق لذائذه إلا أن يعجز عجزاً تاماً عن مواجهة الحراس، أو التحايل عليهم، أو أو يكون به من النقص الجسدي –العضوي– ما يمنعه من التحقيق. وكل ذلك يوقعه فريسة للاضطرابات العصبية والعقد النفسية، التي لا تقف عند حد في إفساد طبيعة الإنسان، وتبديد نشاطه الحيوي، والانحراف به عن الطريق السوي.

وهو يشرح التكوين النفسي للإنسان بأنه ثلاث درجات بعضها فوق بعض: أولها وأدناها الطاقة الشهوانية وموطنها الذات السفلى "id". وهي طاقة جنسية في أساسها، وإن كانت الذات السفلى تشتمل كذلك على طاقة "محايدة" ليس لها عنوان محدد، ولكنها تحت تصرف السيد الذي يستخدمها. وبعد ذلك توجد الذات "ego" وهي النفس الواعية التي تواجه المجتمع وتحتك به، وتحاول التوفيق بين الرغبات المتناقضة في داخل النفس، وبين الحقيقة المادية الخارجية. والعنصر الثالث في النفس هو الذات العليا "Super ego" وهو ينشأ من تلبس الطفل بشخصية والده. وحينئذ تنشأ عقدة أوديب كنتيجة طبيعية لحب الولد لأمه حباً جنسياً، يحول وجود الأب دون تحقيقه، فيتكون في نفس الطفل نحو أبيه شعور مزدوج طرفاه الحب والكراهية في آن واحد. ثم يتخلص الطفل من هذا الصراع –إذا قد له أن يسير في الخط الطبيعي– بأن يزيد تلبسه بشخصية والده (هذا في الولد، أما البنت فإنها تتخذ الموقف المقابل، وتتخلص من العقد بزيادة تلبسها بشخصية أمها). وعند ذلك ينشأ الضمير. وتكون مهمته الكبت والقمع للشهوات الجنسية غير المرغوب فيها، وذلك لحماية الذات من عسف ذوي السلطان في الخارج (الأب أو المجتمع أو الدين أو التقاليد[2]).

إلى هنا وتنتهي النفس الإنسانية في تصوير فرويد.

فأول ما نلاحظ على ذلك أن الضمير بمعناه الخلقي المعروف في علم الأخلاق غير موجود، وإنما هو خرافة يضحك بها الإنسان على نفسه! أما الحقيقة –في نظر فرويد– فهي

([1]) يقول في كتاب "The ego and the id "، ترجمة جون رفيير، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٤٢ في صفحة ٨٣: "إن موقع الذات بين الطاقة الشهوانية والحقيقة الخارجية كثيراً ما يغريها بأن تكون منافقة مخادعة نهازة للفرص، كالسياسي الذي يرى الحقائق، ولكنه يحب أن يحافظ على مكانته بين الجماهير!".

([2]) عن كتاب: The ego and the id .

أن الضمير الذي نشأ عن طريق القهر للنوازع الفطرية، يظل يقوم بهذا القهر لصالح الفرد ذاته، ولتجنيبه الاصطدام بالقوى الخارجية القاهرة.

وهو إذ ينفي الضمير الخلقي، ويستبدل به هذا الضمير النفعي، ينفي بالضرورة كل قيمة خلقية ذاتية، لأن هذه تقوم على "تطوع" الإنسان بالتنازل عن شيء من متعته، استجابة لقيمة عليا؛ أو إشراك الآخرين فيها، نتيجة الشعور بأنهم شركاء في الإنسانية وإخوان في الحياة.

والذي يقوم بهذا التطوع أو يدعو إليه هو ذلك الضمير الخلقي الذي يلغيه فرويد، فيلغي كل "منتجاته" من خير ورحمة وعدل، ومعاونة من القوي للضعيف، ومن الواجد للمحروم، بغير انتظار لجزاء، أو على أقل تقدير انتظاراً للخير البعيد الذي يعود على المجموع كله، حين يتنازل الأقوياء والواجدون عن بعض ما يملكونه للضعيف والمحروم!

ولسنا نغرب في الخيال، ولا نرقى إلى عالم الأساطير حين نقول: إن الحق غير ذلك، وإن الضمير الخلقي حقيقة واقعة، وإنه يفرض على الفرد أحياناً أن يتطوع باحتمال الألم، أو بالحرمان من اللذة أو الفائدة، في سبيل مصلحة عليا لا تعود على هذا الفرد بالذات، أو لا تعود عليه وحده. أو من أجل مثل أعلى يعتنقه ويجاهد في سبيله. والأمثلة كثيرة في التاريخ: أمثلة الأبطال والمصلحين، ولا نقول فقط الأنبياء والقديسين، وإن كان هؤلاء يؤيدون رأينا بداهة، ولا يحتاج أمرهم إلى جدال. وكون أولئك الممتازين قلة في البشرية، لا يعني أنهم غير موجودين، أو أنه لا قياس لهم. فالذي يحدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى. وإنهم قلة بتأثير التوجيهات والإيحاءات التي تصدر عن فرويد وغيه من ذوي النظرة المادية الضيقة. ولكنهم لا يكونون قلة في فترات الإشراق والصعود، الفترات التي يهتف فيها للبشرية الأنبياء والقديسون، والأبطال والمصلحون، فيرتفع الناس إلى آفاقهم العليا، منساقين إلى ذلك بغير ضغط ولا قهر، وإنما استجابة لدافع ذاتي يدفع إلى التسامي والصعود، ويعتمد في داخل النفس على رصيد واقعي مذخور!

والتطوع بعمل الخير أو تحمل الأذى والحرمان في سبيل فكرة عليا أو مصلحة عامة، يعارض تفسير فرويد للضمير، الذي يمثل عنده القوة الجبرية المفروضة على الإنسان فرضاً لا سبيل إلى الخلاص منه؛ ويؤكد وجود القيم المعنوية والإنسانية في محيط البشرية، كنتاج أصيل لها، لم يفرض عليها من الخارج، ولم يكتب لها ألا تطيعه إلا كارهة.

* * *

ولكن فرويد لا يرضيه هذا التفسير النظيف لبعض دوافع الإنسانية النبيلة، فيروح يلتمس لها المفسرات التي تذهب بجلالها، وتطمس ما فيها من إشراق. فكل ارتفاع عنده هو احتيال لا شعوري لمداراة خسة هابطة! وكلما زاد الإنسان تطهراً وإنسانية في الظاهر، كان ذلك دليلاً على عنف المشاعر الإجرامية التي يكبتها في لا شعوره!

ولو أنه قصر الأمر على الحالات المرضية الشاذة، كما يقول مثلاً في كتاب " Totem and Taboo"[1] ص٦٨: "في الحالات العصبية التي تستولي فيها على المريض فكرة معينة، نجد حساسية شديدة في الضمير، هي مظهر للقوة العكسية التي تعمل ضد الإغراء الشرير الكامن في اللاشعور...".

لو قصر هذه الصفة على الحالات المرضية لما كان لأحد أن يعترض عليه. ولكنه يجعل المسألة قانوناً عاماً يشمل الجميع. فها هو ذا يقول في ص٦٠ من الكتاب نفسه: "تكاد تكون جميع الحالات التي فيها ارتباط عاطفي شديد بشخص معين، منطوية على كراهية مختفية في اللاشعور واء هذا الحب الدافق الرقيق"!

وليس لهذه الكراهية سبب معروف فيمكن تجنبها، أو يساورنا الأمل في أن تتخلص منها الإنسانية في يوم من الأيام. وإنما هي فريضة أبدية، لأن الازدواج شيء في طبيعة المشاعر الإنسانية: فمع الحب ينشأ نشوءاً ذاتياً شعور الكراهية. واللذة يصاحبها الألم. والرغبة يصاحبها النفور. وهكذا كل إحساس يخطر في النفس يلازمه الشعور المضاد له بطريقة ذاتية، ولغير أسباب موضوعية[2] وإذ كان من المستحيل عملياً أن يظهر الشعوران المتضادان في منطقة الشعور، فإن أحدهما فقط هو الذي يظهر، وهو الذي يسمح المجتمع بظهوره، بينما يكبت الآخر في اللاشعور. ولكنه ينتهز كل فرصة ممكنة للإعلان عن وجوده، في الأحلام مثلاً، أو في حركات وأعمال ومشاعر تبدو في الظاهر أبعد ما تكون عن الموضوع، ولكن العبقرية الفذة تتصيد لها الشواهد، وتحكم بينها أسباب الارتباط!

يقول في كتاب "The ego and the id" ص٥٩: "تدل المشاهدات الإكلينيكية، على أن الحب تصحبه مشاعر الكراهية بانتظام يفوق الحسبان، وأن الكره في العلاقات البشرية يكون في الغالب سابقاً على الحب. وليس هذا فحسب، بل تدل تلك المشاهدات كذلك على أن الكره يتحول في مناسبات كثيرة إلى حب، والحب إلى كره...

(1) النسخة التي نستشهد بها في هذا البحث هي ترجمة جيمس ستراشي، طبعة سنة ١٩٥٠.

(2) أثبتنا من كلام فرويد نفسه –في فصل القيم العليا– أن هذا غير صحيح!

ومن الواضح أنه لا يدخل في حسابنا تلك الحالات التي يحب فيها الإنسان شخصاً معيناً، ثم يكرهه بعد ذلك لأن هذا الشخص يقدم له من الأسباب ما يبرر هذا التحول".

وعلى هذا الأساس يفسر كل العلاقات العاطفية التي يمكن أن تخطر في نفوس البشر: فالولد يكره أباه[١]، والفتاة تكره أمها، والزوجية تكره زوجها وتتمنى له الموت[٢]. وحزن الأهل على ميتهم ليس شعوراً خالصاً بالحزن الحقيقي لمفارقة هذا العزيز، ولكنه مداراة للفرحة الخفية التي يحس بها الأقارب عند التخلص من هذا الشخص، الذي كانوا يكرهونه ويودون لو يموت[٣]...

ولا تقتصر هذه الظاهرة على المشاعر الفردية، بل إنها لتمتد حتى تشمل الحياة النفسية كلها بين الأفراد والمجتمعات. يقول في كتاب "Totem andTaboo" ص١٥٧: "لقد أشرت في مناسبات عدة إلى أن الازدواج العاطفي "Ambivilence" –أي وجود الحب والكراهية تجاه الشيء الواحد ي ذات الوقت– هو الأساس الذي يقوم عليه كثير من النظم الحضارية. ولسنا نعلم شيئاً عن منشأ هذا الازدواج...".

فهي إذن لعنة مكتوبة على البشرية ألا يظهر فيها شعور واحد نظيف، خالص من الأدران والقذارات! ولن يتخلص البشر من هذه اللعنة أبداً، ما دام كل شعور نظيف في النفس، يلازمه –بصفة دائمة، و"بانتظام يفوق الحسبان"– شعور آخر غير نظيف.

فلن يحدث مثلاً على مدار التاريخ أن يحب الولد أبويه، ولا الوالدان أولادهما، ولا الأخ أخاه ولا أي بشر على الأرض بشراً آخر، إلا بأن يكبت هؤلاء جميعاً شعور الكراهية الذي ينبت في نفوسهم تجاه من يحبونهم، بطريقة جبرية لا إرادة فيها، ولغير سبب موضوعي، وبنفس القوة التي يكون عليها شعور الحب!

ولن يحدث أبداً أن تتسامى الإنسانية إلا بالكبت القهري للنوازع الفطرية، التي تتعارض بطبيعتها مع الارتفاع، ولا يمكن التوفيق بينهما إلا بالكبت... فللا مجال إذن عند فرويد لشخص واحد يمتنع بإرادته، ودون كبت، عن شيء من هذه اللذائذ في سبيل فكرة، أو مراعاة لخلق، أو نداء ضمير.

---

(١) "Totem and Taboo"ص٥٠.

(٢) المصدر السابق ص٦٠.

(٣) نفس المصدر ص٦٠.

وهو لا ينفي أن الناس تمتنع عن كثير من رغباتها وملذاتها. ولكنه يؤكد لك دائماً أن هذا الامتناع إنما يحدث تلبية لقوة من القوى القاهرة، الأب أو المجتمع أو الدين أو التقاليد، يبلغ من قهرها وسطوتها أن يقف الفرد أمامها عاجزاً عن المقاومة أو الاحتيال.

بل هو لا ينفي أن الإنسان يبدو أحياناً كأنه يمتنع، مختاراً، عن إتيان بعض الأعمال. ولكنه يفسر هذا الاختيار الظاهري بأن الذات العليا، أو الضمير السيكلوجي، هو الذي يقوم في هذه الحالة بإقناع الذات، أو إجبارها، على الامتناع عن هذا العمل، إنقاذاً لها من سخط ذوي السلطان، وما قد يلحقونه بها من أذى وإيلام. وتتم في داخل اللاشعور عملية مغالطة مركبة، يقنع الفرد نفسه بعدها أنه هو الذي اختار أن يمتنع وليست القوة الجبرية القاهرة هي التي منعته. وهذه المغالطة مفيدة من جانبين: الأول أن تضمن الذات العليا أن الذات ستطيعها ولا تنتقض عليها، ما دامت —في الظاهر– تمتنع متطوعة، وحينئذ تنجو من التعرض لسخط ذوي السلطان. والثاني أنه بهذه الطريقة لا ينخدش إحساس الإنسان بذاته، وينتفي —ولو ظاهراً– شعوره بالقهر الخارجي، فيبقى في سلام مع المجتمع، وتتحقق بذلك له السعادة. وهذا أبرع ما تقوم به الذات العليا من ألاعيب غاية في الدقة حتى ليخيل للبسطاء من أمثالنا أن هناك ضميراً خلقياً هو الذي قام بهذا الامتناع!!

وذلك جميل! وما ينكر أحد أن مثل هذا يحدث في نفس كل إنسان، ويتكرر في كل يوم وكل ساعة. وما ينكر أحد أن عبقرية فرويد هي التي كشفت هذا المجهول، الذي كان يلعب لعبه الماهر الدقيق في داخل النفس البشرية، دون أن يفطن إليه الكثيرون.

ولكن الأمر الذي ما نزال نأخذه على فرويد أن النفس البشرية لا تنتهي عند هذا الحد الذي يقف بها عنده. وأن هناك تطوعاً حقيقياً لا مظهرياً، لا يدعو إليه قهر القاهرين من ذوي السلطان، ولا العجز عن تحقيق رغبة معينة. وإنما يدفع إليه الترفع والتطهر، والعظمة النفسية التي تمتنع مختارة عن إجابة دفعة الطاقة الشهوانية، ثم لا يصيبها بعد ذلك عقد نفسية ولا اضطراب عصبي. وقد ذكرت من قبل الأنبياء والقديسين، والأبطال والمصلحين، وأضيف إليهم ألوفاً بل ملايين من البشر على ممر الأجيال، في الشرق كله والشرق الإسلامي خاصة، إن يكونوا قد اختفوا اليوم، أو قلوا بتأثير العدوى الغربية المادية، فقد كانوا إلى جيل واحد من الكثرة بحيث لا يخطئهم النظر. أناس يتطوعون بما لم يطلبه منهم أحد على سبيل الفرض، لا الدين ولا المجتمع ولا التقاليد، ولا هم من الشواذ الذين اضطرب سلوكهم إلى أعلى نتيجة كبت فرضته عليهم من الخارج قوة قاهرة. وإنما هو إرضاء لمشاعر إنسانية نبيلة، يفرضونها هم على أنفسهم متطوعين. وسأذكر لذلك أمثلة كثيرة عند الحديث عن نظرة

الإسلام. ولكني أجتزئ هنا بمثل بسيط ولكنه عميق في دلالته، يعرف صدقه كل من أدرك الجيل السابق في مصر، أو سمع عنه ممن شهدوه.

كان الفقير إذا احتاج إلى سلفة من غني يعرفه، وأحياناً لا يعرفه، يذهب إليه وفي نفسه بطبيعة الحال انكسار ومذلة. فما يكاد الغني يعرف حاجته حتى يبالغ في إكرامه ليزيل عنه ذلك الانكسار. ثم يدفع إليه طلبه، كأنما يدفع إليه سراً لا يريد أن يبوح به لأحد. ويقسم بعد ذلك أغلظ الأيمان لا يكتبن به وقة تثبت الدين. ثم يقسم لا يقبل رده إلا أن يتيسر الفقير، ويصير لديه –زيادة عن ضروراته– ما يستطيع به وفاء الدين. ويحاذر في ذلك كله أن يعلم أحد من الناس بهذا الدين المستور!

من ذا الذي يفرض على هذا الإنسان أن يسلك هذا السلوك؟

الدين؟

إن الدين يجعل من حق الدائن أن يأخذ بماله صكا، ويجعل كتابة الصك بصيغة الأمر في الآية: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ.." فهو لا يفرض على أحد هذا السلوك النبيل، الذي قد يؤدي إلى ضياع الدين كله، إذا كان المدين خسيس الأصل والطباع.

المجتمع؟

كلا! فلم يكن المجتمع يحتم على أحد أن يضع حقوقه هكذا في مهب الريح، عرضة لأبسط انحراف خلقي في نفس المدين. وصحيح أن المجتمع كان بطبيعة الحال "يعجب" بمثل هذا التصرف النبيل. ولكن استحباب الشيء ليس قوة قاهرة تدعو الناس إلى إطاعتها راغمين مكبوتين. ثم إن إصرار الدائن على كتم الخبر عن الناس، ينفي أنها حركة قصد بها استثارة الإعجاب والمديح.

فإذا قال بعض المماحكين: إن هذا كان "تقليداً" في ذلك المجتمع، يدعو إلى إطاعته الخوف من انتقاد الناس، فإن هذا لا يزيد على أن يكون توسيعاً لدائرة الخير والتطوع النبيل، حتى يكون سمة المجتمع كله، لا سمة شخصية يتميز بها فرد في جيل. وإلا فمن الذي فرض على هذا المجتمع منذ البدء أن يكون هذا تقليداً من تقاليده؟ ليست هناك قوة قاهرة يمكن أن ينشأ عنها هذا التقليد. وإنما هو التطوع النبيل بدأ به فرد أو أفراد فأعجب الناس به، وانساقوا إليه بمحض اختيارهم، فكانوا جميعاً نبلاء خيرين!

* * *

فإذا كان فرويد لا يؤمن بهذا الخير في الإنسانية، متأثراً في ذلك بنزعته المادية اليهودية، وبالمجتمع الأوربي الذي كان يعيش فيه، وهو مجتمع عريق في المادية، ورث تعاليم الإمبراطورية الرومانية وأنانيتها، وسعيها إلى تحقيق لذائذها على حساب الآخرين من مستعمرات ورقيق... فما الذي يفسر أو يبرر اعتناقنا نحن لهذه الآراء، ونحن نملك في الشرق معيناً لا ينضب من الأمثلة الإنسانية الرفيعة، التي تشهد بأن في البشرية خيراً حراً، طليقاً من القهر والقيود؟!

* * *

وقد كان منطقياً مع هذه المادية المتغلغلة في كيان فرويد، وفي المجتمع المحيط به، أن ينكر جميع المعنويات. فهو يذهب إلى أبعد مدى في نظريته في تفسير الأحلام، فينكر كل حقيقة خارجة عن نطاق الأرض، بل عن نطاق الإنسان ذاته في حيزه المحدود، فهو ينفي نفياً باتاً ما نسميه "الأحلام التنبؤية" لأنها قائمة على أساس "الروح" وعلى أساس صلة هذه الروح بالعالم الأكبر، وبالغيب المجهول. وتلك كلها "خرافة" يؤمن بها السذج البسطاء، ولا تليق بكرامة العلماء! فلا جرم إذن يقول عن الطريقة الرمزية في تفسير الأحلام إنها "طريقة خرافية"!

ولكن أمره عجيب فيما يتصل بهذا التصريح الخطير. ففي صفحتين متقاربتين عن كتاب واحد يقول أولاً: "إن تفسير الأحلام على الطريقة الرمزية (كتفسير حلم فرعون الشهير) لا يمكن تطبيقه إلا في حيز محدود[١]" ثم يقول عنها في صفحة تالية: إنها طريقة خرافية[٢]!

ولو أنه اكتفى بالقول الأول، أي أنها محدودة التطبيق، لما نازعه في ذلك أحد؛ فما من شك في أن الجمهرة الغالبة من أحلام الناس هي تنفيس عن أشياء مكبوتة أو تعبير عن رغبة مشتهاة كما يفسرها فرويد بحق. وتبقى بعد ذلك قلة ضئيلة من الأحلام لا يمكن أن تفسر على هذا الأساس، ولا يمكن بغير تمحل ولا التواء أن تفسر إلا على أساس الاعتراف بصلة ما، خفية دقيقة، بين هذا الكائن البشري والكون الكبير والغيب المجهول.

---

(١) ص١٠٨ من كتاب "تفسير الأحلام".

(٢) ص١١٢.

وهناك حقيقتان أساسيتان في هذا المجال. الأولى أن قلة عدد هذه الأحلام لا ينفي وجودها، ولا يبرر إسقاطها من الحساب. فلم يقل أشد الروحانيين روحانية إن "كل" أحلام الناس تنبؤية. بل قالوا: إنها القلة التي يراها الإنسان وهو صافي الروح، شفاف النفس، قادر بحالته هذه على اختراق الحجب، والاتصال "بالمجهول". ولكن واحداً منها يكفي لإثبات هذه الحقيقة النفسية الفذة. فكيف وهي ليست واحداً فقط، بل مئات وألوف يشهد بها الواقع الشخصي لكثير من الناس؟

المصادفة؟؟

يقول فرويد وحواريوه: إنها المصادفة هي التي تحقق بعض الأحلام، فيخيل للناس أنهم كانوا متنبئين. أو هو إيحاء الحلم ذاته، يدفع الإنسان دون وعي منه إلى تحقيقه!

والمصادفة يمكن أن تفسر بعض الحالات، والإيحاء الذاتي يمكن أن يفسر بعضاً آخر. ولكن تبقى بعد ذلك حالات لا يمكن تفسيرها على هذا الأساس.والتمحل، والتحايل غير العلمي، هو وحده الذي يصر على تنكب الطريق، لإثبات رأي غير دقيق.

ولنا في اعتراف فرويد الأول، الذي نكل عنه في صفحة تالية، ما يكفي لإثبات أن "بعض" الأحلام على الأقل، لا ينطبق عليها تفسيره الذي ينفي عالم الروح، بل ينفي كل شيء خارج حدود الإنسان وعقله الباطن، وهو "المخزن" الذي تودع فيه تجارب الفرد الشخصية، وملابسات حياته الصغيرة المحدودة.

والحقيقة الثانية: هي أن عدم وصول العلم حتى اليوم إلى تفسير هذه الصلة الخفية الدقيقة التي تربط الإنسان بالكون الكبير والغيب المجهول، لا تعني حتماً أن هذه الصلة غير موجودة. وكل ما تعنيه أن العلم لم يصل إليها بعد. ومن يدري لعله يصل إليها بعد حين. وقد اعترف العلم اليوم بالتليباثي[1] وهو عجيبة من العجائب بالنسبة للإنسان المحدود الطاقة، والمحدود مدى الحواس. فما يمنعه أن يصل غداً إلى آفاق أكبر وأوسع في تفسير النفس الإنسانية، وخاصة بعد وقوعه على أسرار الذروة والإشعاع؟!

---

(1) التليباثي: كلمة تطلق على التخاطة عن بعد. ومن الأمثلة التاريخية لها حادثة عمر الشهيرة، إذ وقف يصلي بالناس، ثم إذا به فجأة يقول: "يا سارية الجبل الجبل!" فسمعه سارية وانتفع بنصيحته فانتصر على عدوه، مع أنه كان يفصل بينهما ألوف الأميال.

ليس إصرار فرويد إذن على نفي العامل الروحي من حياة البشرية مستنداً إلى واقع علمي ثابت، وإنما هو تفسير ناشئ من تأثرات خاصة لا شأن للعلم بها، وليس فرضاً علينا، نحن المسلمين خاصة، أن نؤمن بها، ونتلقفها على أنها آيات من التنزيل.

* * *

أما نظرته إلى الدين فقد وصل فيها إلى أقصى الغاية في تشويه المثل الإنسانية الرفيعة، وتصويرها في أقبح صورة ممكنة!

فهو يرى أنه نشأ —أول ما نشأ– من جريمة منكرة. فقد حدث في جيل من أجيال الإنسانية الأولى أن أحس الأبناء برغبة جنسية ملحة نحو أمهم التي ولدتهم (لا أدري، ولم يقل فرويد، لماذا لم يتجهوا إلى الإناث الأخريات، اللاتي خرجن معهم في جيل واحد!) ولكن سطوة الأب كانت تمنعهم من هذه الشهوة الآثمة. فتآمر الأولاد على قتل أبيهم، ليتخلصوا من سطوته، ويستأثروا بأمهم. واستيقظت الأرض ذات صباح على صيحات مجنونة وصرخة مروعة: لقد نفذ الأولاد ما تآمروا عليه!

ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك حتى أحسوا بالندم، وتملكهم الشعور بالخطيئة، فصمموا ليقدسنّ ذكرى أبيهم القتيل!

وامترج شخص الأب في شعورهم ببعض أنواع الحيوان —وتلك عملية نفسية طبيعية كما يقول فرويد[1]!– فقدسوا هذه الحيوانات ومنعوا قتلها، وذلك تكفيراً عن قتل أبيهم، ورغبة في تقديس ذكراه! وبذلك نشأت أول ديانة على ظهر الأرض وهي الطوطمية. "وكل الديانات التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت فيها، والوسائل التي تطبقها، ولكنها جميعاً تهدف إلى شيء واحد، وهي رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذي نشأت عنه الحضارة، والذي لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة[2]"!

ثم يجد الفرصة السانحة لغمز المسيحية، العدو الأول لليهودية، وكأنما كان يرتب هذه المقدمات كلها ليصل إلى هذه النتيجة، فيقول: إن أساطير المسيحية تصور في حقيقتها رغبة

---

(1) لم يقل لماذا هي طبيعية. وكل ما استند إليه في تقريرها هو حالات مرضية شاذة لأطفال كانوا يحولون الكراهية المكبوتة في لا شعورهم ضد والدهم، إلى كراهية لبعض أنواع الحيوان وخوف منها.

(2) "Totem and Taboo" ص١٤٥.

الابن (المسيح) في قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة، فقتل نفسه هو بدلاً من أبيه، ولكنه في الوقت ذاته أصبح إلهاً مكان أبيه[1]!!

على أن الأمر لا ينتهي بتحقير الدين في منشئه، والزعم بأنه نشأ من عقدة أوديب، أي من شهوة جنسية مكبوتة. فهو يقول: إنه ما زال يمثل هذه الأفكار والمشاعر إلى هذه اللحظة!

وذلك فضلاً عن تصويره بأنه كوابت للنشاط الحيوي، نشأت من سخافة قديمة، كانت مفهومة عند الهمج والبدائيين. أما الآن فإن مهمته قد انتهت، فهو يترك مكانه للعلم[2]. وهذا ما يليق بالبشر المتحضرين!

* * *

أما المجتمع والأخلاق والتقاليد فهي "الحراس" الذين يتربصون بالفرد حتى يفتكوا به أو يوقعوه في سلطانهم ويخضعوه لمشيئتهم. والفرد من جانبه دائم الرغبة في الانتفاض على هذا السلطان، جهرة إذا أمن، واحتيالاً إذا خشي سوء المصير.

وقد لا يقول فرويد صراحة: إنه يعتبر المجتمع والأخلاق والتقاليد سخفاً ينبغي أن يزول، لينعم الفرد بالسعادة، ويهنأ بتحقيق ذاته ولذائذه...

ولكنه حين يقول لك: انظر إلى هذا المخبول، وإلى ذلك المريض بالهستريا، وذلك المصاب بالصراع، وذلك المصاب بالجنون من غير عيب وظيفي في مخه، وذلك المجرم المأخوذ إلى ساحة القضاء.. إنهم جميعاً ضحايا المجتمع التقاليد، ضحايا الدين ووخز الضمير.. ضحايا تلك العوائق التي تقف في سبيل الفرد وتكبت غرائزه، وتحطم بذلك كيانه وتبدد نشاطه...

حين يقول ذلك، يوحي إليك بأن الطريقة التي تمنع وقوع هذه العقد النفسية والاضطرابات العصبية، هي أن تزيل هذه الحواجز الضارة، وتطلق المشاعر المكبوتة من محبسها التقليدي!

---

(1) "Totem and Taboo" ص١٥٤.

(2) المصدر السابق ص٨٨.

صحيح أنه اضطر بعد ما وجه إليه من نقد شديد كما يصرح في كتاب " The ego and the id" أن يعترف بما سماه المشاعر العليا للإنسان: وهي الدين اولأخلاق والحاسة الاجتماعية ولكنه أصر على القول بأنها جميعاً تنشأ من قهر النوازع الفطرية الممثلة في عقدة أوديب.

وقد تحسب إذن أن فرويد ينظر إلى عملية الكبت التي يقول إنها السبيل الوحيد للتسامي والارتفاع، على أنها ضرورة بشرية، لا غنى عنها للإنسانية؛ وأنه ينظر إلى التسامي على أنه مزية خصت بها الإنسانية لترتفع عن مستوى الحيوان.

ولكنه لا يدعك لهذا الظن الخاطئ؛ فهو يؤثر الصراحة الكاملة وهو يؤدي رسالته في تلويث البشرية، وتشويه كل معنى جميل!

يقول في كتاب "Three Contributions to the Sexual Theory"[1] ص٨٢: تحت عنوان "التسامي". "أما ثالث أنواع الشذوذ (الجنسي طبعاً) فإنه يحدث نتيجة عملية "التسامي" حيث تصرّف الطاقة الشهرية الصادرة من منابع جنسية فردية، في مجالات أخرى[2]، وينتفع بها في هذه المجالات. وهكذا يحصل الإنسان على قوة "نفسية" كبيرة، من استعداد نفسي هو في ذاته خطير"!

وهو أصرح من هذا في بيان رأيه إذ يتحدث في ص٨٥ من نفس الكتاب عن "التعارض القائم بين الحضارة وبين النمو الحر للطاقة الجنسية"!

فإن شئت صراحة أكثر من ذلك فهي حيث يقول في كتاب " The ego and the id" ص٨٠: "إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية"!

* * *

على أني لا أريد أن أنكر أن فرويد ربما كان محقاً في بعض ما يقوله عن الدين والمجتمع والأخلاق والتقاليد بالنسبة للمجتمع الأوروبي. فقد كان المجتمع المسيحي الذي عاش فيه، واستمد منه تجاربه وأبحاثه، يتسبب بتزمته وصرامته في كثير من ألوان الشذوذ والاضطراب. وقد رأينا من قبل إلى أي حد يتعارض هذا التزمت مع طبيعة الحياة والأحياء، وكيف

---

(1) ترجمة أ. أ. بريل، طبعة سنة ١٩١٠.

(2) أي غير المجال الجنسي.

يصطدم بالنوازع الفطرية في النفس البشرية، فيقوم بينهما الصراع الذي لا يمكن أن يؤدي إلى الخير.

من هذه الوجهة إذن ربما كان له بعض العذر فيما يقول. ولكنه من وجهة أخرى غير معذور! فثمة خطأ فني في الطريقة التي يستقي بها أحكامه.

لقد كانت كل تجاربه في محيط الشواذ. ومن هؤلاء الشواذ استقى أحكامه على الأصحاء بدعوى أن في الناس جميعاً قدراً من الشذوذ[1]! وأن الشذوذ ما هو إلا تكبير للحالة الطبيعية، وقد نشأ في الأصل من حالة طبيعية[2]!

والخطأ في هذه النظرة أن النشاط الطبيعي في الحالة السوية يؤدي وظيفة لا يؤديها النشاط الزائد أو المنحرف. وعلى هذا الأساس، أي على أساس الاختلاف في الهدف والوظيفة ينبغي أن ننظر إلى الشذوذ، لا على أساس التشابه أو الاختلاف في المظاهر والأشكال.

ونضرب مثالاً لحالة جسدية قد تفيدنا في تفهم الحالة النفسية:

ففي الجسم السوي عملية نشاط دائمة تقوم بها الخلايا في نطاق معين، إذ تنمو خلايا جديدة على الدوام، لتعوض ما يستهلك منها في العمليات الحيوية المختلفة التي يقوم بها الجسم. وهذا النمو له وظيفة معلومة. وهو يستمر بطريقة طبيعية ليؤدي هذه الوظيفة، وإلا أصيب الجسم بالعجز والفناء.

ولكن حالة مرضية تصيب الجسم –لأسباب لم تزل مجهولة– فيحدث نشاط زائد في نمو الخلايا، لا يؤدي وظيفته العادية، بل يمتص غذاء الجسم، ويقف حائلاً دون نشاطه الطبيعي.

هذه الحالة لا توصف بأنها مجرد تكبير للنشاط العادي للخلايا، بل تعرّف بأنها ورم خبيث؛ وليس يفسرها في شيء أنها نشأت في الأصل من وظيفة طبيعية يقوم بها الجسم في حالته السوية. ذلك أنه وإن كان هناك تشابه شكلي في عملية النمو مع اختلاف في القدر،

(1) "Three Contributions to the Sexual Theory" ص٣٢.

(2) المصدر السابق ص١٤.

إلا أن النمو لا يؤدي وظيفة واحدة في الحالين، فهو في الأولى عملية ضرورية يقوم عليها بناء الحياة، وفي الثانية عملية ضارة خطرة على الحياة[1].

كذلك الأمر في الشذوذ النفسي. ففيه مشابهة شكلية للعملية النفسية الطبيعية، ولكنه يختلف عنها اختلافاً رئيسياً في الوظيفة. فلا يمكن الحكم عليه بنفس الطريقة التي نحكم بها على الحالة السوية، لأن هذه تؤدي وظيفة نافعة للنفس لا تتعارض مع كيانها الأصيل، بينما الشذوذ يتعارض مع هذا الكيان، ويؤدي إلى تدميره وإفساده. كذلك لا يجوز أن نعرض القضية في صورة عكسية فنقول: إن الحالة الطبيعية تصغير للحالة الشاذة، كما يود فرويد أن يقول: ليبرر إصدار حكم واحد على الحالتين.

ونأخذ على سبيل المثال حالة السادزم في صورتها السلبية (الماسوشزم) أي استشعار اللذة من الألم. ففي كل فرد سوي قدر من هذا الشعور. وهو يؤدي وظيفته الطبيعية في حدود هذا القدر، لأن بعض عمليات النمو ذاتها يصحبها شيء من الألم (كنمو الأسنان مثلاً) ولأن الضرورة تقتضي أحياناً أن يتعرض الإنسان لشيء من الجوع والعطش. بل إن تكوين الأخلاق والمشاعر العليا لا يتم بغير الامتناع عن أمور معينة، وهذا الامتناع لا بد أن يحدث شيئاً من الألم في مبدأ أمره على الأقل[2]. فلو لم يكن في الجسم ولا في النفس قابلية لاحتمال الأم واستعذابه ما أمكن أن تتم هذه الأمور.

ولكن الحالة المرضية تختلف عن ذلك في الوظيفة والغرض وإن تشابهت الصورتان. ففي حالة الشذوذ لا تتم اللذة إلا عن طريق الألم، سواء في المسألة الجنسية أو في أي شعور آخر. وهكذا يصبح الشذوذ معطلاً للنشاط الحيوي الطبيعي، منحرفاً به عن الطريقة التي تتم بها الفائدة الكاملة.

فكيف يجوز إذن أن نقول إن الماسوشية مجرد تكبير للحالة الطبيعية، أو أن الحالة الطبيعية هي مصغر الماسوشية!!

([1]) لعلماء الطبيعة اصطلاح خاص بهذا الشأن قد يهم القراء أن يعرفوه، خاصة وهو يستخدم أحياناً في العلوم الاقتصادية والاجتماعية وهو أن "التغير الكمي إذا زاد عن قدر معين ينقلب إلى تغير نوعي" أي أن الزيادة لا تقتصر حينئذ على المقدار ولكنها تحدث تغيراً في النوع أيضاً.

([2]) يقول فرويد كما قدمنا: إن المشاعر العليا لا تتم بغير الكبت. ولنا رأي آخر سنذكره في فصل "نظرة الإسلام". ولكن لا جدال في أن الامتناع عن العمل الغريزي يصاحبه الألم، حتى يتعود الإنسان على هذا الامتناع.

وإذ كانت كل أحكام فرويد قائمة على هذا الاستنتاج الخطير من الحالات الشاذة — وهو لا ينكر ذلك– فهي عرضة للخطأ أو المبالغة على أقل تقدير.

وأشد ما يبدو ذلك في افتراض أن كل أبناء البشرية يصابون بعقدة أوديب، ثم يتغلبون عليها بطريقة ما! وذلك لكي يفسر الحالات الشاذة التي عرضت له، والتي وجد فيها أطفالاً مصابين فعلاً بهذه العقدة!

فمقله في ذلك كمثل من يجد بعض الأطفال يولدون بست أصابع لا خمس كالمعتاد؛ فبدلاً من أن يقول: إن هذه حالات شاذة، يزعم أن كل الأطفال تتكون لهم ست أصابع، ولكنهم —بطريقة ما– يتخلصون من الأصبع السادسة ويولدون بخمس فقط، فيحسب أمثالنا من الجهلاء أن هذا هو الأصل في جميع الأطفال!!

* * *

والغلطة الثانية عند فرويد هي تعميم أحكامه المستمدة من جيل معين ومجتمع معين، على البشرية كلها في جميع أجيالها وجميع أنماطها. والأحكام الخاصة بالدين المسيحي في صورته الكنسية على الدين عامة بما فيه الدين الإسلامي، الذي يختلف اختلافاً أساسياً في نظرته إلى النفس الإنسانية عن كل ما عداه من النظم والعقائد. وما من شك في أن فرويد، بأفقه الضيق المحدود، كان عاجزاً عن الدخول في رحاب الإسلام، وتفهم روحه السمحة الطليقة التي لا تعتمد على الكبت، ولا صلة لها بعقدة أوديب، فليس في الإسلام ابن قاتل ولا أب مقتول!!

وقد يقول قائل: إن فرويد لم يكن يعنّي نفسه بهذه المباحث الفلسفية النظرية، وإنما كانت تعرض له حالات معينة فيدرسها ويستنتج من دراستها آراء معينة، يسجلها على أنها تجارب علمية، بصرف النظر عن مدلولاتها من الناحية الدينية أو الأخلاقية أو الاجتماعية!

وقد كان هذا يكون معقولاً وصحيحاً لو لم يتعرض لإصدار أحكام عامة على البشرية كلها، منذ مولدها إلى وقتها الحاضر، ويصر على أن هذه هي الصورة الوحيدة الصحيحة للبشرية جمعاء! ويصدر تفسيراً معيناً للدين، ويصر على أن كل الأديان بلا استثناء خاضعة لهذا التفسير!

ومع ذلك فإذا التمسنا الأعذار لفرويد من إيحاءات العصر الذي كان يعيش فيه، وملابسات حياته الشخصية، فليس هناك عذر لنا نحن حين نقتنع بصحة آرائه، ونعتقد أن البشرية كلها هي كما وصفها، والدين كله كما رآه[1].

ومن الواجب علينا أن نعيد النظر في هذه الآراء والنظريات، فنأخذ منها الصواب ونتجنب الخطأ. وسنجد حين نصنع ذلك أن كثيراً من الجزئيات قد يكون صحيحاً. ولكن الخطأ الأكبر والأخطر فيه، هو أن يقف بالإنسان عند مرحلة أقرب إلى الحيوانية، ولا يدع مجالاً للارتفاع به فوق عالم الضرورات.

ولو أنه قال في حق الإنسانية ما قال، ثم ترك الباب مفتوحاً لإضافة جوانب أخرى في النفس البشرية: الجوانب النظيفة المرتفعة المتسامية، ولم يصر على تشويهها وطمس إشعاعاتها بتفسيراته الملتوية المتحايلة، لما اعترضنا عليه في كثير.

فمن البديهي أن معظم الأحاسيس البشرية يقع في محيط الأرض، ويهبط إلى عالم الضرورة، ولكن القلة التي ترتفع عن هذا المستوى -مختارة- وتنطلق من عقال الجسد، هي أحق الجوانب البشرية بالتسجيل والإشادة، لأنها هي "الإنسانية"! هي التقدم الذي ارتفع بالإنسان عن سوالفه من الحيوان. وإن تطبيقنا لنظرية النشوء والارتقاء لهو ذاته الذي يدفعنا إلى تسجيل هذا الرقي الهائل الذي رفع الإنسان عن أسلافه، فتفرد بينهم جميعاً بمزايا نفسية وروحية، لا وجود لها في الكائنات الأخرى، وهي مزاياه الأصيلة التي لا يجوز إغفالها، ولا تفسيرها على طريقة الحيوان!

* * *

وأياً يكن نصيب آرائه من الخطأ أو الصواب، فقد كان لها في المجتمع الغربي أثر كبير عنيف. ولا تكاد توجد نظرية واحدة قد أحدثت ما أحدثته من الانقلاب في سير المجتمعات إلا نظرية دارون من قبل، ونظرية كارل ماركس التي سبقت فرويد في الزمن ولكنها لحقته في التنفيذ...

لقد اعتنقت آراءه الجماهير، يظاهرها في ذلك كثير من العلماء. ولم يكتفوا بنصوص نظرياته، بل توسعوا في تفسيرها على هواهم. وآمنوا جميعاً بأن الأمر الطبيعي هو أن تنطلق الغرائز من معقلها، ولا تقف عند حد إلا حد الاكتفاء! ولما كان المجتمع والدين والأخلاق

---

(1) تبين لي فيما بعد -كما أثبتّ في كتبي التالية- أن فرويد لم يكن معذوراً فيما يقول!

والتقاليد تقف كلها في سبيل هذا الانطلاق، فقد بدأ الناس —والشباب خاصة– ينظرون إليها على أنها أمور غير طبيعية، وغير منطقية. وأنها من تراث الماضي العتيق الذي كان غارقاً في ظلمات الجهالة، فلا ينبغي أن نبقى عليها اليوم وقد خرجنا إلى النور..

ونشأ جيل متشبع بهذه الآراء على ما فيها من مبالغة وأخطاء. جيل يرى أنه ليس أمامه إلا أحد أمرين: إما احترام المجتمع ووصايا الدين، وتقدير القيم المعنوية والخلقية، فينشأ من ذلك الكبت والمرض والاضطراب.. وإما تحطيم تقاليد هذا المجتمع، وإلقاء الدين جانباً، وطرح القيم الخلقية والمعنوية، لتحقيق السعادة الفردية، بمعنى الحصول على اللذة الجسدية، ولتحقيق شعور الأفراد بذواتهم واستقلالهم وحريتهم.

واختار الناس الطريق الثاني كما لا بد أن يكون! ساعدهم على ذلك أنهم كانوا على مقربة من الصراع الهائل الذي نشأ بين العلم والكنيسة، وانتهى بتحطيمها، وكل ما حولها من قيم معنوية صحيحة أو كاذبة، وعلى مقربة من الثورة الصناعية وما أحدثته من رجّات اجتماعية وخلقية[1]. يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال أنه طريق سهل حافل بالمغريات. وأن إطاعته أيسر "وألذ" بكثير من السير في الطريق الآخر، الذي يكلف الناس فرائض كثيرة لا يتحقق بغيرها وجود "الإنسان"!

ثم كانت الحرب العظمى الأولى، وجند ملايين من الشباب في كل مكان في أوروبا وأمريكا، وعاشوا في الخنادق سنين عدداً، يتهددهم الموت بالغازات السامة، وبالقنابل المدمرة، وبحرب الميكروبات، وحرب الأعصاب، وكل مزعجة من المزعجات. فما إن أوفت الحرب على نهايتها حتى انطلق أولئك المكبوتون، المحتجزون في الخنادق والمعتقلات، انطلقوا كالغيلان الجائعة تبحث عن الغذاء: غذاء الجسد الظامئ بطبيعة الحال، لا غذاء العقل والروح!

وكان ملايين من الشبان قد قتلوا في الحرب، فاضطرت المرأة أن تخرج إلى المصنع وإلى الطريق بحثاً عن الرزق: لأن عائلها قد قتل، أو لأنه استنكف أن ينفق عليها وهو خارج من الأزمة العظمى يريد الترفيه عن نفسه، ولا يطيق أن تفرض عليه القيود ولو كانت لأقرب الأقربين. ووقعت المرأة فريسة سهلة للجوع من كل نوع: جوع المعدة، وجوع المظاهر التي

([1]) لم يكن قد تبين لي بوضوح حين كتبت هذا الكلام أول مرة ما تبين لي من بعد، وأثبتّه في "معركة التقاليد" و"التطور والثبات" و"جاهلية القرن العسرين" من أن هذه الرجات الاجتماعية والخلقية التي حدثت في الثورة الصناعية لم تكن تلقائية، إنما افتعلها كذلك اليهود!

تحرص المرأة عليها من ثياب وزينة. وجوع الغريزة، فقد زاد عددهن على عدد الشبان بعد أن قتل منهم من قتل، فاستحال أن تجد كل فتاة زوجاً، ولو تزوج جميع من بقي حياً من الرجال...

وكانت فرصة ذهبية لإطاعة تعاليم فرويد، وما كانوا في حاجة إلى من يدعوهم إلى الانطلاق الحيواني، فقد كانت ظروفهم كلها تغريهم بالانطلاق. ولكنهم وجدوا في فرويد سنداً ضخماً لنزواتهم الجسدية الهائجة، فبدلاً من أن يظهروا أمام المجتمع مجرمين خلقيين، صار لهم من نظريات فرويد ما يسمح لهم أن يقولوا: إنما نحن نطيع هاتف "العلم" وهو أولى بالاتباع من أساطر الأولين!

ومن ثم كانت الأجيال التي نشأت في الحرب العظمى الأولى وما بعدها تؤمن بفرويد إيمانا أعمى، وتعتبره بطلاً من أبطال التاريخ. وليس غريباً –على ذلك– أن تعتبره مجلة لوك Look الأمريكية، أحد العشرين الذين صاغوا القرن العشرين! وتعتبره المراجع التاريخية أحد أبطال العصر الحديث!

وقد نشأت أبحاث فلسفية واجتماعية تقوم كلها على أساس التفسيرات التي قدمها فرويد للنفس الإنسانية، وتحاول أن تثبت أن "فكرة المجتمع" فكرة مضادة لطبائع الأشياء! وأن تقاليده وقيوده التي يحافظ بها على كيانه، هي قيود تحكمية ليس لها ما يبررها. وأن روابط الأسرة غل من الأغلال التي ينبغي الفكاك منها لتحقيق السعادة والهناء!

وزادت كراهية الأفراد للمجتمع، نتيجة للنظرة الفردية الأنانية التي أوحت بها نظرياته، حتى صار اسم المجتمع لا يذكر إلا وتلاحقه أوصاف الظلم والتعسف والاستبداد. وكذلك الأخلاق والدين والتقاليد لم تعد تذكر إلا بالحنق والسخط، أو الهزء والاستخفاف.

وانتهى الأمر في كثير من شعوب أوربا وفي أمريكا كلها إلى تحطيم المجتمع، وحل روابط الأسرة، والانسلاخ الكامل من تراث الأجيال السابقة كلها من أخلاق وتقاليد.

وليست دعوة "الوجودية" المنتشرة في فرنسا، إلا امتداداً سامًّا لإيحاءات نظرية فرويد. فهي تدعو إلى تحطيم كل قيد يقف في سبيل تحقيق ذاتية الفرد الكاملة، سواء كان هذا القيد من دواعي السماء أو الأرض. فليفعل كل إنسان ما يبدو له هو شخصياً أنه حق، ولو خالف كل ما اصطلح عليه الناس، ولو خالف العقل والمنطق أيضاً، فتلك من القيود التي فرضتها "الذات العليا" على الفرد إطاعة لقوانين المجتمع. وإنما ينبغي أن ينطلق "اللبيد" الحيواني الشهواني حيث شاء الانطلاق! وليذهب المجتمع إلى الجحيم، ولتذهب معه كل المثل

التي تعبت الإنسانية في إنشائها أجيالاً متطاولة من الزمان، إذا كانت لا تجيء موافقة لمزاج هذا "الفرد" المقدس الذات، الذي لا يجوز أن يعتدي على استقلاله شيء ولا أحد، ويجوز له هو أن يعتدي على كل شيء، وعلى كل قيمة من قيم الحياة!

وما الحيوانية الكاملة التي يمارسها الشباب في أوربا وأمريكا من الجنسين "ليتحرروا" من القيود، إلا أثر سام لإيحاءات فرويد في مسألة الجنس.

والصحافة العارية، والسينما العاربة، والقصص الجنسية الصارخة... وغيرها كثير.

كما نشأ من إيحاءات فرويد لون من الاعتقاد بالجبرية. ولكنها ليست الجبرية الدينية التي كانوا يعيبونها على الشرق المتأخر، والتي ترى بأن الإنسان ليس حراً في تصرفاته لأن الله هو المسيطر، بل هي جبرية نفسية، يؤمن أصحابها بأن الإنسان مسيّر لأن غريزته هي المسيطرة عليه، وهي التي توجه السلوك دون أن تدع للفرد مجالاً للاختيار!

ومن الإيمان بهذه الجبرية حدثت تطورات كبيرة في المجتمع الغربي، فحطمت تقاليده وأخلاقه، وأثرت في قوانينه كذلك، فقد أطلق العنان للفرد —في المسألة الجنسية- يصنع ما يشاء بلا حظر ولا عقاب، لأنه مسكين معذور... مجبر على ما يفعل. وليس أمامنا إذا منعناه إلا نتيجة واحدة، هي الكبت المدمر للأعصاب!

* * *

ولو أن أولئك "الهائجين" قاموا يطالبون بتعديل الأوضاع الظالمة في المجتمع المتزمت الذي كانوا يعيشون فيه، وتصحيحها بحيث لا تجور على الحقوق المشروعة للفرد، دون أن يغالوا في تقديس الفرد إلى الحد الذي يجعله المجتمع خرافة "تستعمل من الظاهر"...

لو فعلوا ذلك لكانت ثورتهم مفهومة ومقبولة.

أو لو أن المجتمع والأخلاق والدين والتقاليد —على إطلاقها- كانت منافية حقاً لطبيعة البشر، ولحقائق علم النفس، لطرحناها جانباً، وتركناها تذهب في ذمة التاريخ.

ولكن من قال إن هذا صحيح؟ بل إن من كلام فرويد ذاته —كما سيجيء في فصل "القيم العليا"- ما يثبت أن ذلك غير صحيح!

إن الرغبة في الانفلات من كل قيد، والإغراق في المتع الجسدية، هي التي أوحت إلى الناس في العالم الغربي بتصديق هذه الخرافة، لأن تصديقها يريحهم من تأنيب الضمير، والشعور بالجريمة، حين يرتكبون هذه الأعمال الحيوانية الخالصة؛ ثم يخادعون أنفسهم مرة أخرى، حين يوحون إليها بأنهم يرتكبون ذلك ليصبحوا متحضرين!

ويتابعهم الببغاوات هنا في الشرق فيقولون: هلموا حطموا دينكم وتقاليدكم وأخلاقكم لتدركوا شيئاً من حضارة المتحضرين!

ألا إنها المغالطة الكبرى لكل حقائق الحياة والنفس البشرية، هي التي أدت بالعالم إلى الحيوانية المتجردة التي ارتكس فيها بغير عذر الحيوان، وبغير حصافة الحياة التي رسمت للحيوان حدوداً معينة تقف عندها غرائزه، ومواسم معينة للنشاط الجنسي، حفظاً لكيانه أن يصيبه التلف والانحلال. أما الإنسان الذي كرمه خالقه ورفعه، وجعل في يده أمر نفسه، فإنه ينتكس اليوم إلى حمأة يتعفف عنها بعض أنواع الحيوان!

التجريبيون

حين ندرس فرويد من وجهة النظر التي اتخذناها في الفصل السابق، لا نكون في حاجة إلى استعراض المدارس الغربية الأخرى في علم النفس، فكلها تقريباً سواء، من حيث نظرتها المادية الحيوانية إلى الإنسان، ومن حيث إسقاطها للجوانب الروحية والعوامل الخلقية من الحساب، على اختلاف ما بينها في الجزئيات والتفصيلات.

ولكنني مع ذلك أرى أنه ينبغي أن نلم إلمامة سريعة بوجهتي نظر أخريين، لا لأنهما تختلفان عن غيرهما في النظرة اساسية إلى الإنسان، بل لأنهما أكثر إيغالاً في الاتجاه المادي الحيواني!

هاتان هما نظرة التجريبيين، ونظرة الشيوعيين.

* * *

التجريب هو الطابع الذي يتسم به العصر الحديث. وهو يؤثر بإيحاءاته المختلفة على العقلية الغربية كلها، ولكنه أشد بروزاً في "العالم الجديد" حيث يصل إلى درجة المغالاة، وإلى حد وضع الملح على البطيخ، والسكر على المخللات "لتجربة" طعم جديد!

ومنذ دارون، أو بالأحرى منذ فرانسس بيكون، بدأ العلم ينفصل عن الفلسفة، ويتخذ له طابعاً آخر غير البحث النظري، فاتجه إلى التجربة العملية، واستخلاص النتائج من التجارب الواقعية التي تقع في محيط الحواس، وخطا العلم خطوات جبارة في هذا السبيل في القرنين التاسع عشر والعشرين، ووصل في الهندسة والطبيعة والكيمياء خاصة إلى ما يشبه المعجزات. وكانت القمة التي وصل إليها هي تحطيم الذرة واستخلاص طاقتها، ومحاولة استغلالها فيما يعن للإنسان أن يستغلها فيه.. من تخريب أو تعمير!

وقد كانت النتائج التي وصل إليها العلم التجريبي من العظمة والجبروت، حتى بهرت الناس في الغرب والشرق، بل وصل الأمر في الغرب خاصة إلى عبادة هذا الكائن الجديد، والنظر إليه بعين الإيمان المطلق الذي لا تشوبه شائبة من شك أو جحود!

وإذا كانت أدوات العلم التجريبي هي الحواس، فقد آمن الغربيون بكل ما تصل إليه حواسهم، وأسقطوا من حسابهم كل ما لا تستطيع أن تصل إليه. وأغلقوا منافذ المعرفة جميعاً

إلا هذا المنفذ الواحد دون سواه، ساعدهم على ذلك من غير شك طبيعتهم المادية الخالصة، التي ورثوها من روما القديمة، وما تزال توجه حياتهم في كل اتجاه.

لذلك يؤمن الغربيون بكل ما يحمل "خاتم" التجريب، ويأخذونه قضية مسلمة لا تحتمل الشك أو التأويل؛ أما ما لا يخضع للمعمل فهو خرافة! أو هو على الأقل شيء ساقط من الحساب. ولما كانت قضية الألوهية لا تدخل إلى المعمل، ولا تخضع للتجريب العلمي، فقد استغنوا عن القضية كلها، وأعلنوا أن الله غير موجود!

وسرت العدوى من الغرب الظافر إلى الشرق المستعبد، فقامت الببغاوات والقرود، تصيح —من غفلة أو من سوء نية– أن اتبعوا الغرب لعلكم تفلحون، واطرحوا عنكم دينكم وروحانيتكم وأخلاقكم وصفاء سريرتكم، واستبدلوا بها المنطق المادي والأخلاق المادية، فذلك أجدر أن تتحرروا، وتخرجوا من الظلمات إلى النور!

* * *

وقد أدى العلم التجريبي للإنسانية خدمات هائلة، وقفز بها في فترة قصيرة إلى مجالات لم تكن تبلغها في الماضي إلا في آماد متطاولة.

وما يستطيع أحد أن يجحد المخترعات الحديثة الجبارة التي أنتجها العلم، فوفر الوقت والجهد، وضاعف طاقة البشرية على الإنتاج.

ولكن الناس لم يقنعوا بالحدود المعقولة للعلم التجريبي، فراحوا يجربون في كل شيء ولو كان لا يقبل التجريب! فالميدان الطبيعي لهذا العلم هو المادة. لأنها تخضع خضوعاً كاملاً لكل ما يجري عليها من تجارب؛ وأهم من ذلك أنها تستجيب دائماً بصورة واحدة للمؤثر الواحد، ولا تتغير استجابتها ما دامت الظروف المحيطة بها لم تتغير؛ لأنها لا تحس ولا تفكر، ولا إرادة لها في الاستجابة التي تصدر عنها، وإنما تخضع دائماً للقوانين الطبيعية والكيميائية التي تحكمها. ومن ثم نستطيع أن نعتمد على النتائج التي نحصل عليها من البحث.

ومع ذلك فما زال العلم كما أسلفنا لا يقطع برأيه الأخير في كثير من المسائل التجريبية التي تتصل بالمادة. وقد كان اكتشاف الطاقة الذرية حدثاً عنيفاً في تاريخ العلم، لأنه فتح السبيل لنظريات علمية كثيرة، يخالف بعضها ما كان العلماء قد تواضعوا عليه من قبل، وظنوا أنه القول الأخير.

ولكن شهوة التجريب لم تقف بالتجريبيين عند المادة، ميدانهم الأصيل، بل راحوا يجربون في كل شيء وكل ميدان، حتى عنّ لهم في مبادئ هذا العصر أن يجعلوا النفس مادة للتجريب، يخضعونها لتجارب المعمل، ويستنتجون من هذه التجارب قوانين يحكمون بها النشاط النفسي، ويفسرون بمقتضاها الإنسان والإنسانية.

وبُهر الناس وصفقوا معجبين! ها هو ذا العلم يقهر الأسرار واحداً إثر واحد، ويخضع حتى المعنويات لتجارب المعمل، ليصل فيها إلى حقائق موضوعية ثابتة، تحسم الجدل، وتقطع السبيل على المناقشات الفلسفية الفارغة!

والتفكير في النفس الإنسانية على هذا النحو تفكير عجيب. فقد يستطيع الباحثون ذات يوم أن يصلوا إلى نتيجة نهائية قاطعة في المظاهر المادية لهذا الكون. أما النفس الإنسانية فهي عالم واسع غير محدود. وما زالت البشرية منذ مولدها إلى هذه اللحظة تتحدث عنها، وتحاول الوصول إلى كنهها، في آدابها وفنونها وفلسفاتها وأديانها واجتماعياتها، فلا ينتهي الحديث، ولا ينقطع عند نقطة معينة. وإنما يتقبل البحث كل ما قيل، وكل ما سيقال، ويبقى الباب مفتوحاً بعد ذلك للمزيد. وكل كلمة صائبة تقال في فن أو علم، فإنما تلقي شيئاً من الضوء على هذا العالم الواسع، ويتقبلها الناس بالإعجاب والشكر، لأنها تنفذ بهم إلى أعماق هذا المجهول، فتطلعهم على بعض آياته الكبرى. ولكنهم كانوا على صواب حين ظنوا أنهم لم يصلوا إلى كل أسرارها، وأن من بين هذا الأسرار ما لا يمكن النفوذ إليه عن طريق العلم المحسوس لا اليوم ولا غداً، لأنه من أسرار الخالق التي لم يشأ أن يطلع عليها مخلوقاته؛ وأكبر تلك الأسرار وأعصاها على البحث مشكلة الروح.

حين كان الناس على سذاجتهم –مثلنا– يمنون بأن في النفس جوانب تتصل بالمجهول الأكبر، وتعتصم مثله بالغيب الأبدي، كانوا على صواب!

ولكن العلم التجريبي أفسد هذه السذاجة، وزعم للناس أنه القادر على كل شيء، وأن خرافات الماضي، وأساطير البسطاء من المؤمنين، إما أن تخضع للعلم والتجربة، وإلا فلتندثر إلى الأبد، وتُخْلِ مكانها للعلم الصحيح...

ومع أن أبعد الطرق عن الوصول إلى نتائج قاطعة في أمر النفس هو المعمل بالذات، لأن منهج القائمين بالبحث فيه، والأدوات الميسرة لهم، هي أبعد ما تكون عن الإحاطة بكل الجوانب البشرية:

أدوات المنهج التجريبي هي الحواس، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو عن طريق الآلات والأدوات، التي تمنحها دقة فائقة، وتصل بها إلى أغوار سحيقة، كانت تعجز بمفردها عن إدراك كثير مما يجري بداخلها، ولكن هذه الأدوات على دقتها البالغة، ليس من شأنها أن تفتح الميادين كلها للبحث التجريبي، وإنما وظيفتها فقط أن تساعد الحواس في الميدان الذي يمكنها بطبيعتها أن تعمل فيه.. ومن ثم فإنه يستحيل على العالم التجريبي، مهما أوتي من دقة الأدوات، أن يجرب إلا ما يقع في حدود الحواس. وعلى ذلك نستطيع أن نقدر إلى أي مدى يمكن للنفس الإنسانية أن تدخل المعمل، وأي قدر منها يكون صالحاً للبحث التجريبي... إنه ذلك القدر الضئيل الذي يتصل بالجسد، وتصلح لقياسه الآلات والأدوات.

وإذا كان هذا القدر يصلح لتفسير سيكلوجية الحيوان، فهو غير صالح للوصول إلى فكرة شاملة عن النفس الإنسانية. ذلك أن كيان الحيوان كله أو معظمه على أقل تقدير كامن في جسده. ولا يكاد يقع من نشاطه شيء خارج الجسد. أما الإنسان فأدنى نشاطه هو الذي ينبع من الجسد، وأنا أتحدث هنا عن النوع لا عن الكم...

وقد كانت الأمانة العلمية تقتضي أن يقول العلماء الأجلاء: إننا لا نجرب من جوانب النفس إلا ما يتصل بالجسم فحسب، ولا نتعرض للجوانب الأخرى، ولا نصدر أحكاماً شاملة على النفس الإنسانية، في الوقت الحاضر على الأقل، إلى أن تتاح لنا وسائل أخرى نصل بها إلى ما نريد.

ولكنهم –سامحهم الله– لا يقولون ذلك، لأن معناه أن يعترفوا بقصور "الإله الجديد" عن الإحاطة بشيء مما في الكون العريض. وأيسر من ذلك عليهم أن يزعموا أن النفس الإنسانية تنبع من الجسد! وأن كل المشاعر البشرية إنما هو صور نفسية لحركات جسدية. فالجسد هو المنبع، وهو المحرك والموجه لكل النشاط الإنساني.

وإذا كان العلماء النظريون يقولون: إن هناك نزوعاً أو انفعالاً نفسياً يؤثر في الجسد فينتج عنه حركة جثمانية، تهدف إلى تحقيق هذا النزوع أو إرضاء ذلك الانفعال... فإن التجريبيين على عكس ذلك يقولون: إن هناك إدراكاً لحالة خارجية معينة، ينتج عنه بطريقة تلقائية حركة جسدية: إفرازات كيميائية أو نشاط كهربي، يثر في النفس فينشأ عنه شعور يُحسّ!

أرأيت؟!

يقول قائلهم: إنني سمعت خبراً محزناً فبكيت، فنشأت من ذلك عاطفة الحزن! فالحزن نشأ من البكاء، أي من الحركة الجسدية، وليس العكس: أن الإنسان يحزن فتنهمر دموعه كما يقول العقلاء من عباد الله!

ويقولون: إنني رأيت الأسد فجريت، فنشأ من ذلك الخوف. لا أنني خفت فجريت..

ولا يحسبن أحد أننا نتجنى عليهم بنسبة هذا الكلام إليهم! فها هو ذا رائدهم وليم جيمس يقول[1]: "إن الفكرة التي نتخذها عن العواطف عادة، هي أن الإدراك العقلي لشيء ما، يستثير الحالة الوجدانية التي نسميها العاطفة، وأن هذه الحالة العاطفية الأخيرة هي التي يتولد عنها التعبير الجسدي. ولكن نظريتي على العكس من ذلك هي أن التغيرات الجسمية تأتي لاحقة مباشرة لإدراك المؤثر، وأن الإحساس الذي نشعر به نتيجة لهذه التغيرات هو العاطفة".

من الجسد إذن تنبع النفس، وليس العكس هو الصحيح!

ولو قالوا: إن هناك حلقة دائمة الاتصال بين الجسم والنفس في داخل الكيان الإنساني: فيؤثر الجسم في النفس، وتؤثر النفس في الجسيم دواليك، وإنما يختلف مقدار تأثير أحدهما في الآخر، حسب نوع الإحساس ومصدره وغايته؛ فيكون الجسم أحياناً هو الغالب، وتكون النفس أحياناً هي الغالبة، أو يكون أحدهما وحده هو مصدر الشعور...

لو قالوا ذلك لكانوا أقرب إلى الصواب!

فالجوع مثلاً حركة جسدية خالصة تؤدي إلى مشاعر نفسية وعقلية.

والرغبة في التعلم حركة نفسية خالصة (أو نفسية عقلية) تؤدي إلى تأثيرات جسدية

وبين هذين الطرفين تقع مشاعر كثيرة، يشترك فيها الجسم والنفس بنسب مختلفة في كل مرة. ويبقى بعد ذلك كله على أي حال، جانب هو أرقى جوانب البشرية وأحقها بالمعرفة والتسجيل، لا يقع في محيط الجسد على الإطلاق، وأعني بذلك الجانب الروحي من الإنسان.

---

(1) "La theorie de lemotion" ص٦٠.

هذا الجانب لا يمكن للمعمل أن يبحثه، لأن الحواس لا يمكن أن تدركه. ومن ثم فالروح بالنسبة للمعمل خرافة لأنها لا تخضع للتجريب.

وعلى الرغم من أن التليباثي، وهو من معجزات الروح الباهرة، قد تقرر كحقيقة علمية، إلا أن التجريبيين ما يزالون على عنادهم في إنكار الروح، يحاولون عبثاً أن يفسروه بطريقة مادية، تتسق مع نظريتهم "الواقعية!".

بقيت الأحلام التنبؤية؛ وقد استعرضنا رأي فرويد فيها من قبل، وتبيّنا مقدار ما فيه من التواء وتمحل، للوصول إلى نتيجة غير نزيهة. والتجريبيون أشد إنكاراً لتلك الأحلام من فرويد؛ فإذا كان هو قد قال: إنها محدود مدى التطبيق، فهم ينكرونها منذ البدء، ويهزءون بها ساخرين!

ومفهوم أن الحلم التنبؤي لا يمكن أن يدخل المعمل، لأنه فيه عنصراً غيبياً لا تدركه الحواس. فما هو يا ترى السر العجيب الذي يطّلع به الإنسان على الغيب، فيرى ما لم يقع بعد، على طريقة الزمر حيناً، وببعض تفاصيله أحياناً، بل بكل تفاصيله الدقيقة في بعض الأحيان، بحسب درجة الحاكم من الصفاء الروحي والقدرة على الاستشفاف؟

إنه من أسرار الخالق العظمى، التي لم يكشف بعد عنها لبني الإنسان!

وبدلاً من أن يعلن التجريبيون عجزهم عن تفهم تلك الأسرار، لأن وسائلهم لا تصل إليها، راحوا في جرأة عجيبة ينفون وجودها، لمجرد أنهم هم لا يستطيعون إثباتها..!

وإنها لحقائق ثابتة يدركها الإنسان حين يتخلص من قيود العقلية المادية الضيقة، ويفتح قلبه وبصيرته لهذا الكون العريض، فيتدبره بنظره واسعة الأفق، وإيمان بكل القوى المذخورة فيه؛ وسيجد حينئذ ظواهر عجيبة في حياة الإنسان، لا يمكن تفسيرها إلا على فرض وجود الروح.

* * *

ألا إنها لسخرية عظمى نظريات التجريبيين! وإنها لتبدو كالأقزام الضئيلة التي تحاول أن تقهر العملاق! ومع ذلك فإن الخطأ فيها لا ينشأ من قصورها عن الإحاطة بكل الجوانب النفسية فحسب، بل من منهج البحث ذاته، حتى فيما يتيسر فيه التجريب!

فقد اقتضت التجارب المعملية أن يجزأ الإنسان إلى أجزاء غاية في الصغر والتفكك، لأن هذه هي الطريقة المثلى في الحصول على نتائج "موضوعية"! ونسي العلماء الأفاضل أن هذه التفاريق المفككة ليست هي الإنسان، فإن اجتماعها ينشأ عنه شيء جديد غير مجموع الأجزاء –كما تقول نظرية "الجشتلت" وهي أقرب إلى الصواب.

ونضرب لذلك مثلين، أحدهما معروف مشهور هو المركبات الكيميائية: فالمركب له صفات جديدة تختلف تمام الاختلاف عن العناصر المركبة له. وملح الطعام مثلاً (كلورور الصوديوم) لا يمت بصلة –لا في المظهر ولا في الخواص– إلى عنصريه المكونين له، وهما الصوديوم والكلور. وكذلك النفس الإنسانية –مع الفارق الكبير– تختلف في كيانها المركب عن طبيعة أجزائها متفرقة.

والمثال الثاني هو الساعة. فالساعة دون شك هي مجموع "التروس" والمسامير والأدوات الأخرى المكونة لها. ولكنك لا تستطيع أن تأخذ فكرة صحيحة عنها إذا أنت اكتفيت بدراستها وهي مفككة الأجزاء، لأن تركيبها على وضعها الصحيح ينشأ عنه شيء جديد بالمرة، هو الحركة الدالة على الزمن، وهي الهدف الحقيقي من وراء كل هذه الأجزاء.

وقد يدرك العلماء ذلك كله ويقرون به وهم على أبواب المعمل، فإذا ما خلوا إلى أبحاثهم وتجاربهم نسوا كل شيء، وأخذتهم العزة، فراحوا يزعمون في خيلاء كاذبة أن تلك المزق والأشلاء التي يبحثونها في المعمل، هي النفس الإنسانية الحقيقية، أو هي الأساس الصحيح الذي تقوم عليه، على أقل تقدير!

ولا يسع الإنسان هنا إلا أن يشير إلى أن الآداب والفنون جميعاً، أصدق تعبيراً عن النفس الإنسانية من علمي النفس التحليلي والتجريبي خاصة، لأنها تصور الحركة الحية في النفس المتكاملة، لا الأجزاء الهامدة، والتفاصيل الجامدة، التي ينقصها الصدق والحياة!

* * *

ولكن هذا كله لا يعني أن علم النفس التجريبي علم لا فائدة له، فهو على العكس من ذلك قد أفاد فائدة لا تقدر في ميدان التعليم. وأصبح اليوم في الإمكان –عن طريق المباحث التجريبية –توفير كثير من الوقت والجهد، كانا يضيعان من قبل عبثاً في تعليم الأطفال بوسائل غير صحيحة.

ولو لم يكن لهذا لعلم غير تلك الأهداف التطبيقية في التعليم، لكان ذلك سنداً كافياً يبرر وجوده ويبيح المضي فيه إلى أقصى الغاية. ولكن أكبر الأخطاء وأخطرها هو أن العلماء لا يعرفون حدودهم الصحيحة. فهم حين خرجوا من الميدان التطبيقي في التعليم، وراحوا يصدرون أحكاماً شاملة عن النفس الإنسانية، وقعوا في أخطاء لا حد لها، ونشأت من أخطائهم إيحاءات خطيرة، خرجت بالإنسان عن إنسانيته، وهبطت به إلى مستوى الحشرات والدواب!

ولا يحتاج الإنسان إلى جهد ليدرك أن نظرياتهم مادية بحتة، تريد أن تعامل الإنسان معاملة المادة الجامدة. فالأساس الذي يقيمون عليه تجاربهم، يوحي بأنهم يفترضون أن النفس كالمادة، تستجيب بطريقة واحدة للمؤثر الواحد إذا اتحدت الظروف. ولا شك أن هذا غير صحيح إلا في محيط ضيق جداً من النشاط الإنساني، هو ما يتصل بالجسد وحده، أو ما يكون الجسد هو العنصر الفعال فيه (وحتى الجسد مادة حية قد تفترق كثيراً أو قليلاً عن المادة الجامدة). أما بقية جوانب النفس فلا يفترق فيها فرد عن فرد فحسب، بل إن الفرد الواحد يختلف عن نفسه ولو اتحدت الظروف جميعاً. وأبسط أنواع الاختلاف كما يقول الفلاسفة هو أن كل لحظة تمر تضيف إلى الإنسان جميعاً من المعرفة ومن التجربة يحسب حسابه في اللحظة التالية، فلا يمكن بذلك أن يمر الإنسان الواحد بحالة واحدة مرتين.

ولكن أخطر مظهر لهذه المادية، هو تفسيرها للنشاط الإنساني كله على أنه نابع من الجسد. لأنه إذا كان الأمر كذلك، فلا مجال إذن لغير المشاعر الجسدية البحتة. أي أنه لا مجال للجوانب الخلقية ولا الروحية، لأنها لا يمكن أن تنبع من الجسد، ولن يتوصل التجريبيون ذات يوم إلى اكتشاف تغيرات جسدية، كيميائية أو كهربية، يمكن أن تنشأ عنها فكرة خلقية، أو ضمير خلقي، أو مثل من المثل العليا الإنسانية!

ومن ثم توحي هذه النظرية، التي لا تقوم على أساس علمي صحيح، بأن المجتمع والدين والأخلاق كلها سخافات لا موجب لها، لأنه لا وجود لها في جسم الإنسان! وقد آمن الناس بذلك مخدوعين باسم العلم التجريبي، أو هم كانوا مؤمنين بذلك من قبل، فقد كانت إيحاءات دارون وفرويد، والمادية المتغلغلة في النفوس تؤدي إلى هذا الإيمان، ولكن العلم التجريبي زادهم استمساكاً بما تدعوهم إليهم فطرتهم الهابطة المنحلة، لأنه زعم أنه يعطيهم حقائق نهائية ثابتة عن النفس الإنسانية!

كذلك آمن الناس في الغرب بأن نظام الأسرة نظام مفتعل، فليس في جسم الإنسان ما يحمل على الارتباط بأسرة. كل ما في جسمه هو الطاقة الجنسية، وهي مسألة بيولوجية، لا خلقية ولا اجتماعية! فلا يحتاج الإنسان ذكراً كان أو أنثى إلى أكثر من تلبية تلك الحاجة

الجسدية البيولوجية على أي شكل من الأشكال؛ ولا ضرورة لأخلاق ولا مجتمع ولا أسرة، لأن المعمل لم يكشف بعد عن الجانب الجسدي الذي "تسكن" فيه هذه الأشياء!

كما آمنوا بأن المثل العليا خرافة يضحك الإنسان بها على نفسه (ولم يبين أحد لماذا يصنع الإنسان ذلك، وما حاجته إليه!)، وأن الحقيقة الوحيدة هي الحقيقة المادية الواقعية حقيقة الأرض، والنوازع التي تشبه نوازع الحيوان، والفرد وملذاته ورغائبه، ولا شيء غير ذلك إلا أساطير الحالمين!

وزادوا إيماناً بالجبرية الشعورية التي أوحى بها فرويد من قبل. فإذا كانت الحياة النفسية مصدرها الجسد، والجسد إفرازات كيميائية ونشاط كهربي لا سلطان لأحد عليه، لأنه يعمل بطريقة غير إرادية، فقد انتفت إرادة الإنسان التي يكون بموجبها مسئولاً عما يفعل.

وضغط الجسم دائم؛ وكل حركة جسدية تؤدي حتماً إلى ما بعدها، وتؤدي في النهاية إلى ألوان من الشعور والعواطف والسلوك، مفروضة على الكائن البشري لا يملك لها دفعاً، ولا تترك له سبيل الاختيار، لأنه لا يحس بها إلا وقد وقعت الواقعة داخل الجسم، فأفرزت الإفرازات، أو صدر النشاط الكهربي الموجه للسلوك!!

وهكذا تسقط المسئولية الخلقية، ويسقط كذلك "الإنسان"!

الشّيوعيون

يؤمن الشيوعيون بادئ ذي بدء بأن علم النفس كلام فارغ، لا لأنهم –لا سمح الله– يعتبرونه أضيق من أن يحيط بكل جوانب النفس الإنسانية الرحيبة، ولكن لأنه يقرر أن في النفس الإنسانية نزعات "فطرية" يولد بها الإنسان؛ وهذا يفتح الباب لمن يريد أن يقول إن حب الملكية نزعة فطرية في البشر أجمعين! ودون ذلك ويصبح كل شيء سخافة من سخافات الرأسماليين!

ولكنهم مع ذلك يحبون فرويد ويؤمنون به! ذلك أنه يشبع شهوتهم في تحطيم المقدسات كلها، وتلويثها، وتصويرها بأنها قيود ابتدعها المجتمع (الإقطاعي ثم الرأسمالي) لحماية ذاته، ولكنها ليست في ذاتها شيئاً يستحق الاعتبار.

فإذا تحطمت المقدسات، وتلوثت صورتها في نفس الفرد، وفي نفس المجتمع نتيجة لذلك، فقد كسبت الشيوعية نصف المعركة على الأقل! وهذا هو مصدر الإعجاب الشديد برجل لا يؤمن بكل ما يؤمنون[1].

وقد أسلفنا أن فرويد قد تأثر في نظرياته بدارون، وأنه نقل إلى علم النفس آراء دارون الخاصة بعلم الأحياء. ونذكر هنا أن الشيوعيين كذلك قد تأثروا به في أكثر من موضع، حتى لنستطيع أن نقول إنهم نقلوا إلى عالم الاقتصاد وعلم الاجتماع تلك الآراء المستمدة من عالم الحيوان. وكان أشد ما تأثروا به ثلاث نقط رئيسية. أولها: القول بالطبيعة بدلاً من الله. وثانيها: القول بأن الكائنات الحية تتبع في تطورها خطأ "حتمياً" ينشأ من ضغط البيئة المادية الخارجية على الكائن الحي، ومحاولة الكائنات أن تكيف حياتها مع هذه البيئة. وفي أثناء

([1]) مما يلفت النظر ولا شك أن فرويد يهودي وكارل ملركس كذلك! وبصرف النظر عن مدى إخلاص كل منهما لمذهبه، فإن الحركة اليهودية لم يفتها أن تستغل نظرياتهما لمصالحها الخاصة. فقد جاء في كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" الذي يرسم السياسة اليهودية العالمية ما يأتي: "يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا.. إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه" كما جاء في الكتاب إشارة مماثلة عن وجوب استغلال مبادئ كارل ماركس لتحطيم العقائد الدينية ونشر المبادئ المادية التي تسهل لليهود السيطرة على العالم. إذ يقول الكتاب: "لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم. وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد".

عملية التطور تنقرض أعضاء أو وظائف معينة لأنها لم تعد تلائم البيئة، وتنمو بدلاً منها أعضاء ووظائف جديدة، أكثر منها تعقيداً، ولكن الكائنات الحية لا إرادة لها في هذا التطور ولا قصد، وإنما هو مفروض عليها فرضاً من الخارج أرادت أم لم ترد ولا تملك هذه الكائنات أن تبطئ به أو تسرع، أو تحوله عن طريقه، فالأمر في ذلك كله متروك "للطبيعة"! وقد طبق الشيوعيون هذه النظرة تطبيقاً كاملاً على التطور الاقتصادي والاجتماعي، وزعموا أن النتائج التي يصلون إليها صحيحة، لأن الأساس الذي يبنون عليه صحيح! وثالثها: النظرة المادية الحيوانية إلى الإنسان، تلك النظرة التي تنفي الجوانب الروحية والمثل العليا، وتؤمن بعالم الجسد وحده، وبالواقع الذي تدركه الحواس فحسب، شأنهم في ذلك شأن بقية أوربا المادية. ومن هنا كانت الشيوعية هي التطور الأخير للحضارة المادية الأوروبية، ولم تكن شيئاً جديداً كما يريد دعاتها أن يفهموا الناس في الشرق والغرب.

صحيح أن أنصار المذهب المادي قد نبذوا المنطق الصوري "Formal Logic"؛ الذي كان سائداً من قبل، والذي ينفي وجود التناقض أو اجتماع الأضداد، لأن هذا المنطق لا يستقيم إلا في عالم ساكن، بينما العالم في حقيقته متحرك دائب الحركة. فلا يصلح لتفسير حركته إلا المنطق الجدلي (الديالكتي Dialectic) لأنه يقر بوجود الأضداد والمتناقضات في وقت واحد، وهي التي تؤدي في نظرهم إلى انتقال المجتمع من صورة إلى صورة. ذلك أن كل نظام في رأيهم يحوي في طياته من المتناقضات ما يقضي عليه في النهاية، وينشئ نظاماً جديداً بدلاً منه، وهذا النظام الجديد يحوي متناقضات أخرى من نوع أرقى، تظل تعمل في كيانه حتى يصير إلى صورة أخرى أرقى من سابقتها، وهكذا... فقد أدى اكتشاف الزراعة إلى الرق، وظل الرق نظاماً معمولاً به طالما كان المجتمع يعيش في النطاق الذي يصلح له الرق، ولكن حاجات المجتمع تطورت بعد ذلك بصورة أصبح الرق فيها عائقاً عن التقدم، وهنا تحول المجتمع إلى الإقطاع. وظل الإقطاع يؤدي مهمته حتى تحولت رءوس الأموال إلى الصناعة، فصار الإقطاع عائقاً عن التقدم الرأسمالي لأنه يربط الفلاح بالأرض، ولا يمنحه حرية الانتقال إلى المدينة ليعمل في المصنع. وهنا عمل المجتمع على التخلص من الإقطاع.. وهكذا دواليك.

صحيح أنهم استحدثوا هذا التغيير الفلسفي، وخرجوا منه في النهاية بمذهب المادية الجدلية التي اعتنقها كارل ماركس، وأقام على أسسها فكرة الشيوعية. ولكنها –جدلية كانت أم غير جدلية– مادية على أي حال، لا ترتفع عن مدركات الحس، ولا تؤمن بالروح، بل تعتبر كل ما لا يقع في دائرة الحس خرافة من مخلفات العصور البائدة. وإلى هنا تتفق النظرة النفسية بين الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي، لأن أساس الحضارة واحد رغم هذا الاختلاف الظاهري الملحوظ. ولكن الشيوعية والحق يقال تزيد من عندها زيادة طريفة: هي

أن تلك الخرافات البائدة كانت من صنع الإقطاعيين والرأسماليين لتخدير الشعوب وتلهيتها عن الصراع الطبقي. أما هم فسيحررون العالم من الخرافة، ويعطونه جرعة من العلاج الصحيح، من "العلم" الذي لا يرقى إليه الشك ولا يتطاول إليه الجدل، ذلك هو : التفسير المادي للتاريخ!

* * *

يقول المذهب المادي: إن الإنسان هو القوة الفعالة في هذا الوجود. وتلك جملة براقة قد توحي بأن أنصار هذا المذهب يؤمنون بالإنسان، وبالإنسانية في صورها الرفيعة النبيلة، الإنسان في مجموعه بما فيه من جسد وعقل وروح. ولكن الحق أنهم عندما يقولون ذلك يقصدون فقط أن الإنسان وحده لا شريك له هو المسيطر على الأرض. أي أن وجود إله مسيطر على الخلق عالم بوجودهم، مدبر لشئونهم، لغاية يريدها، هذا كله خارج من حسابهم، وليس له وجود في مشاعرهم ولا أفكارهم. فهم لا يؤمنون بالإنسان ليرفعوا من شأنه، ولكن لينفوا فقط تدخل الإله في شئون الخلق! أما إيمانهم بالإنسان فعلى أساس أنه "مادة"! "إن الوحدة الحقيقية للعالم تنحصر في ماديته... ولكن إذا سألنا: وإذن ما هو الفكر وما هو الشعور ومن أين ينبعثان، يتضح لنا أنهما نتاج الدماغ البشري، وأن الإنسان نفسه نتاج الطبيعة"[١] "إن الأفكار يبتدعها دماغ الإنسان. وهذا الدماغ ليس إلا "مادة"[٢] دقيقة التركيب، وهو جزء من الجسم يعكس مؤثرات العالم الخارجي[٣]".

فهم إذن لا يؤمنون إلا بالجانب المادي من الإنسان، والعقل في نظرهم أداة مادية تعكس المؤثرات الخارجية ثم تتأثر بها، ولكنه هو في ذاته ليس حقيقة فعالة مؤثرة مريدة!

ويقول ماركس: "في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها. **وهي مستقلة عن إرادتهم**. وعلاقات الإنتاج تطابق مرحلة محدودة من تطور قواهم المادية في الإنتاج. والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع. وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية، والتي تطابقها أشكال محدودة من الوعي الاجتماعي. **فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين**

(١) كارل ماركس في كتاب "Anti- Diihring" طبعة سنة ١٩٣٤ ص٤٤، ترجمة الدكتور راشد البراوي.

(٢) إذا كان العقل مادة، فإن الفكرة في ذاتها ليست مادة، لأنها لا تحد بحدود الزمان والمكان.

(٣) الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم، دراسات في الاجتماع ص٦٨.

الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذين يعين مشاعرهم"[١].

ويقول فردريك إنجلز: "تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي: **وهو أن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي.** فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل. وإذن فعلينا ألا نبحث عن هذه الأسباب في الفلسفة، وإنما في اقتصاديات العصر الذي نعنيه"[٢].

من هذه المقتطفات تتضح لنا الحقائق الأساسية للمذهب المادي. فالحق والعدل الأزليان ليسا في ذاتهما قيمة موضوعية! ولا هما جديران بأن يسعى وراءهما الإنسان! ومثلهما بطبيعة الحال كل ما يتصل بهما من نبوات وعقائد، ومشاعر دينية أو فنية! إنما الحقيقة الواحدة الأزلية هي الاقتصاد. وهكذا ينفون أثر الدوافع النفسية الأصيلة، فضلاً عن الدوافع الروحية. وهم لا ينفون وجودها في الجدل النظري، ولكنهم يقولون إنها ليست شيئاً قائماً بنفسه، ولا صادراً بصورة تلقائية من الكيان البشري ذاته. وإنما هي نتائج للأحوال الاقتصادية، وتلك هي القوة الوحيدة القائمة بذاتها، خارجة عن نطاق الإنسان، ومؤثرة فيه من الخارج.

فالأخلاق ليست حقيقة موضوعية، ولا قيمة ذاتية. إنما هي نتيجة التفاعلات الاقتصادية في المجتمع. فإذا تغيرت علاقات الإنتاج تغيرت معها القيم الأخلاقية، وليس هناك مقياس ثابت تقاس إليه الأمور. والدين –أفيون الشعب– شيء ابتدعه الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الشعوب وشغلها عن صراعها الطبقي، وليس شيئاً سماوياً، ولا حاجة نفسية نبعت من ضمير الفرد حتى في المجتمع الأول الذي لم يكن فيه– باعترافهم– سيد ولا مسود، لأن وسائل الغذاء كانت مباحة للجميع، لكن بقدر ما يريد! والمثل العليا –سخرية الشيوعيين– هي أوهام الجائعين والمحرومين الذين حرمتهم الأحوال الاقتصادية من حاجاتهم فراحوا يحلمون بها. فهي إذن نتاج ضار بالمجتمع، لم ينشأ إلا من سوء الأحوال الاقتصادية، وليست حلماً للبشرية تطوعت به منذ طفولتها، قبل أن تفرضها عليها تطورات الاقتصاد. والأسرة مصلحة اقتصادية، نشأت من اعتماد المرأة في غذائها وإعالتها على الرجل الذي

---

(١) ترجمة الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم.

(٢) ترجمة الدكتور راشد البراوي. النظام الاشتراكي ص ١٢٠.

يملك وسائل الإنتاج، ويفرض على المرأة تبعاً لذلك أن تكون له وحده دون شريك، ولكنها ليست حاجة نفسية متأصلة في نفس الرجل والمرأة على السواء.. الخ. الخ.

كل شيء إذن هو انعكاس للحقيقة الموضوعية الوحيدة في هذا الكون، وهي العامل الاقتصادي. والاقتصاد ليس صادراً عن إرادة الإنسان. وإنما هو كما يقول كارل ماركس خارج عن إرادته، وله قوانينه الموضوعية الخاصة التي ليس للإنسان إزاءها حول ولا طول فهي تسير إلى غايتها المحتومة، وتؤثر في الإنسان في أثناء تطورها، ولكن الإنسان لا يؤثر في قيامها، ولا في بدئها أو إنهائها، لأن ذلك كله يجري حسب سنة التطور التي لم يخلقها الإنسان، وإنما خلقتها "الطبيعة" أم الإنسان!

وقد أسلفنا القول في فصل فرويد عن الأسباب العاطفية —لا العلمية– التي أدت بالأوربيين إلى اعتناق فكرة الطبيعة ونبذ فكرة الله، رغم ما في ذلك من مغالطة مكشوفة. ولكنا ندع هذا الآن وننظر في "حقائق" المذهب المادي، لنرى كم فيها من المغالطات.

فأول ما يتبادر إلى الذهن من أخطاء هذا المذهب هو إيمانه بالجبرية الاقتصادية الكاملة، التي لا اختيار للإنسان أمامها، ولا فكاك له من تأثيرها عليه.

"وسائل الإنتاج تكيف المجتمع" "ليس شعور الإنسان هو الذي يعين وجوده، ولكن وجوده هو الذي يعين شعوره".

هكذا يقول كارس ماركس، فيؤكد أن المشاعر تجيء دائماً لاحقة للعوامل الاقتصادية متأثرة بها، ولكنها لا تكون أبداً سابقة عليها أو مؤثرة فيها. وما نريد أن ننكر أهمية الاقتصاد، ولا سيطرته على المشاعر البشرية. فنحن نؤمن بأهميته البالغة كمقوم من مقومات الحياة الأساسية، ولكنا نريد فقط أن ننفي جبريته، وأنه العامل الوحيد المسيطر على دنيا البشر.

وأقرب ما يُردّ به على الزعم القائل بأن وسائل الإنتاج هي التي تكيف المجتمع، أن وسائل الإنتاج في أمريكا الرأسمالية، هي نفسها وسائل الإنتاج في روسيا الشيوعية، ومع ذلك فإن استخدامها في روسيا لم يفرض عليها أن تكون رأسمالية! بل إنها لم تبدأ في استخدام هذه الوسائل على أوسع نطاق إلا بعد أن تحولت إلى الشيوعية! فليس أسلوب الإنتاج إذن قوة جبرية تشل حركة الإنسان، وتخضعه لسلطانها القاهر، بدليل أن روسيا قد تصرفت تصرفاً حراً في أسلوب التوزيع وفي أهداف العمل، على الطريق التي رسمتها لنفسها، ولم تجد نفسها مجبرة إزاء هذا الأسلوب الإنتاجي على اتخاذ طريق واحد لا فكاك منه. كما تصرفت دولة

أخرى كانجلترا إزاء الحالة نفسها تصرفاً آخر. وكان تصرف هذه وتلك ناشئاً عن "شعور" معين أو "عقيدة" سابقة في وجودها للتنظيم الاقتصادي، مؤثرة فيه، منظمة لطرائقه وأهدافه. فإذا قيل إن هذا الشعور هو بدوره نتيجة للظروف الاقتصادية السابقة له، سواء في روسيا أو انجلترا، فهذا لا ينفي الاختيار الحر إزاء هذه الظروف. بل إن كارل ماركس —حسب إيمانه بجبرية الاقتصاد– كان يعتقد أن الشيوعية ستقوم في انجلترا أولاً، ثم تنتشر منها إلى بقية العالم الأوربي بعد ذلك. فجاءت الوقائع مخيبة لأفكاره، إذ بدأت في روسيا التي لم تكن قد استكملت نموها الرأسمالي، وتأخرت في انجلترا إلى هذه اللحظة (بصرف النظر عن المستقبل)، رغم وصولها في النمو الاقتصادي الرأسمالي، إلى المرحلة التي كانت تحتم عليها —حسب الجبرية الاقتصادية المزعومة أن تكون أول من يقع فريسة للشيوعية!

ووسائل الإنتاج الحديثة لا تفرض علينا نحن مثلاً حين نستخدمها، أن نخرج من إسلامنا ونصبح رأسماليين كالأمريكان، أو اشتراكيين كالإنجليز، أو شيوعيين كالروس، إذا آمنا حقاً بهذا الدين، وفهمناه على أصوله الكبرى التي فهمها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهي مختلفة في أساسها عن هذه النظم جميعاً، ومستقلة عنها، وإن التقت معها أحياناً في بعض التفصيلات.

أجل لا نحتاج أن نخرج من إسلامنا لنصبح شيئاً من هذه الأشياء، كنتيجة حتمية لاستخدام وسائل معينة للإنتاج، لأن علاقات الإنتاج ليست خارجة عن إرادة الإنسان كما يزعم كارل ماكس. وقد رأينا من الواقع المشهود أن ذلك غير صحيح.

وإنما يذيع الماديون أفكارهم القائمة على جبرية الاقتصاد، ليوحوا إلى الناس في كل مكان أن الشيوعية هي مصيرهم المحتوم، بعدت الشقة أو قربت، فعليهم أن يستسلموا لها ولا يعملوا على مقاومتها! وقد يكون هذا صحيحاً في أوربا، أو في العالم الذي غلبت أوربا عليه. لا لجبرية الاقتصاد. ولكن لأن الحياة الأوربية أو الغربية عامة، قائمة كلها على أساس مادي بحت، لا ينتج إلا الشيوعية في آخر المطاف! أما حين توجد فكرة أخرى عن الحياة والكون أوسع وأرقى، فلن تقف في سبيلها وسيلة من وسائل الإنتاج، لأنها هي التي ستخضع لها كل كيان الدولة الاقتصادي والاجتماعي والفكري على السواء. وقد رأينا أن مجال الاختيار مفتوح في النطاق الصغير، رغم اتحاد الأساس الفكري والفلسفي بين روسيا وانجلترا وأمريكا. فأولى به أن يكون أوسع وأعم حين يختلف هذا الأساس.

فالشهوة المذهبية وحدها هي التي تذيع هذه الأفكار لغاية مرسومة. فلا ينبغي أن تؤخذ على أنها حقائق علمية موضوعية!

* * *

وهم يقولون: إن الرأسمالية تجنح إلى استغلال العمال لاستخلاص أكبر ربح ممكن، لا عن قصد من الرأسماليين ولا سوء نية (؟!) وإنما لأن هذه صفة كامنة في طبيعة رأس المال[1]!

فما السند العلمي لهذه الدعوى العجيبة؟!

لا يوجد لها من سند إلا تلازم هذا الجشع مع النظام الرأسمالي في أوربا، وفي العالم الذي غلبت أوربا عليه. ولكن هذا لا ينفي أن الجشع "شعور" صادر من النفس لا من طبيعة رأس المال، حتى وإن كان ملازماً له على الدوام. وليس معنى هذا أننا نؤمن بالجبرية النفسية في هذا المجال. وإنما نريد فقط أن نرد الأشياء إلى أصلها النفسي، وهو مصدرها الطبيعي. وقد كان هذا الجشع موجوداً في مشاعر الرومان، أسلاف الأوربيين الحاليين، في عهد الرق وعهد الإقطاع، وكانوا يستعبدون به غيرهم من الأمم والشعوب. فهو ليس متولداً من التطور الرأسمالي ولا نابعاً منه.

وإنما يقول الشيوعيون إنه صفة كامنة في طبيعة رأس المال، وإنه لا يجوز الحكم عليه حكماً أخلاقياً، لأنه عمل حتمي كأكل القطة للفأر! يقولون ذلك لكي يصرفوا الأمل عن انتظار الخير والرحمة من الرأسماليين، ولكي يدعوا إلى تحطيم نظامهم بالقوة والعنف.

ونحن أيضاً لا نؤمن بأن الخير يمكن أن يصدر عن النظام الرأسمالي، لا لأن له جبرية على المشاعر، ولكن لأنه لا يمكن أن يقوم من الأصل في ظل مشاعر نظيفة مترفعة، مؤمنة بحقوق الإنسان. فالواقع أن النظام الرأسمالي تابع في وجوده لمشاعر أنانية غير نظيفة، لا أن هذه المشاعر نابعة من هذا النظام!

والشهوة المذهبية وحدها هي التي تقول هذا الكلام العجيب، الذي لا يعرفه العلم من بعيد ولا قريب!

* * *

وهم يقولون: إن إحدى وسائل التضخم الرأسمالي هي إنتاج وسائل الترف على نطاق واسع. وهذا صحيح. ولسنا هنا بصدد الدفاع عن الترف أو عن الرأسمالية، فكلاهما حرام في

(1) الدكتور راشد البراوي. النظام الاشتراكي ص١٢٩.

نظر الإسلام[1]؛ ولكنا نتناول المسألة من الناحية النفيسة، لأنها ذات دلالة كبيرة في هذا البحث. فإنتاج وسائل الترف ليس هو الذي ينشئ رغبة الترف في النفوس! ولولا أن في النفس الإنسانية استعداداً طبيعياً كامناً للملل من الأشياء القديمة، أو التي أصبحت معتادة، والسعي إلى شيء جديد أو نمط جديد، لما استطاعت الرأسمالية أن تصرف بضائعها المستحدثة على نطاق واسع. فكل حالة اقتصادية أو نتاج اقتصادي له رصيد مقابل في النفس الإنسانية، سابق على وجوده. وكل ما يصنعه الاقتصاد هو أن يلبي هذه الحاجات البشرية الكامنة. وليس ينفي هذا بطبيعة الحال أن المنتجات الحديثة "تكيف" المشاعر بطريقة خاصة، وأن هذا التكييف ينشئ صوراً جديدة من الأفكار والمشاعر لم تكن موجودة من قبل. هذا مسلم به. ولكن الذي نريد أن نؤكده، هو أن الأصول النفسية لهذه المشاعر موجودة في النفس الإنسانية من قبل ظهور هذه المنتجات. وأن هناك فرقاً كبيراً بين تكييف المشاعر الموجودة فعلاً، كامنة أو غير كامنة، وبين إنشاء هذه المشاعر دون أن يكون لها وجود سابق في داخل النفس. فليس اختراع الطائرة هو الذي أنشأ الرغبة في الطيران. وإنما هذه الرغبة –وهي حلم بشري قديم، بدأ مع طفولة البشرية، وتدرج معها، حتى حاول بعض الأناسيّ أن يركّبوا لأنفسهم أجنحة من الريش ويجربوا الطيران بها كالطيور!– هذه الرغبة هي التي حققها العلم بعد ذلك في صورة طائرة! صحيح أن اختراع الطائرة قد أحدث تطورات هائلة في علاقات الناس ومشاعرهم. ولكن هذا لا ينفي أن الرغبة النفسية هي الأصل.

وهم أنفسهم يقولون: إن الأسرة كانت قائمة في أول عهدها على أساس سيطرة الأم، فكان الميراث ينتقل من الرجل إلى إخوته وأخواته، لا إلى أولاده. فلما ملك الرجل وسائل الإنتاج وحده، حول الأسرة إلى نظام سيطرة الأب، حتى يتمكن من نقل ما يملكه إلى أولاده. فلماذا يا ترى حدث ذلك؟ هل ملكية وسائل الإنتاج هي التي غيرت مشاعر الأب فجعلته يحب أولاده ويؤثرهم بالخير، ولم يكن يحبهم من قبل؟ أم إن هذا الحب سابق في وجوده للتطور الاقتصادي، وكان ينتظر الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافه؟

تلك مسائل نحسبها من البداهة بحيث لا تحتمل المناقشة. فالإنسان يولد وفيه على الأقل هذان الأصلان الكبيران: حب الحياة، ثم الرغبة الجنسية حين يجيء موعدها المحدود. هاتان على الأقل رغبتان لا تنشآن من الحالة الاقتصادية، ظالمة كانت أو غير ظالمة، فكل مخلوق يوجد في أي نوع من أنواع المجتمعات يتشبث بالحياة ولا يتركها إلا كارهاً[2]؛ ويحس بالرغبة الجنسية على نحو من الأنحاء. وكل ما تصنعه الحياة المادية والظروف الاقتصادية، هو

---

(1) تحدثنا عن رأي الإسلام في الرأسمالية في كتاب "شبهات حول الإسلام".

(2) إلا أن تستولي على نفسه عقيدة أكبر من نفسه ومن حياته الفردية.

أن "تكيف" الصورة التي يحيا بها الإنسان، فيعيش في قصر أو يعيش في كوخ؛ والصورة التي يقضي بها حاجته الجنسية، فيقضيها في الشارع أو في المنزل أو في الغابة. ولكن هذه الظروف ليست هي التي "تنشئ" هذه الرغبة أو تلك، من أصلل غير موجود في النفس.

هذه بديهية. وإنما ينفيها الماديون لأنهم لو أقروا بها فسينفتح المجال لمن يريد أن قول: إن حب الملكية والاقتناء أصل من الأصول النفسية، السابقة في وجودها على الحالات الاقتصادية المختلفة. وهم يريدون أن يقفلوا الطريق أمام هذه الدعوى سواء كانت صادقة أو كاذبة[1]، فينفون منذ البدء أن النفس الإنسانية هي الأصل، وأن الظروف المادية والاقتصادية تكيف المشاعر ولكنها لا تنشئها من العدم. وأن شعور الإنسان هو الذي يعين وجوده بالتفاعل مع الظروف المادية الخارجية.

فالشهوة المذهبية إذن هي التي تنكر هذه الحقائق البديهية، وإن كانت تتمسح بالعلم وقضاياه.

* * *

على أن الكارثة العظمى في المذهب المادي هي تحديد مطالب الإنسان بالغذاء والكساء والإشباع الجنسي[2] وإهمال الأمور الأخرى كلها –وأخصها العقيدة– باعتبارها أشياء ثانوية غير مهمة، ولا يضير الدولة أو أي نظام اجتماعي ألا يلتفت إليها، إذا هو قام بتحقيق تلك المطالب "الأساسية".

وما يجادل أحد في أن هذه ضرورات لا تتيسر بدونها الحياة، وأن كل نظام يهملها، أو لا يعطيها حقها من الرعاية والجهد نظام فاسد فاشل، مهما كانت "المعنويات" التي تقوم في رءوس أفراده. لأن المعنويات ليست شيئاً مقصوداً لذاته. وإنما المقصود منها تنظيم الحياة في الأرض على صورة أفضل وأرفع. فإذا لم تؤد مهمتها تلك على صورة من الصور، لأفراد المجتمع، ولأجيال الإنسانية، فهي لا تستحق أن توجد أو تعيش...

ولكن تحديد مطالب الإنسان بمطالب جسده فقط هو من الناحية الأخرى نقص شائن، وهبوط بالإنسان من عليائه إلى مستوى الضرورة، وإلى حظيرة الحيوان.

---

(1) انظر فصل "الإسلام والملكية الفردية" في كتاب "شبهات حول الإسلام".

(2) هذه هي المطالب التي حددها كارل ماركس في "المنيفستو" وسماها: "The Three Satisfactions".

وإذا كانت حاجات الجسد هي أول ما يصرخ في طلب الإشباع، فليس معنى ذلك أن الإنسان كله ينتهي عند هذه المطالب، أو أنها وحدها الجديرة بالإشباع. وكل نظام أو فكرة عالمية لا يجعل همه إلا حاجات الجسد القريبة هو نظام فاسد، مهما كانت دقة تنظيمه، ومهما كانت العدالة المادية أو الاقتصادية التي ينشرها بين الكادحين أو غير الكادحين.

إن الإنسان لأوسع من هذه الحدود الضيقة التي يريد الماديون أن يحبسوه في داخلها. وإن كل ما وجد على ظهر الأرض في الميدان المادي والفكري والشعوري لهو نتاج إنساني أصيل، وتعبير عن حاجة نفسية أصيلة. الفن والعقيدة والمثل العليا، وأحلام البطولة وسبحات الروح، والسيارة الفاخرة، والطائرة المنطلقة في الفضاء، والمدفع، والمصنع وإنتاج الغذاء والكساء. كلها سواء. وليس اختراع الآلة والوصول إلى الإنتاج الكبير أعظم في طبيعته ولا دلالته من الوصول إلى العقيدة والاهتداء إلى الله. كل منهما دليل على عظمة المخلوق البشرية وارتفاعه عن مستوى الحيوان. بل الاهتداء إلى الله أعظم في دلالته على رفعة الإنسان وإشراق روحه، واتساع آفاقه أن تنحصر كالحيوان في عالم المادة أو مدركات الحواس.

والنظام الأوفى هو الذي يأخذ الإنسان في مجموعه. لا يهمل مطالب جسده، ولا ينكر مطالب روحه، أو يدعها تنبت نباتاً "شيطانياً" كيفما اتفق، بحجة أنها ليست من ضرورات الحياة!

وهم يقولون: إن المجتمع لن تستقيم أوضاعه إلا إذا بني على أساس اقتصادي مكين وهذا صحيح لا جدال فيه. ولكنه لا يحمل الدلالة التي يريدون أن يحمّلوها إياه، وكل ما يعنيه هو أنك إذا أردت أن تقيم بناية جميلة فعليك أن توطد الأساس، وإلا تصدع البناء مهما كان فيه من إبدع وفن دقيق. ولكن أية حماقة تلك التي تقول: ما علينا إلا أن نبني الأساس المتين. وسوف يتم البناء من تلقاء نفسه بعد حين؟!

إن إقامة الأسس الاقتصادية الصحيحة ليست غاية في ذاتها كما يفهم الشيوعيون في بلاهة وقصر نظر. إنما هي وسيلة لإقامة المجتمع على أسس إنسانية رفيعة. وكل مهمتها أن تهيئ الجو الصالح للارتفاع الخلقي والفكري والروحي، والإنساني بصفة عامة. ولكنها لا تؤدي إلى ذلك بطريقة آلية، وبغير جهد إيجابي يبذل في رفع الأرواح والنفوس. فإذا كان النظام الشيوعي ينتهي في فكر أصحابه عند مطالب الجسد، أو إقامة حكومة عالمية على هذا الأساس، فهو يحدد حدوده بنفسه، وينتهي بها إلى الفناء ذات يوم قريب أو بعيد!

* * *

وهم إذ يهملون العقيدة الدينية، وينفون أنها —في ذاتها– قوة حقيقية دافعة، يعجزون عن تفسير كثير من مظاهر الحياة البشرية. وهذا هو الإسلام قد احتل جزءاً كبيراً من سطح الأرض، وجزءاً مماثلاً من تاريخ العالم. فإذا نظرنا إليه —كنظام اجتماعي– وجدنا فيه عجائب لا يمكن أن تفسرها كل التمحلات التي يقدمها التفسير المادي للتاريخ.

أولى هذه العجائب وأعظمها أن الإسلام قد انتشر بسرعة مثالية ما تزال فريدة حتى اليوم. ففي أقل من عشر سنوات، أيام عمر بن الخطاب، كان قد غمر فارس والعراق والشام ومصر والنوبة فضلاً على الجزيرة العربية. فأي تغيير مادي، وأي تغيير في أساليب الإنتاج في تلك الفترة القصيرة، قد أنشأ هذه الحركة التي لا مثيل لها في التاريخ كله، في القوة والسرعة والاندفاع؟

لم يكن ثمة بارود ولا اختراع حربي —مادي– يتفوق به حفنة العرب، الذي انطلقوا من الجزيرة يبشرون بالإسلام، على قوى الإمبراطوريتين العريقتين: في فارس وبلاد الروم. بل كانت القوى المادية والعسكرية كلها في صف هذين المعسكرين. ولم يكن كذلك قد حدث أي اختلاف في وسائل الإنتاج بين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وما قبلها وما بعدها، إلى وقت هذا الفتح المبين.

وإنما شيء واحد هو الذي تغير. هو "إحساس" هؤلاء العرب بالحياة والكون، وبالحق والعدل الأزليين، اللذين يسخر منهما دعاة المذهب المادي على لسان فردريك إنجلز وسواه. لقد كانت العقيدة الجديدة هي القوة الدافعة في هذا البناء الجديد. وكانت من القوة والسيطرة بحيث قبلت كل الحقائق المادية السابقة وقضت عليها، في زمن كانت السنوات العشر أو الخمسون أو المائة لا تؤثر شيئاً في حياة الناس الرتيبة، وفي أوضاعهم الاقتصادية والمادية.

وليس ينفي هذا أن أفراداً من المقاتلين كانت تغريهم المغانم فيخرجون إلى القتال. ولكن الحركة في مجموعها لا يجوز أن تؤخذ بهؤلاء الأفراد، وهي التي كانت تدعو الناس أولاً إلى الإسلام. فإن أسلموا فهم منذ اللحظة الأولى متساوون في الحقوق والواجبات مع أهل الجزيرة الفاتحين. لا يتميز عليهم هؤلاء بشيء في المال ولا في السياسة ولا في القرب من الله ورسوله. فإذا أبوا الإسلام فالجزية؛ وهذه تصرف أولاً على المحتاجين من أهل البلاد المفتوحة، ثم يحمل الباقي إلى بيت مال المسلمين، فهو ليس مغنماً شخصياً، ولا هدفاً للدولة تفضله على إسلام المسلمين! فإن أبوا الإسلام والجزية فعند ذلك فقط يدور القتال...

بل نفرض جدلاً أن المغانم كانت الدافع الوحيد على القتال، وهذا كذب على التاريخ. فكيف استطاعت الحفنة القليلة أن تتغلب على أضعاف أضعافها من العدد والعدة والخبرة العسكرية العريقة؟

إنها العجيبة العظمة في تاريخ هذه العقيدة الفذة في التاريخ.

والعجيبة الثانية أن هذه العقيدة –وهي فكرة وشعور– قد أنشأت لنفسها نظاماً اقتصادياً واجتماعياً غير مسبوق في التاريخ كله، وما زال متفرداً حتى اليوم. فحرمت الربا والاحتكار، وقررت حق ولي الأمر (أي الدولة) في أخذ فضول أموال الأغنياء وردها على الفقراء. بل أطلقت يده في اتخاذ أي إجراء يراه كفيلاً بحفظ التوازن في المجتمع، على أساس أن المال مال الله، والجماعة مستخلفة عليه. والمالك موظف فيه بشرط حسن القيام عليه وعدم إيذاء الآخرين، وإلا استرد منه حق التصرف فيه وأعطي لمن يحسن القيام عليه[1].

ولم يكن ذلك كله تحت ضغط الظروف المادية والاقتصادية في جزيرة العرب، أو في العمال كله في ذلك الحين. ولا كانت أحوال الإنتاج قد تطورت إلى الحد الذي يصبح هذا النظام نتيجة حتمية لها –حسب قوانين المذهب المادي– وإلا فقد ظل العالم أكثر من ألف وثلثمائة عام، توالت عليه فيها ألوان من الرق والإقطاع والرأسمالية، حتى وصل إلى شيء قريب من النظام الإسلامي، في انجلترا الاشتراكية وروسيا الشيوعية!

والعجيبة الثالثة أن القوم الذين تملكت هذه العقيدة مشاعرهم قد ثاروا على بذور التفاوت الاجتماعي أيام عثمان. لا لأنه كان قد استنفد أغراضه –كمرحلة اجتماعية تطورية– وصارت أساليب الإنتاج تستدعي الثورة عليه، لتستبدل به مرحلة تالية. كلا! وإنما كانت الثورة ناشئة عن شعور المسلمين بأن الأمور لا تجري كما ينبغي أن تكون، وأنها تخالف الحق والعدل الأزليين اللذين أمر بهما الله... وقد ثاروا حينئذ –وهم قريبو عهد بروح الإسلام– ولم يثوروا بعد ذلك حين ابتعدوا عنها فطواهم الانحراف وهم صاغرون!

والعجيبة الرابعة أن الانحراف الذي امتد أيام الدولة الأموية، لم يفرض نفسه كقوة جبرية على مشاعر عمر بن عبد العزيز. فقام يصلحه، ويرد الدولة إسلامية كاملة في سياسة الحكم والمال، ويأخذ من أمراء بني أمية ما استلبوه من الناس فرده إليهم. وينشر العدالة الاقتصادية والاجتماعية في ربوع العالم الإسلامي، الذي كان قد امتد من الهند إلى شمال أفريقيا، حتى

---

(1) في كتاب "في شبهات حول الإسلام" شيء من التفصيل في هذه الموضوعات في فصول: "الإسلام والإقطاع" و"الإسلام والرأسمالية" و"الإسلام والملكية الفردية".

كان عماله يبحثون عن الفقراء والمستحقين للصدقة فلا يجدونهم، لأن الناس جميعاً قد استغنوا بكسب أيديهم.

ولم يكن ذلك لأن هناك مرحلة تطورية فد انتهت، فقد عاد الانحراف سيرته الأولى بمجرد انقضاء عهد عمر بن عبد العزيز. وإنما كان سببه يقطة العقيدة في قلب هذا المسلم الحق، حطمت "الجبرية" الاقتصادية، وأخضعتها "لمشاعر" فرد واحد أراد، ونفذ ما أراد، مستمداً قوته من عقيدته في الله!

* * *

ولست أعني بهذا أن العقيدة، كفكرة وشعور، تستطيع بمفردها في جميع الأحوال أن تقاوم الظروف المادية والاقتصادية السائدة، أو تسيطر عليها. وإن كانت تستطيع ذلك عن يقين، حين تصل حرارتها في قلوب المؤمنين بها إلى درجة التوهج والاشتعال.

وإنما تقصد أن نرد للإنسان اعتباره. نرد إليه كرامته كإنسان. ونرد إليه حرية التصرف إزاء المادة وإزاء الظروف المحيطة بن من الخارج. ونرده إلى أصول إنسانية نقيس بها تطوره، ورفعته أو هبوطه. ولا نصوره في تلك الصورة الزرية التي يرسمها الماديون، حين يجعلونه عاجزاً أمام كل القوى، خاضعاً لسلطانها القاهر بلا إرادة ولا اختيار[1]، وحين يلغون كل القيم الثابتة ويقولون إنها مجرد انعكاس لصورة الإنتاج! إن الأخلاق ليست فقط انعكاساً للحالة الاقتصادية. فإن لها مقياساً ثابتاً قوامه عدم اعتداء إنسان على إنسان، لأن الجميع إخوان في الإنسانية. وقد رسم الإسلام هذا المقياس، وحاسب الناس على أساسه، في وقت كانت المعايير الخلقية المنعكسة عن الحالة الاقتصادية تبيح الإغارة والعدوان والقتل والغصب، كما تبيح وأد البنات وحرمان المرأة من حقوقها الإنسانية. صحيح أن الإسلام أقام المجتمع على أساس اجتماعي واقتصادي متوازن، ليضمن تنفيذ معاييره الخلقية، وذلك لأنه لا يعيش في عالم المثل منعزلاً عن الواقع المادي. وصحيح أن المجتمع الذي يختل ميزانه الاقتصادي يعجز عن المحافظة على أخلاقه القياسية. ولكن ذلك كله لا ينفي أن هناك أصلاً ثابتاً للأخلاق وأن على الإنسانية أن تصل إليه، من كل طريق يضمن الوصول، فإذا عجزت عن ذلك فترة

([1]) من شدة ما وجه من النقد إلى كارل ماكرس، اضطر الماديون أن يعترفوا بأن الإنسان متأثر ومؤثر في ذات الوقت. ولسنا نكره للناس أن يهتدوا إلى الحق. ولكنهم مع الأسف لا يذكرون ذلك إلا في الجدل النظري، أما في الوقائع فهم يكشفون عن إيمانهم بالجبرية الاقتصادية، وخاصة حين يبالغون في إهمال العقيدة الدينية، والحط من قيمتها كقوة حقيقية دافعة.

من الزمن، عادت إلى المحاولة من جديد، بتعديل أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية في آن.

والأسرة ليست فقط علاقة اقتصادية. فهي كذلك أصل من أصول الإنسانية. فإذا كانت الظروف الاقتصادية تذهب بها ذات الشمال وذات اليمين، فذلك لا ينفي أن هذا مقياساً ثابتاً، هو قيام العلاقة بين أهلها على أساس الحب والعطف والتعاون، بما يليق بكرامة الإنسان. فإذا وقفت الظروف الاقتصادية أو الدعاوى النفسية المنحرفة عن تحقيق هذا المثال، فهي إذن مخطئة، وعلى المجتمع أن يصلحها ليعود بها إلى الصورة الصحيحة.

بل إن الاقتصاد ذاته مسألة نفسية، تتغير بتغير الشعور به في النفوس. فهو في صورته العليا تعاون بين المالكين وغير المالكين، بحيث لا يكون هناك واجد ومحروم. وإنما الجميع منتفعون ومستمتعون. وهو في صورته الدنيا استغلال آثم من الواجدين، وحقد ثائر من المحرومين، يتلوه الصراع بين هؤلاء وهؤلاء.

ولو كان الاقتصاد، لا الإحساس به، هو القيمة الموضوعية الحقيقية، وهو القوة المؤثرة، لما احتاج الشيوعيون إلى هذا الجهد الضخم في نشر دعوتهم، وإثارة "وعي" الجماهير بحالتهم الاقتصادية السيئة. ولتركوا الحالة الاقتصادية وحدها تنقل الناس إلى الشيوعية نقلاً آلياً دون جهد ولا دعاية!

* * *

وحين نؤمن بالإنسان على هذا الوضع، ونعتقد بأن النفس الإنسانية هي الأصل الكبير الذي يرسم الحياة، وأن الاقتصاد أو الإنتاج المادي.. الخ.، ليست إلا منابع من هذا الأصل الكبير، أو ألواناً تلون السلوك والنشاط، نكون قد ارتفعنا بالإنسانية إلى مستواها الحق، ولا نكون قد جانبنا العلم في الوقت ذاته. فالنفس عالم واسع يشمل الاقتصاد والمادة، ويشمل الأفكار والمشاعر. يشمل ضرورات الجسد القاهرة، وسبحات الروح الطليقة، وكلها أصيلة أصيلة.. ولو كره الماديون.

نظرة الإسلام

للإسلام نظرة مستقلة في النفس الإنسانية. تختلف عن غيرها اختلافاً أساسياً. وإن كانت —في الفروع والتفصيلات– قد تلتقي في بعض الأحيان بغيرها من النظريات.

ونظرة الإسلام في تكاملها وتناسقها، وشمولها لكل جوانب النفس وكل جوانب الحياة، غير مسبوقة من الوجهة التاريخية. وما تزال حتى اليوم بعد كل ما ظهر من النظريات، تتفرد وحدها بالشمول والعمق والاتزان.

* * *

أهم ما يتميز به الإسلام أنه يأخذ الكائن البشري على ما هو عليه، لا يحاول أن يقسره على ما ليس من طبيعته، كما تصنع النظم المثالية، وإن كان في الوقت ذاته يعمد إلى تهذيب هذه الطبيعة إلى آخر مدى مستطاع، دون أن يكبت شيئاً من النوازع الفطرية، أو يمزق الفرد بين الضغط الواقع عليه من هذه النوازع، وبين المثل العليا التي يرسمها له.

الإنسان في نظر الإسلام كائن لا هو بالملاك ولا بالحيوان. وإن كان قادراً في بعض حالات الهبوط أن يصبح أسوأ من الحيوان، وفي بعض حالات الارتفاع أن يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر. ولكنه في حالته الطبيعية شيء بين هذا وذاك، مشتمل على استعداد للخير كما هو مشتمل على استعداد للشر. وليس أي العنصرين غريباً عن طبيعته، ولا مفروضاً عليه من خارج نفسه.

وهو يشمل نوازع فطرية تربطه بالأرض، لأن الحياة —في أهدافها العليا– لا تتحقق بغير وجود هذه النوازع قوية ملحة يتعذر الفكاك من عقالها. ولكنه يشمل في الوقت ذاته نزعة —فطرية أيضاً– تهدف به إلى الارتفاع والسمو، ومحاولة الانطلاق —ولو قليلاً– من روابط الأرض.

والإنسان قابل —من طرفيه هذين– أن يهبط أو يصعد بحسب التوجيه الذي يوجه إليه، وخاصة في فترتي الطفولة والمراهقة، ولكنه حين يهبط أو يرتفع، يكون في حدود طاقاته الطبيعية، وعناصره المكونة له، لا يفرض عليه شيء من الخارج، ولا يفسر على ما ليس في طبيعته.

والإغراء بالهبوط، كالإغراء بالصعود. كلاهما يتلقى استجابة طبيعية من الفرد، لأن فيه استهواء لهذا وذاك. وبعض الأفراد بطبيعة الحال يكون استهواؤهم للشر أكبر، وبعضهم يكون استهواؤهم للخير أشد. ولكن الغالبية العظمى تقع في الوسط، أو هي –لنكون أكثر واقعية– أميل إلى الهبوط والاستجابة لنوازعها الفطرية الأرضية، وإن كانت في ذات الوقت لا ترفض الاستجاابة إلى دافع التسامي، حين يعرض لها أو توجه إليه.

والغاية العليا للإسلام، هي إيجاد التوازن في نفس الفرد، فيؤدي ذلك إلى إيجاد التوازن في المجتمع، وفي الإنسانية كلها بعد ذلك، بقدر ما يكون هذا في حدود الإمكان.

ووسيلته في ذلك أن يمسك بالإنسان من خيط الصعود، ليساعده على موازنة الثقل الذي يجذبه إلى الأرض. ولكنه لا يعنف في جذبه إلى أعلى حتى يمزق أوصاله، أو يقطع ما بينه وبين الأرض من صلات، لأنه حين ذلك يفقده التوازن المنشود.

والإسلام يكره فقدان التوازن ولو كان إلى أعلى، لأنه يحرص على أهداف الحياة العليا، التي لا تتحقق بغير الاستجالة لنوازع الأرض؛ وكل ما يعمله ويهدف إليه هو تنظيف الوسائل التي يستجيب بها الفرد لنوزاعه، حتى ترتفع الحياة كلها، وتصبح كريمة جميلة، خليقة بمعنى التكريم الذي أسبغه الله على الإنسان.

ومن هنا يقول الرسول الكريم: "لا رهبانية في الإسلام". فالرهبانية –في نظر أصحابها– ارتفاع بالحياة عن نوازع الجسد، وتطهي للروح لتكون خليقة بالدخول في ملكوت الله. ولكنها –في نظر الإسلام– اختلال غير متوازن، يعطل أهداف الحياة، ويعذب الفرد في سبيل هدف –مهما يكن نظيفاً في ذاته– فهو غير عادل بالنسبة للفرد والمجتمع والحياة.

ومن هنا كذلك يتضح أن الإسلام يسعى إلى التوفيق الدائم بين أهداف الحياة وضرورات المجتمع ونوازع الفرد، دون أن يطغى هدف على هدف، ولا مصلحة على مصلحة، وإنما يسير الكل في توافق واتساق، يحقق –حين يتم– أقصى ما يمكن من السعادة على ظهر الأرض.

تلك نظرته العامة فلنأخذ في شيء من التفصيل.

* * *

الإنسان في نظر الإسلام: جسم وعقل وروح. وكل أولئك معترف بوجوده، مقدرة مطالبه، وكلها حقيقة بالاستجابة إليها استجابة صريحة مباشرة لا مواربة فيها ولا إنكار.

فأما الجسد فهو وشائج اللحم والدم. وهو النوازع الفطرية. وهو الشهوة الملحّة التي لا تهدأ ولا تكف. وهو المطالب بحفظ الحياة على الأرض، بالمحافظة أولاً على ذاته، والمحافظة بعد ذلك على النوع. الهدف الأول وسيلته الطعام والشراب (والمسكن والكساء أيضاً) والهدف الآخر وسيلته النسل والإكثار.

وهناك حكمة في جعل نوزاع الجسد من العنف والإلحاح، بحيث يتعذر –أو يستحيل أحياناً– عدم الاستجابة إليها. فإحساس الجوع والعطش إحساس عنيف لا يمكن السكوت عليه. وذلك ليكون هناك ضمان بألا يتهاون الفرد في المحافظة على ذاته. ولن تتيسر تلك المحافظة بغير الطعام والشراب.

والإحساس الجنسي لا يحتاج الإنسان أن يتطرف مثل فرويد لكي يبين أصالته وعمق جذوره في النفس البشرية، فهو واضح بغير حاجة إلى هذا التطرف المعيب. وحكمته كذلك واضحة فلن يستمر النوع إذا كان الإحساس الجنسي ضعيفاً يسهل الانفصال عنه، والانطلاق من عقاله. ولما كانت المرأة تحتمل الغرم الأكبر في سبيل النسل، كان رباطها بنزعة الجنس أقوى، واتصالها بها أشد، ليكون هناك ضمان ألا تعزف بها آلام الحمل والرضاعة عن أداء هدف الحياة الأصيل.

وبقدر ما يوجد من الألم أو القلق في عدم الاستجابة لنوازع الجسد، يوجد في الكفة الأخرى لذة لا آخر لها في هذه الاستجابة. وبذلك وضعت كل الضمانات التي تكفل استجابة الفرد لأهداف الحياة، دون أن يحس في الوقت ذاته أنه مكلف بأداء فرض ثقيل!

أما العقل فمهمته الأولى أن يعاون الإنسان في الحصول على أفضل الطرق لإجابة النوازع الفطرية، والتغلب على العقبات التي قد تقف في سبيل ذلك، بالتدبر والتفكير.

ولكن مهمته لم تقف عند هذا الحد. فلكي يتأتى له أن يقوم بمهمته على أحسن وجه، جعلت فيه نزعة دائمة إلى المعرفة، كأنها في ذاتها هدف مقصود. وعن طريق هذه النزعة ترتقي الحياة وتتقدم، وهي تحقق أهدافها الأصيلة في الوقت ذاته. فالرقي إذن هدف أصيل من أهداف الحياة، تنزع إليه نزوعاً ذاتياً، ووسائله أو جزء منها موجود في العقل البشري.

أما الروح، تلك الطاقة الكبرى التي لا يؤمن بها الغرب، فمهمتها قد لا تكون ظاهرة للعيان في مبدأ الأمر، لأن الروح في ذاتها أمر غير محسوس. ولا نريد أن ندخل في جدل ميتافيزيقي لا ينتهي؛ ولكنا نكتفي بما أثبتناه من قبل من أن إنكار الروح لا يقوم على أساس علمي صحيح. ونزيد هنا أنه من أهداف الحياة الأصيلة ترقية الحياة ذاتها والارتفاع بها على

الدوام، وأن إحدى وسائل هذا الارتفاع في الإنسان هي الروح ومهمتها أن تتصل بالحقيقة الكبرى في هذا الكون، فتستلهم منها النور الذي لا تراه الحواس، ولكنه موجود بالرغم من ذلك. وبهذا النور العلوي تستطيع الروح أن تسمو، فتعاون الكائن البشري على تحقيق هدف الحياة من الارتفاع.

والنفس البشرية تشمل أولئك جميعاً، ولا تضيق بشيء منها. والإسلام يعترف بالكائن البشري كما هو، فيحقق رغبات جسده وعقله وروحه، ويهدف في ذات الوقت إلى إيجاد التوازن بين الجميع.

* * *

يعترف الإسلام بالنشاط الحيوي للإنسان، وبحق الفرد في أن يزاول هذا النشاط، في حدوده المعقولة التي لا تؤذي المجتمع، ولا تؤذي الفرد ذاته في نفس الوقت.

وفرق كبير في هذا المجال مثلاً بين نظرة المسيحية كما صورتها الكنيسة ونظرة الإسلام. فقد كانت الكنيسة تبالغ في فرض القيود على النشاط الحيوي، وتنكر حق الفرد لا في مزاولة كثير من ألوان النشاط فحسب، بل في الإحساس بالرغبة في هذا النشاط. أي أنها لا تكتفي بوضع القيود في الميدان العملي، بل تتعداه إلى مجال الشعور في داخل النفس، وعلى سبيل الإلزام... وبغير ذلك لا يكون الإنسان جديراً بملكوت الرب.

ولا شك أن الكنيسة قد استندت إلى بعض أقوال المسيح عليه السلام، الداعية إلى التطهر الروحي، والارتفاع على متاع الحس، والتي كثر ورودها على لسان المسيح بالنسبة للمادية الطاغية التي كان اليهود يعيشون في دنسها. ولكن الكنيسة بالغت في الاستناد إلى هذه الأقوال حتى وصلت بها إلى الرهبانية التي قيول عنها القرآن: "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ".

فحين يقول المسيح عليه السلام: "لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون!" أو يقول: "من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير!" فلا يخالجنا الشك في أنه عليه السلام كان يرجو الخير للبشرية. وهو حين يطلب إلى الناس هذا الطلب، يريد أن يضيق مجال الشيطان، بمحاربة الشهوات التي تصرف الإنسان عن الخير. وقد كان خليقاً أن يتشدد في المطالبة بقمع الجسد وقهر الشهوات، والترفع عن الحياة الدنيا، بالنظر إلى حالة بني إسرائيل، وما كانوا عليه من مادية مفرطة وقساوة وجحود.

ولكن حين يتحول هذا إلى رهبانية، نجد أنه من المستحيل عملياً أن تقبع البشرية إلى الأبد داخل الحدود التي أرادتها لها الكنيسة، ولا من الخير لها كذلك أن تقبع فيها فتنصرف إلى الأديرة والصوامع.

وهذه الأديرة والصوامع ذاتها ما الذي يجري فيها؟ إن أبشع القذارات الإنسانية لترتكب هناك، في ذات الأماكن التي كان يظن أنها موضع القداسة، ومكان التطهر الكامل، والخلاص الأبدي من شهوة الجسد ونزغات الشيطان! "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا"[1]

ذلك أن الكبت العنيف الذي تفرضه التعاليم المتزمتة لا يمكن تنفيذه، ولا بد أن يؤدي في النهاية إلى نتيجة عكسية.. إلى الانغماس في الشهوات تحت أي ستار.

ولنترك الأديرة، وننظر إلى المجتمع المسيحي كيف صار. إن الكاثوليكية المسيحية مثلاً لا تبيح الطلاق. وتفرض دوام العلاقات بين الزوج وزوجته أياً كان اختلاف طبائعهما، أو ملابسات حياتهما الزوجية. فماذا كانت نتيجة ذلك؟ لقد كانت النتيجة الحتمية أن ظل الناس (فيما عدا الدول التي أباحت الطلاق) يطيعون هذه التعاليم في الظاهر، ثم يتخذ الأزواج خليلات، وتتخذ الزوجات خلاناً، يقضي بعضهم مع بعض شهواتهم المحرمة، لأن هذا هو التنفيس الممكن الوحيد!

وهكذا نجد في الكثير من هذا التعاليم المتزمتة ما يخالف الطبائع البشرية، ويطالبها بما ليس في طاقتها.

أما الإسلام فقد كان أدرى بالطبيعة البشرية وأحكم في معالجتها، حين أباح للناس نشاطهم الحيوي المشروع.

أباح لهم شهوة الطعام وشهوة الجنس وشهوة الاستمتاع بطيبات الحياة... أباحها لهم صراحة في غير مواربة ولا لبس؛ بل دعاهم دعوة قوية صريحة إلى هذا الاستمتاع:

"قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ"[2].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ"[1].

---

(1) سورة الحديد [٢٧].

(2) سورة ا لأعراف [٣٢].

"وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا"[2].

وحين تحرم التعاليم الكنسية على الناس أن يحسوا بهذه الشهوات، فينشأ بذلك الكبت والاضطراب النفسي، نرى الإسلام صريحاً في الاعتراف بالطبيعة البشرية حيث يقول القرآن: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ"[3] ويقول: "الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"[4].

وهذه مسألة على أعظم جانب من الأهمية، وتستحق أن نفرد بها بضعة سطور من هذا البحث. فالكبت –كما قرر علماء النفس التحليليون وعلى رأسهم فرويد –ليس هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزي، الذي تدفع إليه الطاقة الشهوية في الإنسان[5]. وإنما ينشأ الكبت من استقذار العمل الغريزي، وعدم اعتراف الإنسان في داخل نفسه بأنه يحق له أن يفكر في إتيان هذا العمل، أو يحس بالرغبة في إتيانه، وذلك إطاعة للذات العليا، التي تمثل سلطة الوالد أو الإله.. الخ. أي إطاعة لقوة جبرية تحرم على الفرد هذا الإحساس.

وعندما يشعر الإنسان أنه من العيب أو من المحرم عليه أن يحس بشهوة معينة، يكبت هذا الإحساس، أي أنه لا يسمح له بالظهور في نطاق النفس الواعية التي تواجه المجتمع والحياة الخارجية "Ego". ولكن الطاقة التي تكمن وراء هذه الشهوة باقية ما تزال، رغم كبتها وعدم التصريح لها بالظهور. ومن هنا ينشأ الصراع بين هذه الطاقة الحبيسة وبين القوة التي حكمت عليها الحبس والكتمان. ومن هذا الصراع، وعلى قدر شدته والملابسات الشخصية المحيطة به، تنشأ الاضطرابات النفسية والعصبية المعروفة.

فأهم جانب يقوم عليه الكبت هو عدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه –نتيجة التعاليم التي تلقن به– بأن من حقه الشعور برغبة معينة. ومن هنا يتضح كيف أن التزمت الكنسي بتحريمه الرغبة في طيبات الحياة، قد فتح الباب الذي تلجه الاضطرابات العنيفة المدمرة.

([1]) سورة البقرة [١٧٢].

([2]) سورة القصص [٧٧].

([3]) سورة آل عمران [١٤].

([4]) سورة الكهف [٤٦].

([5]) كتاب "Three Contributions to the Sexual Theory" ص٨٢.

أما الإسلام فمزيته الكبرى في هذا المجال، أنه منذ البدء لا يفتح الطريق أمام الكبت، بل يزيله قبل أن يحدث، ولا يترك فرصة مهيأة لحدوثه. فهو يعترف —كما رأينا في الآية– أن الناس هكذا يحبون الشهوات. وأن هذه الشهوات مزينة لهم.

فحين يرى المسلم أن هذا أمر واقع، وأن شرائع السماء تعترف بوجوده، لا يجد في نفسه الاشمئزاز ولا النفور من هذه الشهوات! ذلك الاشمئزاز الذي ينشأ عنه الكبت.

ولكن هذا لا يعني بحال أن الإنسان يحق له أن ينطلق مع هذه الشهوات إلى آخر المدى، حتى تستعبده وتخرج به عن إنسانيته..

كلا! إن هذا الأمر لو أبيح، لعاد بأقصى الضرر على كيان الفرد ذاته، لا على كيان المجتمع فحسب. فينبغي إذن أن تقام له الحدود التي تحتفظ به في حيز النفع الفردي والجماعي. ولكن هذه الحدود لا تَكْبِت. وهذا هو المهم في الموضوع. إن هذه الحدود تنظم فقط مدى القيام بالنشاط الحيوي، وتحدد له ميادين معينة يكون فيها مأمون العاقبة، ولكنها لا تتعرض قط لأصوله في النفس، فلا تحرّم الإحساس به والرغبة فيه.

ولنأخذ في بسط الأمثلة التي توضح ما نقول:

فالتعاليم المتزمتة —كما أسلفنا– تنظر إلى الشهوة الجنسية على أنها رجس من عمل الشيطان، فعلى الذين يرغبون في التطهر، والدخول في ملكوت الله، أن ينزهوا أنفسهم عن الإحساس —بمجرد الإحساس– بالشهوة إلى المرأة. ولكن هذه الشهوة عميقة في نفس الإنسان. ولا بد أن يشعر الرجل بها شاء أو لم يشأ، لأن هذا الشعور العنيف الملح هو وسيلة الحياة لحفظ النوع. فالنتيجة الحتمية لهذه التعاليم أن يكبت الرجل شعوره بالرغبة في المرأة (وكذلك الأمر بالنسبة لشعور المرأة نحو الرجل).. ثم ينشأ الصراع.

أما الإسلام فيقرر أن هذه الشهوة قد زينت للناس. فحين يحس الفتى المراهق إذن بالرغبة في الجنس الآخر لا يحتاج —في الإسلام– أن يستعيذ بالله من مجرد هذا الإحساس، لأن الإسلام يقر له في صراحة تامة، أن هذا أمر طبيعي لا خلاف عليه ولا نكران له.. وعلى ذلك لا يحتاج أن يكبت الشعور بهذه الرغبة لكي يتطهر في نظر الناس، ونظر نفسه، ونظر الله.

ولا يحتاج كذلك أن يشعر بالإثم من مجرد إحساسه بالرغبة الجنسية. ومن ثم تنتفي كل الاضطرابات النفسية والعصبية التي تنشأ من الشعور بالإثم، والتي تؤدي إلى الجريمة في حالات الشذوذ.

ولكنا نعلم بطبيعة الحال أن الإسلام لم يبح للفرد أن ييطع هذا الهاتف الجنسي حسبما اتفق، وفي أية صورة من الصور. وإنما وضع لذلك الحدود الشرعية التي يكون مباحاً في حالات الشذوذ.

ولكنا نعلم بطبيعة الحال أن الإسلام لم يبح للفرد أن يطيع هذا الهاتف الجنسي حسبما اتفق، وفي أية صورة من الصور. وإنما وضع لذلك الحدود الشرعية التي يكون مباحاً في داخلها، محرماً فيما وراءها.

هذا صحيح. ولكن هذا شيء والكبت شيء آخر. فهنا مجرد تعليق[1] للعمل. وفرق بين هذا وبين استقذاره وعدم الاعتراف به في داخل الضمير. هذا التعليق ينظم النشاط الجنسي العملي ولكنه لا يبته من منبته، ولا يحرم الإحساس به في أية لحظة بين الإنسان ونفسه.

وتعاليم المسيحية –المترفعة المتسامية– تحرم الأخذ بالثأر. ليس هذا فقط. بل تحرم الإحساس بشهوة الانتقام، وتعد ذلك علامة على الانحطاط واتباع الشيطان، وتعتبره خصلة لا تؤهل الإنسان للدخول في ملكوت الرب. (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر).

ورد العدوان وحب الانتقام من اعتداء وقع على الإنسان، نزعة فطرية لا جدال في وجودها بين البشر جميعاً. صحيح أن الاستسلام لها دائماً يهبط بالبشرية إلى درك منحدر، ويقفل الطريق أمام التسامي والارتفاع. ولكنه صحيح أيضاً، أن كبت هذه النزعة الفطرية أو إماتتها ليس من صالح البشرية في شيء، فهناك ملابسات تمر بكل إنسان، وبكل أمة، يصبح القعود فيها عن طلب الثأر مهانة وخزياً لا يعودان على أحد بالخير، إلا على المعتدي الأثيم. فتحريم المبدأ إذن كانت له مبررات مفهومة كدعوة مؤقتة، ولكنه كنظام دائم فكرة خطرة، فضلاً عن كونها غير مستطاعة عملياً، ولا بد أن ينشأ منها الصراع النفسي والاضطراب.. فكيف عالج الإسلام هذا الأمر؟

([1]) اخترنا هنا تعبير فرويد "Suspension" الذي فرق به بين الكبت وبين عدم الإتيان بالعمل الغريزي في كتاب: "Three Contributions".

إنه يقرر في صراحة تامة أن "العين بالعين والسن بالسن... والجروح قصاص" بل يحض على القصاص في أكثر من موضع: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ" "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ".

فهو يقرر –من حيث المبدأ– حق الفرد بالشعور بالغضب والرغبة في الانتقام، فلا كبت هنا ولا مجال للكبت.

وصحيح أنه يجعل ولي الأمر هو المنوط بالتحقيق والتنفيذ. ولكن هذا المنع ينصرف إلى التنفيذ العملي فقط ولا ينصرف إلى الإحساس ذاته، وهو منشأ الكبت والاضطراب.

والمسيحية التي جاءت لتطهير بني إسرائيل من الجشع المادي الغليظ، تحارب حب المال، وتصفه بأنه إطاعة للشيطان ومجلبة لغضب الرب. ولكن حب المال "شهوة" مزينة للنفس على حد تعبير القرآن. ولا بد أن تشعر النفس العادية بالرغبة فيه، فإذا حرم عليها هذا الإحساس، نشأ عن كبته ألوان من السلوك المنحرف، يعرفها علماء النفس التحليليون في الأمراض التي يقومون بعلاجها.

أما الإسلام فقد رأينا أنه يقرر بصراحة أن ذلك من طبائع النفوس. فإذا أحس الإنسان بالرغبة في امتلاك المال فليس ذلك من نوازع الشيطان، ولا هو مما يجلب غضب الله عليه. فتنتفي منذ اللحظة الأولى مبررات الكبت والاضطراب.

وصحيح أن الإسلام يضع قيوداً كثيرة لامتلاك المال، فهو لا يبيح لأحد أن يطيع شهوة القناطير المقنطرة من الذهب، بلا حساب. وإنما يفرض عليه سلوكاً معيناً وطرقاً بذاتها لا يكون المال حلالاً إلا بها، بل يفرض كذلك على هذا المال مصارف معينة، إذا لم ينفق فيها لم يصبح المال حلالاً، حتى ولو جمع بطريق الحلال.

كل هذا صحيح، وفيه تقييد لشهوة المال لا شك فيه، ولكن هناك فرقاً أساسياً بين هذا التحديد في الميدان التنفيذي، وبين منع الإحساس بتلك الشهوة في داخل النفس.

وهكذا.. وهكذا.

ولا أحسبني في حاجة إلى مزيد من الأمثلة التي تقرر هذا الاختلاف الأساسي بين تعاليم المسيحية التي جاءت لفترة معينة من الوقت ولشعب معين، وبين نظرة الإسلام الذي جاء للناس كافة ولجميع الأجيال. فقد اتضحت لنا –فيما أظن– طريقة الإسلام الأساسية في معالجة النوازع الفطرية: فهو يعترف بها، ويعترف بحق الفرد في الإحساس بها، وفي مزاولتها

في الحدود المشروعة. فيتجنب بذلك منذ اللحظة الأولى قيام الكبت الذي ينشأ من استقذار الدوافع الفطرية وعدم اعتراف الإنسان لنفسه —نتيجة ضغط الدين أو التقاليد.. الخ– بأحقية إحساس معين بأن يخطر في شعوره.

بل إن الإسلام ليصل إلى أبعد من هذا في الاعتراف الصريح بالواقع البشري كما هو، وذلك مثلاً حيث يقول: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ". وقد كان من حق دعوة دينية كالإسلام، تعتمد على الجهاد في سبيل الله، وتعتبره جزءاً أساسياً من الإيمان بهذا الدين، وتستحث عليه بكل الوسائل، وأهمها الوعد بالثواب في الآخرة على ما يبذل الإنسان من تضحيات في الحياة الدنيا.. كان من حق مثل هذه الدعوة أن تكتفي بعرض الجانب اللامع الجميل من الجهاد، وهو التضحية النبيلة التي ترخص فيها حياة الفرد الفانية، في سبيل الفكرة العليا الباقية، وفي سبيل خالق الحياة كلها، ومانح هذا الفرد ما منحه من هبات.

ولو أن الإسلام اكتفى بذلك لكان هذا من حقه، وهو يعتمد على الجهاد، ويعتبره ركناً من أركانه الأساسية لا يكاد يتم الإيمان إلا به.

ومع ذلك كله، ومع وجود المبررات التي تبيح للإسلام أن يفرض المثل الأعلى في هذا المجال فرضاً، ويطالب الناس بالارتفاع إليه، فإن إدراك الإسلام للطبيعة البشرية، وصراحته التامة في الاعتراف بها، جعله يقول إن القتال "كره" للمقاتلين.

صحيح أنه لا يقر لهم أن يندفعوا مع هذا الكره إلى الحد الذي يقعد بهم عن القتال. فذلك أمر شائن لا يزال القرآن ينفّر منه ويصوره في أقبح صورة. ولكن هناك فرقاً نفسياً بين ذلك، وبين عدم الاعتراف للفرد بحقه في استشعار الكره وهو مقبل على القتال.

ولأية نتيجة يصل من هذا الاعتراف الصريح؟

إنه يصل إلى نتيجتين في آن واحد: الأولى أنه لا يدع مجالاً للكبت الذي يمكن أن ينشأ في نفوس بعض المقاتلين —بل كثير منهم– حين يذهبون إلى القتال، وقد فرض فيهم أنهم مقبلون عليه إقبال الراغب المتطوع المندفع، الذي لا يجوز له أن يكره ما قد فرض عليه. والمحللون النفسيون يعرفون كثيراً من أنواع الاضطراب النفسي والعصبي الذي ينشأ في الحرب، نتيجة كبت المحاربين لكراهيتهم للقتال، لأن أحداً لا يصرح لهم بهذه الكراهية، لا الدولة التي أرسلتهم، ولا القادة الذين يصدرون الأوامر، ولا الزملاء من الجنود (ولو كانوا هم في داخل نفوسهم من الكارهين!) أما حين نصرح لهؤلاء الجنود بحقهم في استشعار الكراهية لما هم

مقبلون عليه، فلا سبيل إذن لنشوء الكبت اللاشعوري. لأن في استطاعتهم –رسمياً– أن يحتفظوا بالكراهية في نطاق الشعور. وهذا هو المكسب الأول من هذا الاعتراف.

أما الكسب الآخر وهو الأهم، والأعجب، فهو أن هذا الاعتراف من جانب الله سبحانه، بأنه لا يستنكر من عباده أن يكرهوا هذا التكليف الثقيل، يجعل هؤلاء العباد يندفعون إلى القتال بحماسة عجيبة، فيضحون بأنفسهم في بساطة، ويستشعرون لذلك لذة كأنهم مقبلون على عرس يستمتعون فيه بنعيم الحياة! وترى عندئذ تلك النماذج البشرية المعجِبة التي لم تكن أفراداً بل جماعات، يقول الواحد منهم: أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلني؟! ثم يلقي بنفسه في المعركة فيستشهد وهو قرير العين!

فتلك البطولة الفذة قد صاحبت هذا الاعتراف الصريح بحق المجاهدين في كراهية القتال. ولكنا لو فرضناه عليهم، وقد حرمناهم الحق النفسي في كراهيته –إذا شاءوا أن يحسوا بها –لذهبوا إليه كارهين مكبوتين مضطربين.

وهذه الصراحة ذاتها نجدها في فرض بعض التشريعات. يقول القرآن: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا".

فهو هنا يقرر أن في الخمر والميسر منافع للناس. ولكنه يبين سبب المنع في أن الإثم الذي ينشأ عنهما أكبر من النفع. ولو قد نفى منذ البدء أن فيهما أية فائدة لأحد، لقام الناس يعارضون، أو لأطاعوا –حين يطيعون– وهم غير مقتنعين بحكمة هذا الفرض، فلا يخلصون في تنفيذه، كما يصنع الأوربيون في بعض أوامر الكنيسة (كتحريم الطلاق مثلاً) فيتحايلون عليه بوسائل غير نظيفة[1].

يعترف الإسلام إذن بالواقع البشري كما هو، ويتقبل الإنسان بدوافعه ونوازعه الفطرية، ولا يطرده من رحمة الله حين يحس بهذه الشهوة أو تلك.

ولكنه في ذات الوقت الذي يعترف له فيه بحقه في تلك المشاعر، فيحميه من الكبت اللاشعوري المؤذي، لا يتركه ينطلق مع هذه الشهوات إلى آخر المدى، فيستعبد لها، ويصبح خاضعاً لإلحاحها، لا فكاك له من ربقتها.

---

(1) انظر الهامشة رقم (١) صفحة ٩٢.

وإذا كان في اعترافه بواقع البشر يتميز تميزاً واضحاً عن النظم والعقائد الرهبانية، فهو في فرض القيود على شهوات الإنسان يتميز عن الدعوات الغربية المتحللة الفاسدة. فهنا موضع الخلاف بين الإسلام وبين علم النفس الغربي، الذي يدعو لإطلاق الإنسان من كل القيود.

ويسأل المتأثرون بالاتجاهات الغربية المنحلة، والذين استعمرت أوربا أرواحهم: لماذا؟ لماذا نفرض هذه القيود الثقيلة على الإنسان؟ لماذا لا نطلقه حراً من كل قيد، فيستمتع بالحياة الدنيا، ويفرغ باله من ضغط الجسد الملح، فينصرف للإنتاج والاختراع، نشيطاً طليقاً، كما يصنع الغربيون فينعمون ويرتفعون ويرتقون ويَغْلِبون؟!

وتلك مسألة جديرة بالعرض والمناقشة. لأن أولئك المستعبدين لأوربا، شرقها وغربها سواء، لا يتصورون أبداً أن أوربا يمكن أن تخطئ! ولا يتصورون أن أي نظام يخالفها يمكن أن يكون على صواب. ويبهرهم لألاء الحضارة الغربية المادية فيسحر عقولهم وأرواحهم، ويشعرون بضآلة أنفسهم وحقارتها بجانب هذا البريق الخاطف الأخاذ، فلا يطيقون أن يعتقدوا أن في الإمكان أبدع مما كان!

وي! هل يمكن أن تكون الأمم التي تملك الطائرة والمدفع والقنبلة الذرية المهلكة، قائمة على أساس حضاري أو نفسي فاسد، ونكون نحن الضعفاء المتأخرين بحيث ننتقد حضارتهم، ونزعم أن لنا خبرة بالنفوس —أو بشيء على الإطلاق— أكثر من خبرتهم؟

كلا! كلا! رحم الله امرأ عرف قدر نفسه!

ومع ذلك فهذا كله صحيح![1]

إن تلك القيود التي يفرضها الإسلام ضرورة إنسانية ملحة، ضرورة لازمة لحفظ كيان الفرد ذاته، لا كيان المجتمع وحده. ولو أنها كانت من مستلزمات المجتمع فحسب، لما نقص هذا من قدرها، ولا جعلها سخرية للساخرين. فليس المجتمع مفروضاً على الفرد من الخارج. ولولا تلك الرغبة الملحة في نفس الفرد أن يستأنس بغيره، ويتعاون معه، ويشعر بالراحة في

([1])حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (١٩٥٢) بل حتى الثالثة (حوالي ١٩٦٠) لم تكن علامات التفسخ والانهيار في الحضارة الغربية قد بدت واضحة كما هي اليوم. ولكنها اليوم أوضح من أن يجادل فيها المجادلون، بعد أن اعترف بفسادها أصحابها الأصليون!

وجوده، لما وجد المجتمع؛ فهو إذن حقيقة نفسية نابعة من نفس الفرد، لم يفرضه عليه نظام ولا دين..

ولأهمية هذه النقطة أفردنا لها فصلاً خاصاً في هذا البحث هو فصل "الفرد والمجتمع". ولكن يكفينا هنا أن نشير إلى أن الخضوع لضرورات المجتمع، هو في الوقت ذاته خضوع لدافع نفسي أصيل في نفس الفرد، لا غنى له عن إجابته، ولا يسعده ألا يستجيب إليه.

ولكن المهم أن القيود التي فرضها الإسلام، منظور فيها لمصلحة الفرد ذاته أولاً وقبل كل شيء... وأن الإسلام، أو أي نظام آخر على الأرض، لو أطلق الإنسان من عقاله لعاد ذلك عليه بأبلغ الضرر في القريب أو البعيد.

وإذا كان حاضر أوربا وأمريكا يخفي هذه الحقيقة ببريقه الخاطف، فليعلم المخدوعون بهذا البريق أن عقلاء الأوربيين والأمريكان أنفسهم ينادون بمثل ما نادي به. وليعلموا كذلك أن الخطر إذا استتر حيناً، فهو موجود على أي حال، ولا بد أن يؤتي ثماره البغيضة ذات يوم. بل هو قد آتى بعض هذه الثمار فعلاً في فرنسا التي هوت على ركبتيها عند أول ضربة من الألمان، خاضعة ذليلة تستجدي الظافرين. وآتى ثماره كذلك في نشوب حربين عالميتين في ربع قرن، والثالثة على الأبواب تنذر بهلاك العالم كله. وغير هذا وذلك تلك الأمراض النفسية والاضطرابات العصبية والجنسية، وحالات ارتفاع ضغط الدم.. الخ التي تنتشر في أمريكا ذاتها، بلد الحرية والانطلاق، والمثل الأعلى أمام المخدوعين والمغفلين![1]

إن الإنسان ليتميز عن الحيوان بالحرية التي منحها الله له في التفكير والتنفيذ.

فالحيوان مقيد بحدود غريزته. هي التي تفرض عليه حركاته وسكناته، وهي التي تعين له نواحي نشاطه؛ وأهم من ذلك أنها تعين له مدى الاستجابة لحاجات الجسد.

فهو يأكل بدافع الغريزة حين يجوع، وينتقى ألواناً معينة من الغذاء بدافع الغريزة كذلك، لا اختيار له ولا إرادة. ثم هو يكف عن الطعام حين تقرر له غريزته حد الاكتفاء. وهدف الغريزة من تقرير هذا الحد، هو منع الضرر عن الحيوان لو أسرف في الطعام عن الحد الذي يتناسب مع طاقة هضمه وتمثيله. ويظل هذا الحد غريزياً ما دام الحيوان على طبيعته وفطرته.

([1]) حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (١٩٥٢) بل حتى الثالثة (حوالي ١٩٦٠) لم تكن علامات التفسخ والانهيار في الحضارة الغربية قد بدت واضحة كما هي اليوم. ولكنها اليوم أوضح من أن يجادل فيها المجادلون، بعد أن اعترف بفسادها أصحابها الأصليون!

فإذا استؤنس، وصار يعتمد على الإنسان في الحصول على طعامه، فقد يضل أحياناً عن هدي الغيزة، فيلزم حينذ أن يتولى راعيه تحديد القدر الذي يؤدي الغرض، ولا يعود بالضرر على الحيوان.

والغريزة —في بعض الحيوانات– تقوم بكسوة الحيوان عند البرد، ونزع هذه الكسوة عند ظهور الحر، دون أن يكون له إرادة في ذلك، ودون أن يملك تأخيره عن موعده أو تقديمه.

أماا لنشاط الجنسي فله عند الحيوان مواسم معينة يهيج فيها الذكر والأنثى للقاح والإخصاب. فإذا انتهى الموسم امتنعت الأنثى على الذكر، وكف الذكر بدوره عن المحاولة.

وبهذا تضمن الغريزة ألا يستهلك من النشاط الحيوي للحيوان قدر أكثر مما تحتمله طبيعته، فيفسد جسده ويتحلل، ويضيع على الحياة فرد من أفرادها قبل الأوان الطبيعي لاستهلاكه!.

أما الإنسان فقد كرمه خالقه فنزع عنه قيد الغريزة، على الأقل في طريقة التنفيذ ومداه. فإلا يكن الإنسان حراً في الدوافع المفروضة عليه من الداخل، فهو حر في الطريقة التي يستجيب بها لتلك الدوافع، والمدى الذي يذهب إليه حين يستجيب.

فماذا يحدث لو استغل الإنسان هذه الحرية إلى أقصى المدى، ولم يقم لنفسه الحدود التي تقف عند حد الاكتفاء المعقول؟

يظن بعذ البسطاء أن هذا أدعى إلى زيادة المتعة، وإلى الشعور بالسعادة والامتفاء. ولكن الأمر في هذا ليس متروكاً للنظريات؛ فالواقع التجريبي يحسم الجدل، ويوفر علينا النقاش.

ولنبدأ بالطعام، فقد يكون الحديث فيه أقرب إلى الفهم والتصديق. فبعض الناس يسرف في الطعام عن الحد الذي تتطلبه حاجة الجسد من بروتينات وفيتامينات وأملاح وعناصر أخرى، ويخيل إليهم في بادئ الأمر أنهم يستمتعون بهذه الزيادة، وينالون من اللذة أكثر مما ينال الفرد الطبيعي، الذي يقنع بالقدر المعقول من الطعام.

ولكن الأيام تمر، فإذا هذا الأكول يزداد نهماً كل يوم، ويصل إلى درجة لا يشبع فيها أبداً مهما قدم إليه من الطعام. ويصبح كما تقول العامة "فجعان!!".

كيف حدث ذلك؟ إن معدته وأمعاءه قد اتسعت عن الحجم الطبيعي، فلم تعد تكتفي بالقدر المعتاد، وأصبح لا بد لملئها من كميات ضخمة هائلة. وما تكاد تمتلئ حتى تعود إلى الفراغ وطلب الطعام من جديد. وهكذا يفقد هذا النهم لذة الاكتفاء والامتلاء، التي يشعر بها الشخص السوي، ويظل عمرَهُ معلقاً لا تطيب له الحياة.

وأكثر من ذلك أن شهوة الطعام تستعبده فلا يعود بيده أن يأكل أو يمتنع. وإنما هو أبداً مشدود إلى هذه الشهوة، يتبعها حيث تقوده ولا يملك حريته معها. فكيانه كله، وتفكيره ونشاطه، محدود بهذا الموضوع الواحد لا يتعداه. وتنحصر رغباته في أكلة شهية، فإذا كان غنياً أنفق فيها أمواله. وإن كان فقيراً تدنأ على موائد الأغنياء! فأية حقارة إذن تلك التي تهبط بالإنسان إلى هذا الدرك فتحرمه إنسانيته، وتقعد به عن الارتفاع إلى حيث ينبغي للبشر أن يرتفعوا، بأفكارهم وأرواحهم، إلى آفاق أخرى أوسع من الطعام والشراب؟ وكيف تصير الحياة التي يكون أفرادها مشغولين أبداً بلقمة الطعام؟ متى ترتقي؟ وأنى لها أن تصل إلى المشاعر والأفكار والمخترعات التي تعود بالخير على الجميع؟

من أجل هذا إذن يقول الإسلام: "وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ". فيبيح المبدأ، ويضع القيود في التنفيذ، القيود التي تهدف أولاً إلى سلامة الفرد، ثم إلى رفعته واارتقائه.

والجسم مثلاً في حاجة إلى الراحة، لأنه بغيرها تصبح الحياة عذاباً لا يطاق. والإسلام يلحظ ذلك، فيقول النبي الكريم: "إن لبدنك عليك حقاً".

ولكن الإسراف في الراحة، الذي يُظن في بادئ الأمر أنه أدعى إلى زيادة الاستمتاع، يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى الكسل والاسترخاء. والكسل ليس متعة. لأن الكسول يشعر "بالعجز" عن الحركة والنشاط. بل يصير النشاط أمنية عزيزة المنال، لأن "ميكانيكية" الجسم تتأثر كلها بهذا الإسراف في الراحة فتكسل عن أداء عملها، فلا تفرز الغدد إفرازاتها بالقدر المطلوب، وتقعد الأعضاء التي تطرد الفضلات عن نشاطها، فتتراكم السموم وتؤدي إلى الفتور والخمول.

وهكذا تنقلب المتعة المرجوة إلى مرض وعذاب. ويحتاج الكسول المترف إلى منشطات غير عادية تنهك ماله وصحته، لكي يستمتع بقدر معقول من النشاط، كان يستطيع أن يناله في هدوء ويسر لو وقف عند حد معقول.

فحين يحرّم الإسلام الترف، ويصوره في صورة بغيضة منكرة، يكون من أهدافه سلامة الفرد ذاته، والاحتفاظ به في حالة سوية تهيئ له الاستمتاع بقسط معقول من متعة الحياة.

ونحسب أن هذا الكلام من البديهيات التي لا تحتاج إلى جدال في الشرق ولا في الغرب. وإنما يدور الجدل الأكبر حول المسألة الجنسية. فيرى الغربيون وعبيدهم في الشرق، أنه ينبغي أن تطلق للفرد حريته كاملة فيها، لكي يفرغ من ضغطها الدائم على أعصابه، ويخصص جهده لما ينفع، بدلاً من أن يضيع هذا الجهد في مجاهدة دفعة الغريزة، وفساد الأعصاي نتيجة لذلك الجهاد.

وتلك مسألة نرى من أهميتها ما يجعلها جديرة بفصل مستقل نبحثها فيه من أطرافها جميعاً. ولكنا نستطيع هنا ونحن نبسط النظرة العامة للإسلام أن نقول: إن شأن المسألة الجنسية في هذا الصدد، هو شأن كل شهوة أخرى من شهوات الجسد أو النفس، قد يظن قصار النظر أن إباحتها وفتح الباب أمامها على مصراعيه، حريّ بأن يقلل من ضغطها الملح أو يقضي عليه. ولكن الواقع يكذب ذلك. فأقدر الناس على الانصراف عنها بأفكارهم والابتعاد عن إغرائها العنيف –لفترة من الوقت– ليسوا هم الغارقين فيها لأذقانهم، ولا "المستمتعين" بلذائذها المتاحة في كل حين! صحيح أن المحرومين هم كذلك عاجزون عن الانصراف عنها والابتعاد عن إغرائها. ولكن المهم أن المسرفين فيها ليسوا أقل منهم عجزاً، بل ربما كانوا أكثر. لأن هذه الشهوة، كبقية الشهوات، لا تشبع بزيادة ما يقدم لها من وسائل الإشباع، بل تزداد اشتعالاً ونهماً، حتى تصبح عذاباً لا يهدأ ولا يترك صاحبه في راحة، فلا هو يشعر بالاستمتاع الحقيقي، ولا جسده يحتمل الجهد الدائم، الذي يستلزمه طلب الإرواء المستمر، لظمأ كافر لا يرحم!

بل إن هذه الشهوة –لعنفها وتعمقها وشمولها لكثير من نواحي النشاط– أخطر من كل شهوة أخرى حين يباح لها التفريغ الدائم، الذي يؤدي بدوره إلى الظمأ الدائم، لأن استعبادها للإنسان في هذه الحالة يكون أعنف وأشد. وهي كفيلة بأن تفسد عليه عقله وتذهب بصوابه، وتجعله عرضة للهبوط والانحلال، حتى يصبح في النهاية جسداً ينزو كالبهيمة، لا يرتفع بفكره ولا بروحه عن مستوى الحيوان، فضلاً على أنه حيوان هائج على الدوام.

فحين يضع الإسلام الحدود للشهوة الجنسية، بعد أن يعترف بها من حيث المبدأ، لا يصنع ذلك تحكماً واعتباطاً. وإنما يهدف قبل كل شيء إلى حفظ كيان الفرد، وإلى مصلحته الخاصة.

وهو لا يسير على هذه القاعدة العامة في شهوات الجسد فحسب، بل يتبعها كذلك في الشهوات النفسية: كشهوة المال. أو "التملك" بصفة عامة.

فقد بينا من قبل أنه يبيحها ويعترف بها من حيث المبدأ، ومن حيث إنها شعور في النفس لا ينبغي كبته ولا مطاردة الإحساس به، كما تصنع بعض المذاهب الاجتماعية الحديثة.

ولكن إباحته على إطلاقه تنقلب به إلى شهوة جامحة مقعدة مقيمة. وكلنا نعرف حالة "جامع المال" الذي يقضي حياته كلها في جمعه، ويحتمل في ذلك عذاب الهون، وقد يذل نفسه للحصول عليه كما يقول الشاعر: "أذل الحرص أعناق الرجال". ولا يستمتع به بعد ذلك كله. لأن جمعه يصبح غاية في ذاته، لا وسيلة لغاية أخرى أرفع وأنبل. وهكذا تنقلب اللذة الأولى الناجمة من الاستكثار من المال، شغلاً دائماً للبال، وقلقاً للأفكار، وجشعاً لا يرتوي، بل يزداد حدة كلما ازداد المال كثرة!

ويحضرني هنا قول معبّر لأحد السكيرين إذ يقول: "إنني حين أشرب الكأس الأولى، أصبح شخصاً جديداً يحتاج إلى كأس ثانية!" وهو شديد الانطباق على الشهوات جميعاً وشهوة المال خاصة. فإن الذي يملك مليوناً من الجنيهات يصبح شخصاً جديداً يحتاج إلى مليون آخر، وهكذا!

فحين يحرم الإسلام الكنز ويقول القرآن في ذلك: "وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"...

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من جمع ديناراً أو درهماً أو تبراً أو فضة ولا يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة"....

يكون هدفه الاحتفاظ بالفطرة السليمة للفرد، وحمايته من نفسه، ومن العذاب الذي يقع فيه لو ترك بلا قيود ولا حدود.

* * *

نخرج من هذا الاستعراض بفكرة مؤكدة لا تمحل فيها ولا ادعاء: هي أن القيود التي يفرضها الإسلام على شهوات الفرد –بعد أن يحتاط من كبتها في اللاشعور– هي قيود منظور فيها لمصلحة الفرد كفرد، وليست مفروضة عليه لشهوة التحكم والاستعباد!

ولكنها في الوقت ذاته مفروضة عليه أيضاً لصالحه حين يجتمع بغيره من الأفراد في هيئة مجتمع. وقد أشرت إشارة عابرة من قبل –سأعود إليها في بحث مفصل– إلى أن المجتمع حاجة نفسية للفرد لا يستطيع الاستغناء عنها ولا الحياة بدونها. فلو أن قيوداً فرضت على

الفرد لصالح المجتمع وحده، لما كان في ذلك افتئات على كيان الفرد، لأن هذا المجتمع جزء من كيانه في الواقع. ولكن الذي أريد أن أؤكده بالنسبة إلى الإسلام، أن القيود التي يفرضها على الفرد لصالح المجتمع، هي ذاتها القيود التي فرضها عليه من قبل للمحافظة على كيانه ومصلحته الفردية. فلا تعارض في الإسلام بين مصلحة الفرد -كشخصية مستقلة- ومصلحته وهو جزء من المجتمع الكبير. وكل قيد يُفرض هو قيد ذو شعبتين تعملان معا وفي آن واحد: إحداهما لمصلحة الفرد، والأخرى لمصلحة المجتمع. وكل حرية تباح هي كذلك حرية ذات هدفين في آن واحد: أحدهما لصالح الفرد، والآخر لصالح المجتمع.

ونضرب لذلك الأمثلة...

إن منع الإسراف في الطعام والشراب هدف اجتماعي: لأن ذلك الإسراف يخل بتوازن المجتمع إخلالاً يؤدي إلى الفوضى والاضطراب، إذ يجعل بعض الأفراد يستهلكون أكثر مما ينبغي لهم، فيترتب على ذلك حتماً أن يوجد أفراد لا يجدون القدر اللازم لهم من الطعام. وينشأ من ذلك تغير القلوب، وتغلغل الحقد في نفوس المحرومين. وهذا بدوره يؤدي إلى ثورتهم على الواجدين المترفين. فيضطرب سير الأمور، ويتحول نشاط البشرية من الخير المرجو إلى الشر الكريه.

ذلك صحيح. فالمنع مقصود به مصلحة مجموع الأفراد، وهو يقضي بأخذ الزائد من الواجدين وإعطائه للمحرومين. ولكنه في ذات الوقت ضروري لمصلحة أولئك الأفراد المسرفين كما بينا من قبل.

وشهوة المال أقرب شيء إلى شهوة الطعام والشراب. والعامل الاجتماعي واضح فيها إلى درجة لا تحتاج إلى بيان. فهي في الواقع سبب كل اضطراب في المجتمع حين تترك بلا حدود. والفرد الذي تتملكه شهوة المال يؤذي المجتمع -أي بقية الأفراد- إيذاء شديداً لا يقف عند حد، ويجرم في حقهم جريمة لا تغفرها الأرض ولا السماء. ذلك لأنه بأنانيته المفرطة -وهو فرد- يحرم المئات والألوف من حق الحياة الإنسانية النظيفة حساً ومعنى. لأن الفقر لا يقف ضرره عند حرمان الجسد مطالبه الرئيسية، من طعام وشراب وملبس ومسكن محترم، بل يتعدى ذلك إلى إفساد مشاعر الفقير وأفكاره، والهبوط بها عما ينبغي للإنسانية أن تهدف إليه. فهو إما أن يستذل للأغنياء ويفنى فيهم لإرضاء شهواتهم الداعرة، كما يصنع القوادون والبغايا للحصول على لقمة العيش.. وإما أن يحقد عليهم، والحقد شعور غير نظيف من الوجهة الإنسانية، فضلاً عما ينجم عنه من اضطرابات خطيرة في المجتمع، لا تصيب الذين ظلموا منه خاصة.

هذا صحيح، بل هو من القوة والوضوح بحيث يغري بالظن بأن القيود التي فرضت على شهوة المال لم يقصد بها إلا مصلحة المجتمع، على حساب الفرد. ولكن الواقع أن هذه القيود، تمشياً مع نظرة الإسلام العامة، قد قصد بها كذلك وفي ذات الوقت، مصلحة الفرد الخاصة —لا لإنقاذه من نفسه، ومن الجوع الدائم إلى المال فحسب– بل لإنقاذه أيضاً من ثورة المحرومين عليه حين يثورون فيحرمونه مما يملك، وقد يحرمونه حياته ذاتها، كما يحدث في الاضطرابات العامة. وهكذا تتحد مصلحة الفرد والمجتمع في تشريع واحد.

والحديث عن شهوة الترف يتمشى مع الحديث السابق، لأن الترف من جانب يقابله الحرمان من جانب آخر، فيختل بذلك استقرار المجتمع. يضاف إلى هذا أن مجتمع الكسالى لا يرتقي أبداً، ولا يأخذ بأسباب القوة التي لا غنى عنها لكي يحتفظ بكيانه، فيتعرض بذلك لخطر الغزو والاستعباد من المجتمعات الأخرى المحتفظة بقوتها ونشاطها.

فالقيد المفروض على شهوة الترف قد فرض لصالح المجتمع، ولكنه —كما بينا من قبل– مفروض لمصلحة الفرد ذاته في عين الوقت.

أما الشهوة الجنسية، فالجانب الاجتماعي منها واضح كذلك، فلن ينتج من الفوضى الجنسية إلا اختلاط الأنساب وتفكك الأسرة واضطراب عواطف الناس. وأهم من ذلك أن الفرد الذي يستغرق في شهواته فرد أناني لا يصيخ لصيحة المجتمع، ولا يشعر بوازع يدفعه إلى التنازل عن بعض لذائذه المستولية عليه، لصالح المجتمع أو الدولة. وقد كانت هذه الأنانية الصارخة هي التي أضعفت فرنسا وفتت في عضدها، بل نخرت في كيانها كالسوس. فما إن واجهت أول ضربة من الألمان حتى خرّت ذليلة تستجدي الفاتحين، وتستعطفهم على عمائر باريس ومراقصها ومواخيرها أن تحطمها قنابل الطائرات!!

فالحدود المقامة على الشهوة الجنسية قد روعي فيها صالح المجتمع بلا جدال. ولكن صالح المجتمع لم يكن وحده المقصود. بل كان مقصوداً كذلك إنقاذ الفرد ذاته من حياة العذاب وعدم الاستقرار.

* * *

من هذه الأمثلة ندرك الطبيعة المزدوجة للحدود التي يقيمها الإسلام على شهوات الجسم والنفس. وندرك أن الإسلام لم يفرضها تحكماً ولا اعتباطاً.

ويتولى الإسلام صيانة هذه الحدود بالتشريع، أي بسن القوانين التي تكفل عدم الاعتداء، والتي تتيح لكل فرد أن يعمل، ويستمتع، ويوجه نشاطه الحيوي في كل وجهة ممكنة، بحيث لا يؤذي في أثناء ذلك كله أحداً غيره من الأحياء، ولا يضيق على هذا الغير فرصة الاستمتاع بالحياة.

ولكن للقوانين في الإسلام مزايا ليست لغيرها في النظم الأخرى، التي تنبع من الأرض ولا تتصل بالسماء، والتي تعمل لحساب طبقة دون طبقة، أو لفرد دون أفراد.

أول هذه المزايا هو ما ذكرناه من قبل، من أن كل حد من حدود الإسلام قد فُرض لصالح الفرد كشخصية مستقلة، ولصالحه كذلك وهو عضو في الجماعة مع غيره من الأفراد.

وحين يحس الفرد أن هذا هو الهدف المقصود من وراء القيد المفروض، وأنه إذ يقف في طريق بعض شهواته لكيلا يؤذي غيره من الأفراد، يحميه كذلك في نفس الوقت من شهوات غيره أن تمتد إليه بالإيذاء. بل يحميه من شهوات نفسه أن تقوده إلى الدمار والفناء.

حين يحس بهذا لا تضطغن نفسه على هذه القوانين، ولا يتمنى زوالها، ولا يعمل على الانتقاض عليها (إلا في الحالات الشاذة دون شك، وسنتكلم عن هذا بالتفصيل في فصل الجريمة والعقاب) ولا تكون العلاقة بينه وبين المجتمع هي علاقة الكراهية العنيفة التي يصورها فرويد وغيره من علماء النفس التحليليين، لأن المجتمع في هذه الحال لن يكون الغول المفترس الذي يتربص بالفرد ليسحقه ويحطم كيانه، وإنما هو الصديق الحازم الذي يحجز بين الأفراد المتخاصمين، ويصلح بينهم، ثم يدعوهم إلى التعاون فيما بينهم بدون احتكاك.

والمزية الأخرى أن القوانين الأرضية لم تنج إلى هذه اللحظة من أن تكون تغليباً لمصلحة طبقة على طبقة، أو فرد على أفراد. تستوي في ذلك كل النظم المعروفة على ظهر الأرض. ويكفي أن نستمع لطعن الشيوعيين في النظام الرأسمالي، وطعن الرأسماليين في النظام الشيوعي، وطعن الديمقراطيات في النظام الدكتاتوري، والدكتاتوريات في النظام الديمقراطي.. لنعرف أن كل نظام من هؤلاء قد راعى فرداً أو طائفة على حساب بقية الأفراد والطوائف، وأن الذي يَغْلِبُ على أمره في هذه الدول والشعوب يصوغ القوانين لصالحه هو، لينال أكبر قسط من الحرية والاستمتاع على حساب الآخرين.

والأسماء الطنانة كالحرية والإخاء والمساواة، أو الخبز والعمل للجميع، أو الجميع أمام القانون سواء.. الخ، لا تستطيع أن تخفي الحقيقة، وهي أن القوانين تطبق بطريقة تضمن صوالح الغالبين، ولا تعنيها كثيراً صوالح المغلوبين، حتى في أكثر الأمم عدالة وحرية. فالقانون

في انجلترا مثلاً —وهي في نظر بعض الناس مثل أعلى في الديمقراطية– يحمي مصالح النظام الرأسمالي ضد العمال، مهما يكن الصراع خفياً بين الطبقتين في الوقت الحاضر. وهو في أمريكا أوضح في ذلك وأصرح. أما روسيا فهي تصرح بأن حركتها كانت قائمة على تسويد طبقة العمال و"سحق" طبقة الملاك!

وما دام القانون ينبع من الأرض فهو دائماً عرضة لتقلبات الحال بين الغالبين والمغلوبين في الأمة الواحدة، وفي المجتمع العالمي كله. ويصدق عليه دائماً ما يقوله الغربيون "الواقعيون" ويعممونه خطأ على كل النظم بما فيها الإسلام، من أن القوانين تضعها الطبقة الأقوى لحماية مصالحها.

أما النظام الإسلامي فلم تضعه هيئة تشريعية على الأرض. وإنما هو من وحي السماء. ولا مصلحة للسماء في تغليب طبقة على طبقة ولا فرد على أفراد، لأن هؤلاء وأولئك جميعاً عباد الله، وهم سواء من حيث منشؤهم، ومن حيث مآلهم الأخير؛ من قدرة الله خلقوا، وإلى الله يعودون في النهاية فيحاسبهم جميعاً بميزان واحد، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

والشريعة الإسلامية نظام يطبق على الجميع، لصالح الجميع، ولا يجامل أحداً على حساب أحد: الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، الشريف والعبد، كلهم أمام القانون سواء.

وليس هذا كلاماً يطلق في الهواء.. وإنما هو واقع تاريخي مشهود. يقول القرآن: "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أفسد من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها". وعمر يجلد ابنه على الخمر، لا يمنعه عن ذلك أنه ولده، ولا أنه شريف من قريش...

فإذا كان هذا لم يستمر، وجاءت ظروف أفسدت تطبيقه، فكل نظام عرضة لمثل ذلك، ولا يحسب هذا على الإسلام على أية حال. فنحن هنا نتحدث عنه من حيث هو مباجئ نظرية أولاً، ثم من حيث هو مبادئ قابلة للتطبيق العملي. وفي كلتا الحالتين نجد الشواهد في صف ما نذهب إليه من أنه نظام متفرد بمزايا لا توجد مجتمعة في أي نظام آخر على ظهر الأرض. وإن ما أمكن تطبيقه في زمن أبي بكر وعمر، وعلي، وعمر بن عبد العزيز، ليصلح للتطبيق دائماً حين تتهيأ لذلك الظروف. وليس مبحثنا هنا عن الظروف السياسية التي تمكن لحكم الإسلام. وإنما نبحث في الإسلام من الوجهة النفسية. فكل ما يهمنا إذن أن هذا النظام الممتاز من الناحية النفسية يمكن تطبيقه عملياً حين يراد ذلك...

فإذا طبق، كما حدث مرة في التاريخ، وكما يمكن أن يحدث مرة أخرى، يشعر الفرد المسلم أن الشريعة المنزلة من السماء، لا تظلمه لصالح فرد آخر، ولا تحابي فرداً آخر على حسابه. ويشعر كذلك أنه ليس الحاكم فقط هو الموكل بتنفيذها —ضده هو إذا أخطأ– وإنما كل فرد مطالب بتنفيذها على الآخرين بما فيهم هذا الحاكم، كما ينفذها على نفسه سواء بسواء، تحقيقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" وقوله: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان" وقوله: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر".

عندما يثق بهذه العدالة المطلقة التي تشمل الحاكم والمحكوم وتخضعهم جميعاً لقانون واحد صادر من الله، يحب هذه الشريعة، ويدافع عنها ولا ينتقض عليها.

* * *

على أن الإسلام —مع ذلك– لا يكل للقوانين وحدها أمر تنظيم المجتمع.

إن القوانين تكفل الحد الأدنى من التنظيم، الذي تصبح الحياة بدونه مستحيلة، أو تصبح فوضى لا قرار لها ولا كيان.

والحياة في نظر الإسلام لا ينبغي أن تقف عند هذا الحد الأدنى. ففي البشرية رغبة دائمة في التطور والتقدم، في اقتحام ميادين جديدة من المعرفة، والوصول إلى مدارج جديدة من السمو والارتفاع. ولا يتحقق للبشرية أن تتقدم وترتفع إذا هي ظلت عند الحد الأدنى لا تتعداه.

وكما أن الإسلام قد راعى الفطرة الإنسانية فلم يكبت نوازع الجسد وشهواته، ولم يحرم على الإنسان أن يحس بتلك النوازع ويسايرها بعض المسايرة..

فهو كذلك يراعي الفطرة الإنسانية ورغبتها الدائمة في النهوض والارتفاع، فيهيء لها ما يعاونها على ذلك الهدف النبيل، وبذلك يحقق للإنسان شطري حياته، ويوازن بينهما، بل يمزج بينهما حتى ليصبحان أمراً واحداً في النهاية، يتحقق به هذا الهدف وذاك.

والمثال دائماً أوضح...

حين تستولي على الإنسان شهوة الطعام والشراب، فيسرف فيهما ولا يقف عند الحد المعقول، يعود عليه ذلك بالضرر، فلا يتحقق هدف الحياة الأول من حفظ الحياة في كيان

هذا الفرد، لأن الإسراف يعطب أعضاءه، ويبدد نشاطه، ويضيع عليه في ذات الوقت كل فرصة للسمو والارتفاع –وهو هدف من أهداف الحياة الأصيلة– لأن كل تفكيره ومشاعره تنحصر في هذا الميدان المغلق الحقير.

وذلك كله يحدث لأن الفرد قد نسي أهداف حياته، أو اعتقد أن لذة الطعام هدف في ذاتها، وليست وسيلة لغاية أخرى أنبل وأرفع.

لذلك يتعين على كل نظام صحيح أن يعيد تذكير هذا الفرد المنحرف بتلك الأهداف العليا، فيذكره بأنه يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل!

فإذا صنع ذلك حقق هدفين في آن واحد: الأول أن يهيئ للجسم القدر اللازم له من الطعام –القدر الذي يحقق حفظ الذات، ويحفظها سليمة من العطب– والثاني ألا تستعبده شهوة الطعام، فيستطيع أن ينطلق في مدارج الرقي، بفكره وروحه، ويشارك بقدر ما ينطلق من نشاطه، وبحسب نوع هذا النشاط، في ترقية الإنسانية عامة، تحقيقاً لهدف الحياة من التطور المستمر.

وحين يترك الإنسان نفسه لشهوة الجنس، فتستعبده، وتشغل باله، وتنهك قواه، يكون أولاً قد أضر بنفسه، ويكون ثانياً قد قعد عن تحقيق الهدف الأسمى والأهم.

وهو يصنع ذلك لأنه نسي أن شهوة الجنس قد ركبت في جسده لهدف أكبر منه في ذاته: هو استمرار النوع على ظهر الأرض، وأن الإلحاح الذي تتصف به هذه الشهوة قد قصد به أن يفرض هذا الهدف نفسه فرضاً على حياة الفرد، حتى لا تشغله المشاغل أو الرغبات الأخرى عن تحقيق غاية لا تستمر بدونها الحياة.

فيجب إذن أن نذكر هذا الفرد المنحرف بأن لشهوة الجنس غاية هي النسل، وأنها ليست غاية في ذاتها. فإذ صنعنا ذلك حققنا هدفين في ذات الوقت: الأول أن نحتفظ بجسم هذا الفرد لأطول مدة ممكنة، سليماً قادراً على النسل، لحفظ النوع على الأرض. والآخر أن نطلق جزءاً من تلك الشحنة الضخمة، فنستغلها في تحقيق غاية الحياة الأخرى من السمو والارتفاع: شحنة جسد وفكر وروح، يكون من الخسارة ولا شك أن نبددها في ميدان ضيق صغير.

وحين ينطلق فرد مع شهوة المال أو الملك إلى آخر المدى، يعذب نفسه بظمأ لا يرتوي ولا يقنع مهما تحصل لديه من المال. وتنحسر نفسه في الوقت ذاته عن طلب الرفعة والسمو، لأن شعور ألأنانية شعور بغيض مضاد لدفعة الحياة المشرقة المتسامية.

وهو يفعل ذلك لأن شهوته تخيل له أن المال هدف في ذاته، وليس وسيلة للإنفاق؛ وللإنفاق فيما يعود بالخير على أكبر عدد من أفراد الإنسانية.

فعلى النظام الذي ينوط نفسه بإصلاح هذا الفرد المنحرف أن يذكره بتلك الأهداف العليا، فيحقق بذلك أولاً قدراً من القناعة والهدوء النفسي لهذا الفرد ذاته، ويحول نشاطه في ذات الوقت لرفعة الإنسانية كلها، تحقيقاً لنزعتها في السمو والارتفاع.

وهكذا في كل أمر من أمور الحياة.

والوسيلة التي يتبعها الإسلام في كل هذه الحالات هي إقامة الأهداف العليا أمام البشرية، وتذكير الناس بها كلما انحرفوا عنها، أو هبطت بهم شهوات الجسد عن التوجه إليها بأفكارهم وأرواحهم جميعاً.

ومهمة "الأخلاق" هي هذا التذكير الدائم بالأهداف العليا للحياة. تذكير الإنسان بأنه لا يعيش وحده في هذا الكون، وإنما يعيش معه فيه أفراد آخرون، لهم مثل ماله من الحقوق، وعليهم مثل ما عليه من الواجبات. وتذكيره بأن شهوات جسده وسيلة لغايات أخرى هي حفظ الذات وحفظ النوع، فينبغي دائماً أن نعمل على تحقيق تلك الغايات. وتذكيره أخيراً بأن الانسياق مع الشهوات يغشى روحه بظلام يتراكم بعضه على بعض، حتى يخفي الجانب المشرق من الفطرة الإنسانية، ذلك الجانب الذي ينزع بطبعه إلى التطور والارتفاع، فينبغي أن يجلو هذا الظلام لتتكشف له طبيعته على حقيقتها، ويؤمن بعظمته القادرة على ما يشبه المعجزات، حين يوجه نشاطه التوجيه الصحيح.

والإسلام يهتم اهتماماً بالغاً بالأخلاق، لأنها هي مناط "النظافة" الداخلية، وهي القديرة على توجيه الإنسان إلى ما يصلح به حاله فرداً وعضواً في جماعة، بطريقة ذاتية تشبه أن تكون لا شعورية، وإن كانت دائماً "تحت طلب" القوة الواعية في الإنسان، إذا اقتضى الأمر أن يناقشها بوعيه، ويتعرف على حكمتها.

وهو يعنى ببذر بذور الأخلاق في نفس الطفل وهو وليد، لأن ذلك أحرى أن يجعلها مكينة الأساس قوية البنيان. ثم يكل إليها بعد ذلك التنظيم الحقيقي لنشاط الفرد في المجتمع،

ولا يعتمد على القوانين إلا في الحالات التي تخفق فيها الأخلاق عن أداء مهمتها، والتي تهبط فيها فطرة الفرد رغم كل التوجيه والتهذيب.

وقد قيل كلام كثير ضد الأخلاق.

قيل إنها لا تتمشى مع الطبيعة البشرية، وإنها مفروضة عليها فرضاً من قوة خارجية مسيطرة ذات سلطان. وقيل: إنها كوابت تمنع النشاط الإنساني من الانطلاق، وتمنع الفرد من التمتع بحريته، فضلاً عما تصيبه به من الضرر الذي يتمثل في الأمراض النفسية والاضطرابات العصبية. وقيل: إنها بقايا من العهود الغابرة! وإنها كانت شديدة قاسية لدى المتوحشين، نابعة من عنف مشاعر أولئك المتوحشين وشدة رغبتهم في الشر (!) وإنه كلما تقدمت الإنسانية في سبيل التطور خفت قيود تلك الأخلاق وانحلت عقدها؛ ويستتبع إيحاء تلك النظرية أن تنزع الإنسانية عنها ما بقي في عنقها من نير تلك الأخلاق، لتتحرر نهائياً من عقابيل "الوحشية" الغابرة! ولتصير متحضرة!

وليس هذا تجنياً منا على السادة "العلماء" الذين يقولون ذلك. فهذا فرويد يقول بصراحة في كتابه "The ego and the id" ص٨٠: "إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجته الطبيعية العادية"! وذلك بعد أن يقرر أن الاضطرابات النفسية والعصبية تنشأ من تناول جرعة كبيرة من هذه المادة السامة الخطرة التي تسمى الأخلاق! ويقول في كتاب "Three Contributions to the Sexual Theory" ص٦٢: "وهكذا يحصل الإنسان على قوة "نفسية" كبيرة من استعداد نفسي هو في ذاته خطير"! وكتابه "Totem and Taboo" كله تشنيع على الأخلاق في منشئها الأول، وتصوير لها بأنها نابعة من "أقذر" المشاعر البشرية وأشدها ميلاً إلى العدوان. وإن كان — والحق يقال– لا يشاركنا النظر إلى تلك المشاعر على أنها قذرة أو شريرة، فإنها الطبيعة البشرية هكذا؛ ولا يجوز أن ينظر إليها على أنها —في ذاته– خيرة أو شريرة. لأن الإنسان غير أخلاقي بطبعه!

وليس فرويد وحده هو الذي يقول ذلك، فكثير غيره من علماء النفس والاجتماع الغربيين يقولون هذا السخف على أنه وقائع مقررة، ولا يستحون من أنفسهم وهم يهدرون كرامة الإنسان ويهبطون به إلى الدرك الحيواني الأسفل.

وأولئك الذين يؤمنون بهذه الآراء —متأثرين بطبيعتهم المادية وبيئتهم الهابطة– يسوء ظنهم بالإنسانية إلى حد أنهم يستكثرون عليها شعوراً واحداً نظيفاً، أو رغبة واحدة في التطهر والارتفاع. ولكنهم مخطئون في بديهية لا يتطلب فهمها ولا تصديقها شيئاً من إعمال

الفكر: فلولا أن الطبيعة البشرية في ذاتها قابلة للتهذيب لما أمكن تهذيبها، مهما كانت المحاولة المبذولة لذلك، ومهما كان عنف "السلطان" الذي يفرض هذا التهذيب.

بل إن بعض أنواع الحيوان ليمكن تهذيبه إلى حد يذهب بوحشيته الأصيلة، أو بكثير منها على الأقل. فكيف إذن ينكر المنكرون على الإنسان، وهو أرقى مخلوق على الأرض باعتراف الجميع، أن تتهذب طباعه، ويسمو إلى "الغيرية" وإلى "الإنسانية"؟

ولا عبرة بما يقوله فرويد من أن الأخلاق لا يمكن إلا أن تكون كبتاً لا شعورياً للنشاط الحيوي للإنسان؛ فإذا كان هذا يصدق على الهمج، وعلى الشواذ الذين قضى حياته معهم، أو على المجتمع المسيحي الأوربي الذي كان موكلاً بالتشنيع عليه لأي سبب من الأسباب، فليس الحال كذلك في الإسلام.

وقد بينا فيما سبق أن الإسلام يعترف من حيث المبدأ بحق الفرد في أن يشعر بشهواته. فهو منذ البدء لا يلجأ إلى الكبت البغيض. وإنما وسيلته لتقييد الاندفاع مع الشهوات عملية نفسية أخرى، قد تشترك مع الكبت في بعض مظاهرها، ولكنها في الواقع أبعد ما تكون عنه في طريقتها وأهدافها.

يلجأ الإسلام دائماً إلى عملية "الضبط" يكل إليها أن تحد من تيار الشهوة، وتقف بها عند الحد الذي يمنع الضرر عن كيان الفرد ذاته، وعن كيانه كعضو في المجتمع الإنساني في نفس الوقت. والفارق الأساسي الهائل بين الكبت والضبط أن الأول عملية لا شعورية ضارة خطيرة، أما الثاني فعملية واعية، موطنها الشعور، أو هي على الأقل تحت تصرف القوة الواعية في كل وقت. عملية الضبط لا تتعرض للشهوة في منبتها، وقبل أن تظهر في الشعور كما يصنع الكبت. لأن ذلك يحبس النشاط الحيوي عن منطلقه الطبيعي، ويضيع الجهد المذخور، المطلوب لذاته، لتحقيق بعض أهداف الحياة الأصيلة. وهي أهداف يحرص الإسلام على تحقيقها وعدم التعرض لها.

وإنما يتولى "الضبط" عمله بعد أن تخرج الشهوة من ظلمات اللاشعور إلى وضح الشعور. وتكون مهمته أن ينظم مساربها وينظفها ويتحكم في القدر الذي يُصَرّح به منها، واللحظة المناسبة "للتفريغ". بحيث يوازن بين المطالب المختلفة للفرد، أولاً بوصفه شخصية مستقلة، فيمنعه من الإسراف المضر، وكذلك بوصفه عضواً في الجماعة، فلا يصرح له بإيذاء غيره، حرصاً على المصلحة العامة التي تعود آخر الأمر على هذا الفرد ذاته بالخير العميم.

هذا الضبط الواعي، المنظم المتحكم، هو الرقيب اليقظ الذي يحاسب النفس على أعمالها ويوجهها إلى طريق الصلاح، أو إلى الصراط المستقيم كما يعبر القرآن. وكلما زادت درجة التهذيب زادت يقظة هذا الرقيب، وزاد إشرافه على ما يأتيه الإنسان من أعمال، بحيث لا يفر عمل واحد من رقابته، ولا يخرج إلى الوجود دون تصريح منه... ولكنه دائماً في وعيه، يحاسب النفس حسب لوائح معروفة، وأسبابها كذلك معروفة، فهي ليست طلاسم وألغازاً، وليست قرارات تحكمية قصد بها أن ترضي نزعة السلطان! وإنما هي دستور موضوع بحكمة وتدبير. وقد يقال: إنه ليس لفرد أن يناقش هذا الدستور، لأنه منزل من عند الله سبحانه، فلا يجوز التعرض لأحكامه ولا يحل تغييرها على أي حال. ولكن مزية الإسلام في هذا الموضع بالذات، لأنه لم يفرض شيئاً من الحدود لمجرد شهوة الفرض. وإنما وضع حكمته من كل فرض يفرضه. وليس في وسع النظرة الموضوعية التي لا تتأثر بعاطفة ولا عقيدة، أن تنكر أن هذه التشريعات والحدود قد قصد بها مصلحة الإنسانية لا ضررها. فإذا كان الرقيب يحاسب النفس بموجب هذا الدستور المنزل، فإنما عن اقتناع شعوري واع بمعقوليته ومشروعيته[1].

وليس معنى هذا –من الوجهة النفسية أن الكبت ينتفي تماماً من النفس البشرية، فقد يكون هذا مستحيلاً، وقد يكون بعض الكبت خيراً. وفرويد ذاته يقرر أن قدراً معيناً من الكبن ينشأ بطريقة ذاتية ولا ضرر فيه. ولولا وجود الكبت لظل الإنسان في عذاب دائم من رغبات لا يمكن تحقيقها أصلاً، لا لأن المجتمع أو الدين أو الأخلاق تحول دونها، ولكن لأن الطاقة البشرية تقف دونها عاجزة، كالرغبة في الطيران في الجو كالطيور، والرغبة في السيطرة المطلقة على قوى الطبيعة! ورغبة بعض الأطفال في الحصول على القمر! ولعل كبت هذه

([1]) ينبغي أن نضيف هنا إلى ما سبق كتابته في الطبعات السابقة أن بعض التشريعات لا تذكر حكمتها في القرآن والسنة، أو يذكر في بيانها أنها فرضت "لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ" أو "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ". وأن طاعة الله واجبة دائماً سواء عرف الإنسان حكمة الأمر الرباني أو لم يعرفه. ولكن ينبغي هنا أن نجعل بالنا إلى أمرين: الأول أنه –مع وجوب الطاعة– فلا حظر على التفكير لمحاولة معرفة الحكمة من الأوامر الربانية، بل الاجتهاد في هذا مستحب. والثاني أن الإنسان المؤمن حين يطيع ربه فيما يتعبده به يحس أنه يطيع رباً كريماً يريد بالإنسان اليسر ولا يريد به العسر، ويحب له الخير، ولا يحب له الأذى في الدنيا ولا الآخرة: "مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ" [سورة النساء: ١٤٧] فيطيع عن رضا؛ ويطيع طمعاً في ثواب الله في الدنيا والآخرة: "فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ" [سورة آل عمران: ١٤٨].

الرغبات المستحيلة هو الذي يوجه النشاط العملي لمحاولة تحقيقها من طريق آخر، ويوجه الفن لتحقيقها في الخيال!

أجل ليس معنى هذا أن ينتفي الكبت على إطلاقه. وإنما معناه أن الرقيب يظل بيقظته الدائمة يعمل على إخراج "الممنوعات" من اللاشعور إلى دائرة الشعور، ومناقشتها وبيان أسبابها، وبذلك ينتفي الأثر الضار للكبت، وتضيق دائرته إلى أبعد الحدود.

وقد يقال: إن تربية الطفل تستلزم توجيه الأوامر والنواهي إليه باستمرار، دون أن يستطيع في طفولته إدراك الحكمة من هذا التوجيه، فلا مناص إذن من أن تهبط هذه التوجيهات إلى اللاشعور.

وإطلاق القول على هذه الصورة غير صحيح، فالثابت من مشاهدات علم النفس أن الطفل على قدر من الوعي أعظم بكثير مما يظن أغلب الناس. وأن في إمكان المرابي –بحذقه ومهارته– أن يبين للطفل الحكمة في منعه من إتيان عمل من الأعمال بطريقة لا يتعذر فهمها على مداركه. وقد وصلت الطريقة الأمريكية في تربية الأطفال إلى درجة معجبة في هذا السبيل، تشهد بأن ذلك في الإمكان. وعلى أي حال، فإذا كان من المتعذر أن تكون كل الموانع واعية في زمن الطفولة، فالفرصة موجودة دائماً لرفعها إلى عالم الشعور الواعي فيما بعد، حين تنضج أفكار الطفل إلى حد يسمح لها بالاستيعاب. فإذا فرضنا جدلاً أن بعض الأطفال قد أصيبوا بشيء من الكبت المبكر، فإن الوعي الذي يبثه الإسلام في نفس المؤمن كفيل بإزالة أي أثر للكبت.

* * *

هذا الضبط الواعي إذن يختلف في طبيعته اختلافاً أساسياً عن الكبت اللاشعوري، وينجو من أضراره جميعاً لأنه يعترف بحق الشهوة في أن توجد، ولكنه "يعلق" تنفيذها العملي إلى اللحظة المناسبة. ولعل خير مثال له في الإسلام هو الصيام. فالصائم لا يحرم على نفسه الطعام والشراب من حيث المبدأ، وإنما هو "يعلق" أو يؤجل تنفيذ حقه فيهما إلى لحظة معينة. وكأنما يقوم بينه وبين نفسه هذا الحديث: "إنني ممتنع عن الطعام والشراب، ولكن هذا الامتناع ليس أبدياً، إنه موقوت بساعات، وبعدها أستمتع بكل ما هو محرم عليّ الآن. وقد امتنعت على وعي مني ومعرفة. إجابة لأمر صادر إليّ من أعلى. ولكني مقدر حكمة هذا الأمر وفائدته. وإن أحداً لا يمنعني لو أردت أن آكل أو أشرب. ولكني أنا أمنع نفسي، لأني أشعر بذلك أنني تفوقت على نفسي، فأفرح بهذه المقدرة وأكبر في نظر نفسي!".

ومثل هذا الحديث الذي ليس خيالاً كله، هو الذي يدفع الأطفال إلى التشبث بالصيام دون أن يكلفهم به أحد، وهو الذي يجعل عدد الصائمين —حتى في وقت الانحلال الديني— أكبر من عدد المصلين. على عكس ما كان ينتظر، نظراً لمشقة الصوم وسهولة الصلاة بالنسبة إليه. ويرجع ذلك إلى أن مغالبة النفس أوضح في الصوم منها في الصلاة. وهي —كما يشهد الواقع— عملية محببة حين يوجه إليها الإنسان.

وأحب أن أكون صريحاً صراحة الإسلام في معالجة النفس الإنسانية، فلا أزعم أن عملية الضبط تكون دائماً سهلة ميسرة؛ فما من شك أنها تكون أحياناً غاية في المشقة، وخاصة حين يطلب من الإنسان أن يتجرد من متاع الحياة الدنيا، لكي يجاهد في سبيل الله.

ولكني أذكر في ذلك حقيقتين هامتين: الأولى أن الضبط رياضة نفسية تشبه في كثير من وجوهها الرياضة البدنية، فكلتاهما قد تشق في بادئ الأمر، ولكن التعود عليها يقلل من مشقتها إلى حد كبير. وكلما بدأ الإنسان بها في وقت مبكر، كان أقدر على احتمال تكاليفها، وأحرى أن يصل فيها إلى درجة من التمكن والإبداع.

ولهذا يحرص الإسلام حرصاً شديداً على أن يبدأ التوجيه السليم من أول سنوات الطفولة، فيعوّد الطفل على ضبط رغباته —لا كبتها— منذ نعومة أظفاره.

والحقيقة الثانية أن تربية الإرادة بهذه الصورة عملية لا تخلو من لذة. وقد نصدّق هنا فرويد حين يقول: إن في النفس البشرية رغبة في تحمل الألم والالتذاذ به[1]. فليس الألم الذي يحدثه الضبط أحياناً غريباً على البشرية أو خارجاً عن طاقتها، وإنما هو على العكس من ذلك أمر مرغوب فيه.

* * *

والإرادة في الإسلام هي الفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان. وهي مناط المسئولية ومحور الارتكاز في النظام الإسلامي كله.

الحيوان فقط هو الذي لا يضبط نوازعه، ولا يملك أن يضبطها إلا قسراً. أما الإنسان —وتلك مزيته التي كرمه الله بها— فقادر على ضبط نفسه عن طريق الإرادة المتحكمة في مشاعره وأعماله. وهو ليس بإنسان إن لم يعمل على ضبط نوازعه وتنظيم شهواته.

---

(1) قلنا من قبل: إن معارضتنا للأسس العامة لنظريات فرويد لا تنفي أن بعض آرائه صحيح.

وهذه النظرة من جانب الإسلام ليست تحكماً، ولا تكليفاً للبشر بما ليس في طاقتهم.

فمن المستحيل عملياً أن ترتقي الإنسانية وتحقق أهدافها العليا، إذا هي ظلت مستعبدة لشهواتها، كلما دعتها استجابت لها واندفعت معها إلى آخر الطريق.

مستحيل أولاً من جهة الطاقة البشرية وهي محدودة على أي حال، فإذا أنفقت كلها في إرضاء رغبات الجسد –كما يصنع الحيوان– لم يبق فيها ما يتوجه به الإنسان إلى أعمال أخرى فكرية أو نفسية عالية. وقد يخلب البريق الغربي ألباب المستعبدين هنا، فيقولون: انظروا، هذه هي أمريكا قد انطلقت من عقالها، فأباحت لبنيها وبناتها في كل وقت وكل مكان، أن ينزو بعضهم على بعض، وأن يفرغوا شحنتهم الجنسية بلا قيود، ومع ذلك فهم من أكثر الأمم إنتاجاً وأقدرهم على العمل المتواصل.

وهذا حق، ولكنه ليس الحق كله.

فيجب أولاً أن نجعل في حسابنا أن أمريكا أمة فتية غنية، وأن طاقتها المذخورة لم تنفق بعد: طاقتها الاقتصادية والمادية والنفسية على السواء. فهي إذن أقدر من غيرها على احتمال هذا التيار الجارف من الانحلال، كما يكون الشاب الفتي أقدر من احتمال الأمراض المختلفة، دون أن يبدو من الظاهر أنها قد أثرت في بنيته. ولكن هذا وهم. لأن كل نوبة من نوبات المرض تترك آثارها في جسمه لا محالة، فتعجل بشيخوخته وتعصف به قبل الأوان. فإذا أصرت أمريكا على ما هي ماضية فيه من الانحلال الخلقي، ولم تأخذ بحجز أبنائها وبناتها أن يتهاووا إلى حمأة الرذيلة، فليس لها إلا مصير واحد، هو مصير فرنسا حين نخر فيها الانحلال فهوت راكعة ذليلة؛ وهو مصير كل أمة في التاريخ أطلقت لنفسها عنان الشهوات، كما سنعت الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية من قبل، فاستطاع الإسلام الفتي أن يزلزل كيانهما في فترة قصيرة كأنها البرق اللامح؛ وكما صنع العالم الإسلام حين أُترف واجتاحته الشهوات، فتهاوى أمام قوة الفاتحين.

هذه واحدة.. والثانية أنه إذا كان في إمكان الشعب الأميكي ذي الطاقة المذخورة، أن يغرق اليوم في الشهوات ثم يقدر على العمل الآلي البحت، فإنه لم يظهر مقدرته على الارتفاع النفسي، وهذه حضارته حضارة مادية هابطة، ليس فيها مكان للمشاعر الإنسانية ولا المثل الخلقية. وهذا يجرفها في تيار الصراع المادي الذي يؤدي إلى الحرب وإلى الخراب..

والثالثة أن "المفكرين" هناك لا يغرقون في تيار الشهوات كأفراد، بل هم أشخاص معتدلون في حياتهم الخاصة. ثم هم لا يوافقون الشعب على انحلاله الخلقي، بل يصرخون في وجهه محذرين: أن هذا خطر محقق يجب أن يرتدعوا عنه.

فمن المستحيل إذن –من جهة الطاقة المحدودة– أن تنفق في شهوات الجسد، ثم تبقى في الإنسان قدرة على التسامي والارتفاع.

ومن جهة أخرى فإن الحياة عادة... فإذا تعود الإنسان أن يكون دائماً عبداً لشهواته الهابطة، فلن يجد دافعاً للارتفاع عن مستوى الجسد، حتى لو وجد الطاقة اللازمة لذلك. خاصة وأن التلبية المستمرة لداعي الشهوة من شأنها أن تعوّد الإنسان على لون من الترف النفسي المترهل، يصبح معه كارهاً لتكاليف الارتفاع. كما يكره الجسم المترف الكسول دواعي النشاط والحركة، لا لأنها في ذاتها مؤذية لكيانه –فهي على العكس لازمة له– ولكن لأنه أصبح عاجزاً عن احتمالها.

وما دمنا متفقين على أن التسامي والارتفاع من أهداف الإنسانية فيجب إذن أن نتقبل الأداة التي لا يمكن أن يتحقق بدونها الارتفاع، وهي الإرادة القادرة على ضبط الشهوات.

ومن هنا لا يكون الإسلام متجنياً على البشرية حين يجعل الإرادة هي الفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان، وحين يرفض الاعتراف بإنسانية أحد أو قوم إذا هم فقدوا إرادتهم، واستحبوا الانطلاق كالحيوان، أو "استحبوا العمى على الهدى" كما يعبر القرآن.

والقرآن يصفهم بأنهم "شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ" وأنهم "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ" ويعتبر الذين نقضوا ميثاقهم، استجابة لشهواتهم، واستحباباً أن ينطلقوا معها على أن يضبطوها ويلزموها حدودها، حيوانات غير جديرة بصفة الإنسانية فيقول: "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ[1] مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ" أي حيوانات. لأنهم قد انتكسوا إلى المرتبة الحيوانية حين لم يُعملوا إرادتهم، وهي الفارق بين الإنسان والحيوان.

والإسلام لا يعترف بالجبرية النفسية التي أوحى بها فرويد ومن تبعه من علماء النفس التحليليين والتجريبيين. فهو أولاً لا يأخذ الإنسان تفاريق كما يصنع علماء المعمل التجريبي،

([1]) لم يكن هناك "اعتداء" بالمعنى المعروف، وإنما كان هناك انسياق وراء شهوة من شهوات الأرض، وقد اعتبرها القرآن اعتداء لأن فيها نقضاً للميثاق من جهة، وهبوطاً بالكيان الإنساني عما ينبغي له من النظافة من جهة أخرى.

ولا يبالغ في تقدير أهمية جانب من النفس الإنسانية على حساب الجوانب الأخرى، كما يصنع التحليليون الذين يهبطون –بطبيعة منهجهم العلمي– من الذروة العليا للإنسان، إلى بذوره الدفينة في الأرض، فينسون ما مروا به في الطريق من ضوابط ومنظمات، ويذكرون فقط تلك الطاقة الديناميكية المحركة في قرار النفس، طاقة الجسد وشحنة الشهوات.

ينظر الإسلام للإنسان نظرة واسعة عميقة، تشمل الطاقة المحركة "والفرامل[1]" الضابطة في آن واحد، فيكون أعدل ممن يقف عند المحرك لا يهمه سوى إطلاق شحنته (كما يفعل فرويد)، أو يقف عند "الفرامل" لا يهمه إلا استخدامها خشية أن تؤدي الحركة إلى خطر الاندفاع (كما تفعل كل العقائد المتزمتة)!

بهذه النظرة الشاملة العادلة يوازن بين جوانب الإنسان المختلفة، ويضع كلاً منها في موضعه الصحيح. ويقيم الإرادة مشرفة على تنظيم الشهوة، متحكمة في انطلاقها، دون أن يكلفها وقف الجهاز الإنساني عن العمل، أو كبته حتى تنفجر شحنته الخطيرة.

وحين يقيم الإرادة ويكل إليها هذا التنظيم يجعلها مناط "المسئولية" الجنائية والخلقية، لا في الحياة الدنيا فحسب، بل في الآخرة كذلك. فيقول القرآن: "بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ". ويقول عن النفس الإنسانية: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا". وعلى هذا لا يكون الحساب ظلماً ولا تكليفاً غير مشروع.

* * *

ومع الإرادة الضابطة ينشأ الضمير...

وهو ليس ضميراً نفعياً كالذات العليا التي رسمها فرويد، مهمتها "حماية" الذات من ضغط المجتمع الخارجي، بإجبارها على الخضوع لأحكامه التي تتمثل أولاً في الوالد، ثم في الإله.. الخ.

وليس صادراً من الكراهية الطاغية التي تجتاح النفس البشرية تجاه كل شخص آخر حتى من تحبهم وتقربهم (!)، حتى إذا كادت تخرج من ظلام اللاشعور اصطدمت بأن ظهورها أمر لا يجوز أن يحدث (لم يقل فرويد لأي شيء أحس الإنسان الأول بأن عمله هذا لا يجوز.

([1]) الفرامل: كلمة افرنجية دخلت إلى اللغة العامية، ولكني أرى أن استخدامها في العربية لا غبار عليه، فهي تقبل جميع الصيغ العربية في الاشتقاق فعلاً ومصدراً واسماً.

وتهرب بذلك من الاعتراف بالبذرة الحقيقية للنمو الخلقي للإنسانية (فإذا اصطدمت بهذا المنع، انقلبت فصارت حباً أو تظاهراً بالحب للغير، وللخير!!

وإنما هو ضمير خلقي واع يتفاهم مع النفس ويحاول تذكيرها دائماً بأهداف الحياة العليا، وبأن الإنسان لا ينبغي أن يعيش لنفسه فقط، ولا ينبغي أن يستعبد لشهواته كالحيوان. فإذا كان الضمير يمسك أحياناً بالعصا، ويهم بالضرب، أو يضرب فعلاً، فليس في ذلك من ضير ما دام ذلك كله في محيط الشعور، وما دام الضمير -في الإسلام- لا يوكل بكبت المشاعر الشهوية، بل بضبطها وتنظيمها بعد أن تظهر في عالم الشعور.

بل لا ضير في ذلك كله ما دامت الموانع والمحرمات في الإسلام واضحة واعية مفهومة الهدف معقولة الغاية، وما دامت عملية المنع والتحريم لا تتعرض في أية لحظة لمنبت الشهوة، بل لطريقة التنفيذ.

ويهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بتربية هذا الضمير منذ الطفولة، ويدع له تهذيب النفس والارتفاع بمشاعرها على أساس الغيرية؛ على أساس أن يقيم الإنسان من نفسه رقيباً على أعماله يزجره عن إيذاء غيره، أو الاعتداء على حق من حقوقه ولو كان لا يحبه! "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" ويذهب في هذا إلى تحريم الاعتداء بالقول -لا بالفعل- سواء كان مواجهة أو في الغيبة. يقول "وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ" و"لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ" هذا في المواجهة. أما في الغيبة فيقول: "وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ". وكذلك يمنع التجسس للغرض ذاته.

ويدعو إلى أن تقوم العلاقات بين الناس على أساس الحب والتعاون: "أحِبَّ لأخيك ما تحب لنفسك". "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً". "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى". "الناس بخير ما تعاونوا"... الخ. وذلك كله على أساس وحدة الإنسانية، واشتراك الناس جميعاً فيها بنسبة واحدة "الناس سواسية كأسنان المشط" فلا يجوز إذن أن يكون لفرد أياً كان حق الاعتداء على فرد آخر أياً كان. وعلى أساس أن الحب والتعاون هو الطريق الوحيد لتحقيق أهداف الحياة العليا، التي تنبت من نفس الفرد ذاته حين تهيأ لها أسباب النماء.

ويكل الإسلام إلى الضمير بعد تربيته وتهذيبه تنفيذ الشرائع والتوجيهات جميعاً، ولا يكل ذلك إلى القانون (إلا في الحالات الشاذة) لأن القانون يمنع من الخارج. ولكن دراية

الإسلام بالنفس الإنسانية تجعله يدرك أن الامتناع من الداخل بتأثير الوازع الخلقي والديني، أكثر ضماناً وأبلغ في الوصول إلى الغاية، لأن هذا الوازع اليقظ موجود مع الإنسان في أعماق نفسه، ومطلع على دقائقه وخفاياه. أما القانون في الخارج فأدواته محدودة وعلمه كذلك محدود.

وليس معنى ذلك كله أنني أزعم بأن الناس في ظل الإسلام يصبحون جميعاً ملائكة مطهرين! كلا ولكني لا أحلق في الخيال، ولا أجانب الواقع الذي يشهد به التاريخ، حين أقول: إنهم يصبحون في ظل الإسلام الحق، أنظف مما يستطيعون أن يصلوا إليه في ظل أي نظام على وجه الأرض. ولدينا مئات من الأمثلة على هذا الواقع المشهود لا نستطيع أن نثبتها كلها في هذا الكتاب، فهي تملأ بطون كتب التاريخ، سواء منها ما كتبه المسلمون عن أنفسهم، وما أقرت به كتب الأوربيين من أعداء الإسلام، والحق ما شهدت به الأعداء.

ولكنا سنجتزئ ببعض منها في نهاية هذا الفصل، اخترناه من بينها ليدل على معنى نفسي خاص.

* * *

والإسلام لا يدع الناس وحدهم في صراعهم الشاق مع شهواتهم، بل يقدم لهم العون العملي، والنفسي والروحي، ليساعدهم على الوصول إلى الهدف المنشود.

فمن الوجهة العملية هو يَشْغَلُهم بالعمل والجهاد. والمشغلة هي الطريقة العملية لصرف الناس ما أمكن عن هواتف الشهوات. وذلك من جهتين: الأولى أنها تستنفد جزءاً كبيراً من الطاقة الحيوية المذخورة فتقلل من ضغطها على الأعصاب. ولفرويد في هذا الأمر نظرة صائبة إذ يقول في كتابه "The ego and the id" إن الطاقة الشهوية تبدو فيها ظاهرة عجيبة، فكأنها متصلة في المنبع بعضها ببعض كالأواني المستطرقة، أو كأنها صادرة كلها من منبع واحد، فأي تنفيس عن شيء منها ينفس عن الباقي جميعاً. وهذا صحيح. والإسلام يتنفد أغلب الطاقة في العمل والجهاد من أجل إعلاء كلمة الله.

والوجهة الأخرى أن الحياة عادة كما أسلفنا، فإذا تعوّد الفرد أن ينشغل عن داعي شهواته فترات طويلة، قلّ اندفاعه في تيارها دون أن يشعر بكبت ولا حرمان. وإن كان الإسلام لا يصل في ذلك إلى الحد الذي يقتل النوازع الفطرية أو يصرف الإنسان عنها نهائياً، لأن ذلك يخل بنظريته العامة في التوازن. ومن أجل هذا حرمت الرهبانية في الإسلام.

والعمل ميدانه واسع ومجاله فسيح، وهو يشمل تعمير الأرض من كل وجهة يمكن فيها التعمير. والإسلام يدعو إلى ذلك دعوة صريحة، ويفضل العاملين على القاعدين ولو كانوا من المتعبدين! وكل عمل يتوجه به الإنسان إلى ربه فهو عبادة يثاب عليها الإنسان.

والجهاد أنواع: جهاد أعداء الإسلام في الخارج: "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ". وجهاد الباغين في الداخل: "وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ". وجهاد الظالمين: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده؛ فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان".

كل ذلك هو الجهاد الأصغر كما جاء في القول: "عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر". أما ذلك الجهاد الأكبر فهو جهاد النفس، وهو أشق مؤنة وأطول مدى وأبعد أثراً.

وبجانب هذه المشغلة العملية يضع الإسلام العبادات. والعبادات ليست مقصودة لذاتها في الإسلام. صحيح أن الله يقول: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ". ولكن الله غني عن عبادة العابدين وتسبيح المسبحين: "وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ". فهو لا يفرض عليهم العبادة لأنه هو في حاجة إليها سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً... وإنما يفرضها لأنها تعينهم على الخير، وعلى تحقيق أهداف الإنسانية العليا، حين تطهر أرواحهم وتصل قلوبهم بالله.

"إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ" فهي وسيلة إذن لهدف آخر، هو تطهير النفس من الفحشاء، أو معاونتها على التطهر، بالتذكير الدائم بصلة المخلوق بخالقه.

والصوم تجنيد للنفس، أو تمرين على الإرادة الضابطة التي يتوسل بها الإنسان لضبط شهواته والتحكم فيها: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ".

والزكاة ضبط لشهوة المال، وتطهير من رذيلة الشح، وتوسيع لأفق المشاعر عن الدائرة الذاتية الضيقة، إلى الإنسانية في ميدانها الواسع الفسيح: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا".

والحج —من استطاع إليه سبيلاً– له أثره الساحر في تطهير النفس وتقريبها من المثل العليا؛ وأن المثول بين يدي الله في بيته المكرم، والحياة فترة من الوقت في ظلال الرسول

الكريم صلى الله عليه وسلم، قريباً من إشعاعه قرباً مادياً معنوياً، كل ذلك ينسرب في النفس، فيصل إلى أعماقها ما لا يستطيع شيئاً آخر أن يصل إليه.

فالعبادات كلها إذن، وسيلة لا غاية. وسيلة لمعاونة الفرد في ضعفه، لكي يرتفع إلى حيث ينبغي أن يكون.

* * *

حين يصنع الإسلام ذلك: فيعترف أولاً بالواقع البشري كما هو في حقيقته، ولا يقسره على ما تأباه طباعه، ثم يضع له الحدود التي تمنع عنه الضرر فرداً مستقلاً في ذاته، وفرداً مشتركاً مع غيره في المجتمع، ويقيم في داخل نفسه إرادة واعية، يكل إليها ضبط الشهوات وتنظيم منصرفاتها، وينشأ مع هذه الإرادة ضميراً حياً يلتزم بمكارم الأخلاق، ويرتفع بالنفس عن مهاوي الشر، ومهابط الحيوان، إلى آفاق مشرقة رحيبة...

عند ذلك يكون قد أعطى كل ذي حق حقه، واستجاب لكل رغبات الإنسانية، وقدم لها جميعاً ما تطلبه من غذاء: فأشبع الجسم، وأتاح للعقل أن ينشط، وقدم للروح غذاءها الروحاني من العقيدة، وما يتبعها من عبادات تقرب بين المخلوق وخالقه. كل ذلك في تناسق عجيب يجعل كلاً منها جزءاً من الآخر، متمماً له، ومساعداً عليه، فالعبادة جسداً يتحرك وروح تتسامى. والشهوة ذاتها عمل جسدي وهدف إنساني من ورائها يتحقق... ولا انفصال بين هذا وذاك. ولا تعارض بين عمل وعبادة... بل كل عمل يأتيه الإنسان ابتغاء مرضاة الله وهو مؤمن، فهو هو العبادة الحقة، لا خفض الهامات ولا عذاب العطش والجوع. " من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً". "من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة بترك طعامه وشرابه".

وعند ذلك أيضاً يكون الإسلام قد شمل كل النشاط الإنساني: شمل نوازعه الفطرية ونزعته إلى العلو والارتفاع. شمل اقتصادياته ومادياته وروحانياته. والتقى مع شيء من التفسير الجنسي للسلوك، والتفسير الجثماني للمشاعر، والتفسير المادي للتاريخ، والتفسير الاقتصادي للحياة، ووازن بينها جميعاً بحيث لا يطغى منها شيئاً عن حدها الطبيعي، ثم أضاف إلى ذلك جميعاً التفسير الروحي للسلوك والمشاعر والتاريخ والحياة، لا في النظريات فحسب، بل في واقعه العملي كذلك. ولذلك يكون أشمل نظام عرفته الأرض، وأوسع نظرة للإنسان عرفها التاريخ.

وهذا –في نظري– هو التفسير النفساني لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "الإسلام دين الفطرة". أي الدين الذي يتمشى مع مطالب الفطرة السليمة، ويعالجها بخير طريقة يمكن بها استغلال كل المواهب البشرية، وتوجيهها إلى الصراط المستقيم.

* * *

وقد حان أن نضرب الأمثلة التي توضح من دنيا الواقع ما بسطناه في النظريات. ولكن في الحديث عن الإسلام بقي ما كان هو هذا المكان.

إن الإسلام يتطلب من معتنقيه جميعاً أن يتصفوا بأخلاقه ويهتدوا بهديه، فينظفوا مشاعرهم، ويستشعروا تقوى الله في قلوبهم، ويصدروا عن هذه التقوى في أعمالهم.

ولكن الإنسانية لا تقف في ارتفاعها عند هذا الحد، وهو في ذاته مستوى عال رفيع. بل إنها لتقدر بعد ذلك على الكثير. فما يزال أمامها ميدان مشرق، يرفرف عليه النور، وتهتف به البشرى، وتحف به ملائكة الخير ترفرف بأجنحتها الشفيفة، وترتفع بأرواح المتطهرين إلى آفاق عليا، فتقرب بها من الملأ الأعلى، وترفع عنها الحجب، حتى تصل بها في لحظات الاستشفاف الصافية إلى النور العلوي المقدس، تقبس منه، فتعود أكثر استشفافاً، وأعظم رضى، وأشد رغبة في عمل الخير.

تلك هي الإنسانية في أفقها الأسمى، حيث ينسى الإنسان نفسه، ويذكر الكون الأكبر والحياة العظمى. يذكر أنه بضعة من هذا الكون العريض متناسقة متعاونة مع سائر الأجزاء، لا يتحقق وجوده الذاتي، إلا أن يهب نفسه لبقية الأجزاء عن رضى وطيب خاطر.. يذكر أن الإنسانية هي الوحدة العظمى التي تجمعه بإخوته فيها، وأن الحياة هي النهر الشامل الذي يسبحون فيه معاً ليصلوا جميعاً متعاونين متحابين، إلى الهدف الأخير، إلى الله خالق الحياة.

ذلك هو المثل الأعلى...

ولكن الوصول إليه جهد ضخم لا يتيسر لكل إنسان، بل هو رهين بمواهب خاصة واستعداد خاص، يتميز به القلة النادرة من الناس.

لذلك لا يفرض الإسلام هذا المثل الأعلى على الجميع فرضاً، بل يرسمه أمامهم، ثم يتركهم لطاقاتهم: "لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا". ويتقبل من كل ما يتقدم به على قدر جهده: "وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ" فلا يظلم أحداً، ولا يقسره على ما لا يقدر عليه.

إنه يحبب إليهم الصعود والارتفاع، ولكنه يدعهم يتطوعون بذلك، ثم يثيبهم بقدر ما تطوعوا جزاء في الآخرة. فهم بطبيعة ارتفاعهم وتطهرهم لا ينتظرون الجزاء في الحياة الدنيا، وإن كانوا ينالونه تقديراً من الناس ومحبة، كما ينالونه شعوراً بالرضى والاغتباط حين يغالبون أنفسهم فيقدرون عليها.

يبيح للناس أن يأخذوا بثأرهم، ولكنه يحبب لهم العفو: "وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى". "أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ".

يبيح لهم الملك، ولكنه يحبب إليهم الإنفاق في سبيل الله، ولو خرجوا عن مالهم كله! قال أبو ذر: "خرجت يوماً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا بأحد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: ما أحب أن لي مثل أحد أنفق منه في سبيل الله، أموت وأترك منه قيراطين!".

ويقرهم على استشعار الكراهية للقتال، ولكنه يحبب إليهم الاستشهاد في سبيل الله، ويرسم لذلك صوراً مؤثرة رائعة: "إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ". "وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ".

ويبيح لهم الاستمتاع بطيبات الحياة، ولكنه يحبب لهم أن يتخففوا منها، ويرتفعوا عليها، ويتجهوا إلى نعيم الروح: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ".

كل ذلك على سبيل التطوع لا على سبيل الإلزام. وذلك أفعل في تربية النفس، وأدعى إلى تحقيق الغاية، لأن المتطوع يشعر بلذة عميقة في تطوعه، تعوضه عن المشقة التي يحتملها، وتحبب إليه الاستمرار فيه. لذة لا يستشعرها من يؤدي واجباً مفروضاً عليه.

فلا عجب إذن حين نجد مثل أبي بكر وعمر في الذروة العليا من مدارج الإنسانية، مثلين متفردين تتطلع إليهما الأبصار، وتعجز الإنسانية حتى اليوم عن الإتيان لهما بشبيه.

ولم يكن ذلك منهما كبتاً، ولا تحريماً لنشاط الحياة الدنيا. فالكبت يؤدي إلى الرهبنة، وإلى الاضطراب النفسي والعصبي. ولم يكن أحدهما راهباً، فقد كانا خليفتين عاملين واجها أكبر مشاكل السياسة والإدارة والحرب، بالإضافة إلى نشاطهما الروحي الخاص؛ ولم يكن في تصرفاتهما الحاسمة الحازمة، المتزنة المحكمة، ما يشي بأثر واحد من آثار الكبت والاضطراب.

وإنما كان ارتفاعهما إلى تلك القمم السامقة بالإرادة الواعية، والضبط المستنير.

* * *

ولكن الناس لا يقدرون كلهم على هذا المستوى الرفيع.

بل إن بعض الناس، بتأثير ظروفهم الخاصة، وبيئتهم ووراثتهم، وبنية مزاجهم، لا يستطيعون حتى أن يصلوا إلى المستوى الذي يلزمه الإسلام للناس. أو هم يندّون عنه أحياناً بسبب ضعفهم البشري، وغلبة الشهوات عليهم رغم مغالبتها...

فهل يطرد أولئك من رحمة الله؟

كلا. إن الله لرحيم. وإنه لا يتركهم للعذاب الممض، وتأنيب الضمير القاتل؛ ولا يدع الإحساس بالإثم يفسد أعصابهم وينغص عليهم الحياة.

إنه يفتح لهم باب رحمته، فيقبل التوبة منهم حين يسعون إليها ويعملون لها. "فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ". "أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ". "إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ". "إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً". "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ". ويكفي أن نذكر أن التوبة باشتقاقاتها قد وردت في القرآن ٨٧ مرة، والمغفرة بمشتقاتها ٢٣٠ مرة، والرحمة والرحمن والرحيم ٢٨٠ مرة. فتلك الأرقام ليست في حاجة إلى تعليق.

* * *

من هذه النظرة الشاملة، ومن هذه الطريقة المحكمة في معالجة النفس الإنسانية، نشأت تلك البطولات العجيبة النادرة التي زخر بها صدر الإسلام، وما زالت على فترات تؤتي أكلها بين الحين والحين، بالأمثلة المعجبة التي لا يتمالك الإنسان نفسه أمامها من العجب، أن يكون ذلك كله في مكنة بشر فانٍ محدود الطاقة، مشدود إلى الأرض بوشائج اللحم والدم.

ولسنا هنا في حاجة إلى استعراض البطولات الحربية والإدارية والسياسية –وهي كثير– وكل منها مثل فذ في تاريخ البشرية. ولكنا نجتزئ بما نسميه البطولات النفسية، فهي أنسب شيء في بحث عن النفس الإنسانية في نظر الإسلام. البطولات التي تظهر في المشاعر، فتنظفها إلى درجة تقرب من الخيال. وقد اخترناها لنرد بها على فرويد وغيره، ممن لا يطيقون أن يتصوروا في البشرية شعوراً واحداً لم يصدر عن جبرية أو مصلحة شخصية. فتلك أمثلة قائمة كلها على التطوع البحت. التطوع بما لم يطلبه منهم أحد على سبيل الجبر والإلزام: لا الدين ولا المجتمع ولا القانون... وإنما هم فرضوه على أنفسهم متطوعين، لا مصلحة لهم في ذلك من قريب ولا بعيد.

وما نزعم أن الإسلام ينفرد وحده بتلك البطولات. فلا شك أن الإنسانية –في غير الإسلام– تعرف أمثالاً لها. وهذا يؤدي نظرتنا على أي حال، في أن الإنسانية في مجموعها قادرة على الخير الذي لا تدفع إليه ضرورة من ضرورات فرويد!

وإنما مزية الإسلام التي تفرد بها هي ذلك العدد الضخم من تلك البطولات النادرة في فترة متناهية في القصر، مما لم يتح –في الكم ولا في النوع– لأمة واحدة في التاريخ، في مثل هذا الزمن القصير.

فهذا أبو بكر خليفة رسول الله، المهيمن على الدولة الناشئة، ومشاكلها المتعددة في الداخل والخارج، لا تمنعه كل هذه المشاغل عن أن تطوف بمشاعره أنبل العواطف الإنسانية، التي تكفي وحدها، لو شغلت قلب إنسان، أن ترفعه عن مستوى البشر العاديين! وأمثلة بره وعطفه كثيرة مشهورة، نجتزي منها بمثال واحد بسيط في مظهره، ولكنه عظيم الدلالة على قلب "الإنسان" الذي يخفق في صدر أبي بكر. خرج يوماً بعد توليه الخلافة فإذا جارية تقول: "اليوم لا تُحلب لنا منائح دارنا" ذلك أن أبا بكر كان يحلب لها إبلها من قبل وهو فرد من عامة المسلمين. أما وقد شغلته الخلافة فلن تجد الفتاة من يقوم بهذه المهمة! ولكنه يسمعها فيقول: "بلى والله لأحلبنها لكم!" فكان يحلبها لها كل يوم، ويسألها: "يا جارية! أأرغى أم أصرح؟" فأي ذلك قالته فعل!

* * *

وعمر... إحدى معجزات الإسلام، لا يبيح لنفسه من الطعام والكساء أكثر مما لفرد من عامة المسلمين. فلما جاء عام الجوع، وأصاب المسلمين القحط، أقسم لا يذوق السمن حتى يفتح الله على المسلمين. وبقي عامه على هذا الحرمان حتى بسر وجه من أكل الزيت، والمسلمون يرون حاله فيشفقون عليه من الجهد الذي يبذله، مع قلة الطعام الذي يتناوله،

فيرجونه أن يرأف بنفسه، ويبيحون له —عن طيب خاطر منهم– أن يأخذ من بيت المال ما يصلح به شأنه. ولكنه يرفض ذلك، ويصر على رفضه حتى يفيض الله الخير على المسلمين!

فيم هذا العناء كله، والدين لا يأمره به، والمجتمع الإسلامي يتمنى لو قبل عمر نصيحته، فقلل من شظف معيشته؟!

إنها الحساسية المرهفة في ضمير عمر. إنه التطوع النبيل الذي لم يفرضه عليه أحد إلا نفسه، وتفسيره قول عمر: "كيف يعنّيني أمر الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم؟".

* * *

وعثمان يرى المسلمين وقد انقطعت مواردهم في أيام أبي بكر، ووقعوا في ضائقة اقتصادية شديدة، ثم تجيئه العير محملة ببضائع كان استوردها من الشام، فيسرع إليه التجار في المدينة، يريدون —كعادة التجار– أن يستغلوا ساعة العسرة، ليربحوا على حساب المستهلكين. فيتقدمون إليه بعرض سخي أن يربحوه في الدرهم درهمين. فيردهم عثمان قائلاً: أُعطيت أكثر من ذلك! فيعرضون ثلاثة. فيقول: أعطيت أكثر من ذلك. فيعرضون أربعة دراهم ثم خمسة وهو يردهم كل مرة. فقالوا: يا أبا حفص! ما سبقنا إليك أحد. ونحن كل تجار المدينة! فيقول: إن الله أعطاني عشرة أمثالها! ثم يقسم ليتركنها خالصة للمسلمين، يرد بها عنهم غائلة الحاجة!

ماذا كان عليه —حتى وهو يريد البر بالمسلمين– أن يأخذ على الأقل ثمن بضاعته بدون ربح؟ ويكون —في ذلك– نبيلاً مشكور النبل!

ولكنه مثل يفرضه لنفسه، ويتطوع لتحقيقه، لم يفرضه عليه دين ولا مجتمع ولا قوة واحدة قاهرة!

* * *

وعلي بن أبي طالب يمكّنه الله من أحدا أعدائه وأعداء الإسلام في إحدى المواقع، حتى ليجلس على صدره، ويأخذ بسيفه. ثم ينهض عنه، ويتركه طليقاً! ويعجب رجل من المسلمين كان يشاهد الحادث، ويسأله: لم تركت عدو الله، وقد أمكنك الله منه؟ فيقول: حينما هممت أن أحتز رأسه بصق في وجهي. فخشيت إن أنا فعلت أن أكون قد قتلته غضباً لنفسي لا لله.

ما الذي كان يفرض على عليّ يا ترى هذا التصرف النبيل، الذي يقرب من الأساطير؟ إن هذا العدو الذي أطلقه كان حرياً أن يعود فيقتله. وعليّ يعلم ذلك دون شك. ولكنها "النظافة" الكاملة داخل الضمير، لا تطيق ظلاً من الشك، في تصرف تبيحه –بل تدعو إليه– كل شرائع السماء والأرض!

* * *

و"لما أزمع (عمر بن عبد العزيز) أن يرد ما لديه، أمر فنودي بالناس: الصلاة جامعة، وصعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها، وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها. وإن ذلك قد صار إليّ، ليس عليّ فيه دون الله محاسب، ألا وإني قد رددتها، وبدأت بنفسي وأهل بيتي. اقرأ يا مزاحم –وقد جيء ذلك بسفط فيه تلك الكتب– فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيأخذه عمر، وبيده مقص فيقصه به، حتى لم يبق فيه شيء إلا شقه.

"ثم ثنى بزوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله، فقال لها: اختاري إما أن تردي حليلك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وهو في بيت واحد. فقالت: لا، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي. فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسمين. فلما مات عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك، قال لأخته فاطمة: إن شئت رددته عليك. قالت: فإني لا أشاؤه. طبت عنه نفساً في حياة عم وأرجع فيه بعد موته؟! لا والله أبدا[1]!".

وهكذا يتنازل عمر عن كل ما يملك بمثل هذه السهولة. بل بمثل هذا الترفع أن يمس درهماً لا يرى لنفسه حقاً فيه، مع أن الإجراءات القانونية كلها تبيح له تملكه، والمجتمع الذي يعيش فيه لا يطالبه، بل لا يفكر في أن يطالبه بالتنازل عن شيء...

ولكن عمر ليس وحده الجدير بالإشادة في هذا المقام، على الرغم من عظمة هذه البطولة النفسية، التي تقف فذة في التاريخ، من حيث هي تطوع نبيل لم يفرضه إلا يقظة الضمير. فزوجته كذلك جديرة بتسجيل موقفها النفسي المترفع. فلم يكن ثمة ما يمنعها –وقد فضلت عمر في حياته على كل ما تملك– أن تسترد أموالها وأملاكها بعد أن مات عمر. وقد وفر عليها أخوها الحرج، حين عرض عليها ذلك، ولم يجعلها تطلبه بنفسها. ولكنها

---

(1) عن كتاب "عمر بن عبد العزيز" للأستاذ أحمد زكي صفوت.

ترفعت عن ذلك لغير قوة قاهرة تدفعها إلى التنازل عن رغبة أصيلة في نفس كل امرأة: رغبة الاستمتاع بالحليّ وألوان الترف.. وإنما هو في أعماق أعماقها هاتف شعوري متطوع نبيل.

* * *

وهذا خالد بن الوليد، قائد الإسلام المظفر الذي لم ينهزم قط، يعزله عمر بن الخطاب وهو في معمان المعركة. فلا يضطغن، ولا يحقد ولا يترك المعركة انتقاماً "لشرفه العسكري" ولا ينتقض على الخليفة، وهو يرى –بينه وبين نفسه– أنه لم يرتكب ما يوجب العزل!

ولقد كان خالد حريّاً –على الأقل– أن يسلم القيادة للقائد الجديد، وينسحب إلى بيته. ولكنه يرى نفسه في موقف لو انسحب فربما أطلت الهزيمة على جيش المسلمين. فلا يُعلم أحداً بالخبر، ويمضي في قتاله المستبسل حتى يمن الله بالنصر! النصر لا لنفسه ولكن للمسلمين، وللإسلام الذي يملأ قلبه الإيمان به! وعند ذلك فقط يعلن القائد الجديد بالأمر، ويسلمه القيادة!

وهنا كذلك –وقد اطمأن على مصير المعركة– كان يستطيع أن ينسحب، وقد أراح ضميره المرهف الحساس. ولكنه يأبى ذلك أيضاً، ويستمر في القتال جندياً كعامة الجند!

فيم يطمع خالد بالاستمرار في القتال، وفقد فقد القيادة والسيطرة والأمر والنهي؟ إنه الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل المثل العليا، التي تعمر قلب هذا البطل العجيب.

وأية بطولة؟! إن كل بطولات خالد الحربية لا تعد شيئاً بجانب هذه البطولة النفسية الخالدة، التي كشف عنها هذا الموقف الفريد!

* * *

وأبو محجن الثقفي، أحد أبطال المسلمين في فتح فارس، رجل كان صاحب خمر في الجاهلية، وظل يتغنى بها حتى بعد أن جاء الإسلام، فحبسه سعد بن أبي وقاص في داره، ووضع القيد في رجليه ليستتيبه مما قال.

ويخرج سعد لقتال الفرس، وأبو محجن عنده حبيس في داره، ثم يمرض القائد فلا يستطيع ركوب فرسه، وتملؤه الحسرة أن يعجز عن الخروج بنفسه إلى المعركة والقتال مستعر. وأبو محجن يسمع ذلك ويرى، وهو حبيس، فلا يطيق أن يقعد عن نصرة دين الله ورسوله، فيرجو سعداً أن يطلقه ليقاتل فلا يفعل. ويلح في الرجاء ولكن سعداً لا يستجيب. ولكن أبا

محجن لا ييأس. إنه يحاول لدى امرأة سعد! ويستعطفها أن تفك قيده ليخرج إلى القتال. ويعدها –إن هو لم يستشهد في المعركة– أن يعود إليها ويضع بنفسه القيد في رجليه! ورقّ قلبها له فأطلقته! فأخذ فرس سعد وانطلق بها إلى القتال. وهجم على العدو هجمة صادقة، فرجحت كفة المسلمين. حتى إذا أقبل المساء عاد! عاد البطل المنتصر إلى دار سعد، فربط الفرس، ثم وضع القيد في رجليه كما وعد من قبل!

وظل على ذلك ثلاثة أيام حتى كتب الله النصر المؤزر للمسلمين. وسعد يطل على ميدان المعركة من نافذته ويقول لامرأته: رأيت فارساً على البلقاء يضرب كأحسن ما يكون الضرب، ولولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن! فتقص له امرأته قصته، فيناديه إليه ويقول: "اذهب! فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله!".

فيرد أبو محجن قائلاً: "لا جرم والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً!".

ولقد كان أبو محجن في حل من القتال وهو حبيس. وكان مستطيعاً –وقد حارب وانتصر– أن يتحلل من وعده ومن محبسه. ولكنها بطولة نفسية خارقة، أيقظتها العقيدة في هذا الضمير.

ولم يكن الخلفاء ولا أبطال الحرب وحدهم هم الذين يبلغون تلك القمم العالية من النظافة النفسية المتطوعة بعمل الخير. فهذا رجل من عامة المسلمين: يونس بن عبيد "كان عنده حلل مختلفة الأثمان. ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة، وضرب كل حلة قيمتها مائتان. فمر إلى الصلاة، وخلف ابن أخيه في الدكان. فجاء أعربي وطلب حلة بأربعمائة، فعرض عليه من حلل المائتين. فاستحسنها ورضيها واشتراها، فمضى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس، فعرف حلته. فقال للأعرابي: بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمائة. فقال: لا تساوي أكثر من مائتين، فارجع حتى تردها! فقال: هذه تساوي في بلدنا خمسمائة، وأنا ارتضيتها. فقال يونس: انصرف، فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها. ثم رده إلى الدكان، ورد عليه مائتي درهم. وخاصم ابن أخيه في ذلك، وقال له: أما استحييت؟ أما اتقيت الله؟! تربح مثل الثمن، وتترك النصح للمسلمين؟ فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها! قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك؟"[1].

* * *

(1) عن كتاب "الرسالة الخالدة" للأستاذ عبد الرحمن عزام.

وعن بريدة قال: "جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله طهرني. فقال: ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه. قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال يا رسول الله طهرني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك. حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله: مم أطهرك؟ قال: من الزنا! فسأل رسول الله: أبه جنون؟ فأُخبر أنه ليس بمجنون. قال: أشَرِب خمراً؟ فقام رجل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر. فقال: أزنيت؟ قال: نعم! فأَمر به فرجم. فلبثوا يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: استغفروا لماعز بن مالك: لقد تاب من توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم. ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله طهرني. فقال: ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه. فقالت: تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك؟ إنها حبلى من الزنا! فقال: أنت؟؟ قالت: نعم! قال لها: حتى تضعي ما في بطنك. قال فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قد وضعت الغامدية. فقال إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من ترضعه. فقام رجل من الأنصار فقال: إليّ رضاعه يا نبي الله. قال فرجمها. ويروى أنه قال لها: اذهبي حتى تلدي. فلما ولدت قال: اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه. فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام. فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين. ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجه خالد؛ فسبها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له. ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت".

وحادثة ماعز قد تفتح المجال لمن يريد أن يقول —على مذهب فرويد– إنها حالة هوس ديني. وقد كان شيء من هذا في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأل: أبه جنون؟ ولكن ظروف الحادث كلها تشير إلى أن الرجل والمرأة كليهما كانا في حالة سوية. وهناك فرق بين الشعور بالإثم الذي يقول فرويد إنه يكون كامناً في اللاشعور، وإنه يدفع الناس إلى طلب توقيع العقوبة عليهم على جرائم لم يرتكبوها، أو إلى تعذيب النفس تكفيراً عن هذا الإثم الخفيّ، وبين هذا الشعور الواعي بجريمة محددة. ومما يلاحظ كذلك أنهما لم يقتلا نفسيهما، ولم يعرضا أنفسهما لمخاطر قد تقضي عليهما، لإراحة ضميرهما القلق. وإنما تقدما إلى رسول الله ليطهرهما طمعاً في رضاء الله ومغفرته. وهي قمة من التطوع النبيل لا يقدم عليها أحد إلا وقد بلغ الغاية من نظافة الضمير.

* * *

وإذا كانت أمثلة هذه البطولات النفسية قد تواترت في صدر الإسلام، فإنها لم تنقطع بعد ذلك على مر العصور. وهذا صلاح الدين يصل في معاملته لأسرى الصليبيين، أعدائه في الدين وفي الحرب، إلى درجة جعلت أولئك الصليبيين أنفسهم يكتبون عنه القصص المبدعة، ويصوغون حوله الأساطير!

وقد كان الصليبيون يعاملون المسلمين بوحشية لا مثيل لها. وكانوا يهجمون عليهم في بيوت الله، فيحولونها بركاً من الدماء. وكان المسلمون في حل من أن ينكلوا بهم، وإطاعة لأمر السماء: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ" "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ". ولكن صلاح الدين "يتطوع" فيمرّض أسيراً وقع بين يديه، ويسهر عليه حتى يتماثل للشفاء!!

وما زال المسلمون حيثما آمنوا بالإسلام، وتشربته أرواحهم، يضربون تلك المثل النادرة في التاريخ. يقول السيد أبو الحسن الندوي (من علماء الهند) في كتابه: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" صفحة ٢١٥: "إن الشيخ رضي الله البدواني اتهم بالثورة على الإنجليز عام ١٨٥٧م. وحوكم أمام حاكم إنجليزي كان من تلاميذه، فأوعز إليه الحاكم على لسان بعض الأصدقاء أن يجحد الاتهام فيطلقه. ولكن الشيخ أبى، وقال: قد اشتركت في الخروج على الإنجليز فكيف أجحد؟ واضطر الحاكم فحكم عليه بالإعدام، ولما قُدِّم للشنق بكى الحاكم وقال له: حتى في هذه الساعة لو قلت إن القضية مكذوبة عليّ، وإني بريء، لاجتهدت في تخليصك. فغضب الأستاذ وقال: أتريد أن أحبط عملي بالكذب على نفسي؟! لقد خسرت إذن وضل عملي. قد اشتركت في الثورة فافعلوا ما بدا لكم. وشنق الرجل".

* * *

وبعد فهذه الأمثلة، وأشبهها في تاريخ الإسلام كثير، لا تحتاج إلى تعليق. فهي تشهد كلها بعظمة هذا النظام الذي يعامل النفس الإنسانية على أسسها الصحيحة، فتستجيب إليه بأقصى طاقتها، وتصل في ارتفاعها إلى ما يشبه المعجزات!

الفرد والمجتمع

العلاقة بين الفرد والمجتمع هي الموضوع الرئيسي لعلم الاجتماع. وهي كذلك مبحث أساسي من مباحث علم النفس، فلا يمكن أن تدرس النفس الإنسانية دراسة حقة، من غير التعرض لهذا الجزء المهم من كيانها الأصيل. كما أن للحكومات والشعوب المختلفة آراء نظرية وتطبيقات عملية في هذا الموضوع. وقد كان طبيعياً أن تختلف الآراء بين هؤلاء وأولئك تبعاً لاختلاف الزاوية التي ينظرون منها، واختلاف الهدف من ورائها كذلك.

فأما علماء النفس الفرديون فينظرون إلى المجتمع دائماً من وجهة نظر الفرد. فيبالغون في تقدير أهمية الفرد كشخصية مستقلة لها كيان منفصل عن الآخرين. كما يبالغون في الحجر على حق المجتمع في تأديب الفرد الخارج على طاعته.

ومن الجانب الآخر تبالغ الدول الاستبدادية في تحقير قيمة الفرد، وتصوره هباءة فارغة لا يكاد يكون لها وجود منفصل عن الجماعة.

وكلتا النظرتين مبالغ فيها إلى حد الإسراف المعيب.

فالفرد الذي يبلغ إحساسه بنفسه وذاتيته أن ينسى وجود الآخرين، والمجتمع الذي لا يفرض للفرد أي وجود مستقل؛ كلاهما يتجاهل طبائع الأشياء ويغفل عن حقيقة نفسية مهمة..

فما هو المجتمع في الحقيقة؟

وما ذلك الخط العجيب الذي يفصل بين الفرد والمجتمع؟

إن الفصل بينهما فكرة عجيبة لا تثبت أمام البحث العلمي الصحيح. والحديث عن الفرد والمجتمع كأنهما قوتان منفصلتان، أو معسكران متقابلان، هو من عيوب البحث النظري الذي يتصور حالات وقضايا لا وجود لها في واقع الأمر. كما كانوا يتحدثون في النقد الأدبي عن اللفظ والمعنى كأنهما شيئان يمكن أن ينفصلا، ويكون لأحدهما وجود مستقل عن الآخر. والتشبيه مع الفارق دون شك.

إن الفرد لا يمكن أن يكون فرداً خالصاً، ذا كيان مستقل مقابل لوجود المجتمع، إلا إذا تصورنا جدلاً أنه قد اعتزله تمام الاعتزال، بجسمه وأفكاره ومعاملاته جميعاً. وهذا أمر مستحيل الحدوث عملياً، ولا حتى في مستشفيات المجاذيب!

والمجتمع هو مجموع الأفراد. تلك بديهية لا تحتاج إلى مجرد ذكرها؛ فكيف يوجد المجتمع إذن منفصلاً عن وجود الفرد، وهو الوحدة التي يتكون منها المجموع؟

في عالم النظريات فقط يمكن أن يوجد الفرد المستقل، والمجتمع الذي يتكون منفصلاً عن وجود الفرد الذاتي. أما الواقع العملي فلا يعرف هذه التفرقة العجيبة، لأنها من المستحيلات العقلية.

إن الواقع المحسوس هو أن كل فرد هو في ذات الوقت كائن مستقل وعضو في جماعة؛ ولا تكاد توجد لحظة واحدة ولا فكرة ولا عمل يمكن أن يزاوله الفرد بإحدى صفتيه دون الأخرى، وإن بدا في ظاهر الأمر أن هذا مستطاع.

فمنذ خرج الإنسان من عزلته في الكهف تكوّن مجتمع. بل إن المجتمع قد تكوّن قبل ذلك، في داخل الكهف ذاته. فمنذ حدث على ظهر الأرض إن وجد فردان من النوع البشري، يشتركان في علاقة معينة، لم يكن هناك فرد له وجود كامل الانفصال، بجسمه ومشاعره وأفكاره وأعماله.

ومعنى ذلك أن الفرد بهذا المعنى لم يوجد قط. وحتى الأساطير التي تصور شخصاً وجد بمفرده في جزيرة نائية، ليس فيها أحد غيره من الأحياء، فسرعان ما تخلق حوله مجتمعاً من الجن أو غيره من المخلوقات، لأنها —حتى وهي أساطير– تراعي تلك الحقيقة الثابتة: وهي أن الإنسان لا وجود له في صورة فرد مستقل. وقد وُجد المجتمع في نشأته الأولى لأن أفراد النوع البشري منذ مولده —أياً كان مولده– لم يستطيعوا أن يعيشوا منفصلين تمام الانفصال. بل أحسوا دافعاً قوياً لا يغالب، في أن يتصل بعضهم ببعض على نحو من الأنحاء.

فالمجتمع إذن حاجة نفسية نبعت من نفس الفرد، من رغبة ملحة في ألا يعيش وحده. وسواء كان الخوف من الانفراد، والشعور بالوحشة أمام الحيوانات المفترسة، وقوى الطبيعة المجهولة. أو كانت المصلحة، حين وجد كل فرد أنه يستطيع أن يدرك بالاشتراك مع غيره، ما لا يستطيع أن يدركه وحده. أو كانت غريزة الجنس، أو نزعة القطيع... فالنتيجة الأخير واحدة، وهي أن نزعة لا تقهر، هي التي أنشأت المجتمع من ضمير الفرد.

هذه النزعة أقوى من كل رغبة أخرى في النفس البشرية مضادة لها في الاتجاه. أقوى من شعور الإنسان بنفسه كوحدة مستقلة، وأقوى من المنازعات التي تنشأ من اجتماع أفراد لكل منهم مطامع خاصة لا تلتقي مع الآخرين. وأقوى من رغبة كل فرد في أن يكون له السلطان المطلق المفرد لا على الآخرين فحسب، بل على عناصر الطبيعة أيضاً... ولولا ذلك ما

استطاعت أن تصمد لتلك الرغبات المتعارضة، بل لما استطاعت أن تخضع لها الرغبات الأخرى بالتدريج، وتهذبها وتكسر من حدتها، حتى تتمشى معها إلى أطول مدى مستطاع.

وقد كان أمراً طبيعياً وبديهياً، أن يكون المجتمع الأول في أضيق نطاق ممكن، وأبسط صورة ممكنة: أسرة: زوج وزوجة وأبناء. فتلك أول مجموعة يمكن أن تتغلب فيها نزعة الاجتماع، على النزعات الفردية المستقلة، وتخضعها لسلطانها بأي طريق.

ومنذ تلك اللحظة صارت الأسرة هي الوحدة بدلاً من الفرد؛ ومع أن الفرد ظل محتفظاً بكيانه كشخصية مستقلة، إلا أنه قد اكتسب في الوقت ذاته صفته الأخرى كعضو في جماعة، ولم يعد في طوقه أن يحس أو يفكر أو يعمل إلا بصفتيه في آن واحد. فهو يخرج للصيد بنفسه –نعم– ولكنه يصطاد لزوجته وأبنائه أيضاً. فكأنه يحمل في قلبه وفكره وهو يصطاد، أشخاص الآخرين الذين من أجلهم يدخل الأدغال، ويجاهد الوحوش. وهو يلبي مع زوجته دافع الجنس، بصفته جسداً فرداً له غريزة –نعم– ولكن هذا ينتج منه بنات وبنون: أي أحداث خارجة عن نفسه وجسده، وهي منها في الوقت ذاته. وهكذا يتداخل وجود الآخرين في وجوده، ووجوده هو في وجود الآخرين، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر في نفوس المجموعة المكونة لهذا المجتمع الصغير.

وقد كان طبيعياً كذلك أن تتأخر مرحلة امتزاج أسرة بأسرة لتكوين مجتمع أكبر، حتى تستطيع المصلحة المشتركة أن تتغلب على نزعة كل أسرة للاستقلال والسيطرة الكاملين. وهنا تكون الوحدة التي تتفق أو تتصارع، هي الأسرة بدلاً من الفرد، ولكنها في الوقت ذاته الأسرة بمن فيها من الأفراد. أي أن كيان الأسرة مستمد من كيان أفرادها، دون أن يفقد الفرد وجوده في ذات الوقت.

ثم ظل المجتمع يرتقي ويكبر، كلما تلاقت مصالح الناس، فغلّبوها على نوازعهم الفردية، حين يجدون أن ذلك يحقق لهم قدراً من النفع المشترك أكبر مما يستطيعه الفرد وحده، أو الأسرة بمفردها، فوجدت العشائر والقبائل ثم الأمم والشعوب. ولم يقف رقيّ المشاعر عند هذا الحد، بل صارت الإنسانية تهدف إلى مجتمع إنساني شامل، يعم فيه الإخاء كل سكان الأرض. وذلك حلم إن لم يكن قد تحقق فهو على أي حال رغبة تشير إلى الاتجاه.

ولكن المهم أن الفرد قد ظل في جميع هذه الأطوار ملازماً لصفتيه المسيطرتين على كيانه: صفته كفرد مستقل وصفته كفرد في مجموعة. ولكن الصفة الثانية قد أخذت تتسع وتبرز، وتبسط نفوذها بالتدريج على"مساحات" أوسع في نفس الفرد، ومشاعر وعواطف كانت من قبل أقرب إلى أن تكون فردية خالصة. ولم يعد في وسع الإنسان –حتى في أشد

أوقاته انفراداً بنفسه- أن يكون فرداً منفصلاً عن الآخرين، ما دام يحمل دائماً في قلبه ومشاعره صورة من المجتمع الخارجي.

ولكن هذا الارتقاء الذي حدث على آماد متطاولة في تاريخ البشرية، ونتيجة لتجارب لا حد لها، وقعت للأفراد منفردين ومجتمعين، وأثرت في نفوسهم وأفكارهم، وترسبت فيها على مدى الأجيال... هذا الارتقاء لم يكن مفروضاً على البشر من خارج أنفسهم، وإنما كان استجابة لتلك النزعة القوية المتأصلة، التي تدفع الإنسان الالتقاء بأخيه الإنسان. وتجد راحتها في هذا اللقاء.

وربما كان لمعترض أن يقول: لو كان الأمر كذلك، وكان الفرد هو الذي كوّن المجتمع من رغبته الملحة في الاجتماع بغيره من الأناسي، لما وجدت فيه النزعة إلى الانتفاض على هذا المجتمع والخروج على أوامره ونواهيه...

ولكن الواقع أن الإنسان مجموعة من المتناقضات. أو مجموعة من الرغبات المتضاربة التي لا يمكن تحقيقها كلها في آن واحد. وقد قلنا: إن الرغبة في الاجتماع قد أخضعت النوازع الفردية لسلطانها، وعملت على تهذيبها بالتدريج. ولكنها لم تنتزعها من نفس الفرد، ولم يكن من الممكن ولا من المصلحة استئصالها من منبتها. لأن قتل الفرد –لصالح المجتمع- لا يمكن أن يؤدي في النهاية إلا لضياع هذا المجتمع ذاته. إذ كيف يمكن أن تنشأ الحياة من مجموعة من الأموات؟!

فالنوازع الفردية إذن ما تزال موجودة، جنباً إلى جنب مع الرغبة الجماعية الملحة. وإذاكان هذا تناقضاً، فهو موجود في النفس البشرية، كما يوجد فيها الحب والكره، والخوف والرجاء، والواقع والخيال[1]...

وهذا الكائن البشري مخلوق متقلب؛ وكما يتقلب جسده من وضع إلى وضع ليستريح ويجدد نشاطه، فكذلك تتقلب نفسه ذهاباً وجيئة، على الدوام.

فهو ساعة يستجيب لنوازعه الفردية ويسير معها إلى آخر المدى، فيشعر أن وجود الآخرين يضايقه، ويتمنى كما كان يصنع في طفولة البشرية، لو أن له السيطرة المطلقة لا على الآخرين فحسب بل على قوى الطبيعة أيضاً.

([1]) عالجت هذه النقطة بتوسع أكثر فيما بعد في فصل "خطوط متقابلة في النفس البشرية" في كل من كتاب "منهج التربية الإسلامية" وكتاب "دراسات في النفس الإنسانية".

وساعة يستجيب لنزعة الاجتماع، فيضيق بنفسه فرداً، ويخيل إليه أن نفسه الفردية تلك سجن تضيق جدرانه وتقترب حتى لتكاد تخنقه، فيسعى إلى التنفس في خارج نفسه، وقد يصل في هذا إلى أقصى المدى، فيذوب كيانه في كيان الآخرين...

وهو في حالته السوية دائب التقلب من وضع إلى وضع. ولا ضير في ذلك ولا خطر. فتلك فطرته. وهو مستطيع –ما دام لا يسرف ولا يتطرف– أن يحقق بفطرته أقصى الخير لنفسه وللجميع.

ولكن الخطر ينشأ من الإسراف والتطرف، سواء في هذا الاتجاه أو ذاك.

ونبدأ بالحديث عن النزعة الفردية المتطرفة: فحين تفسد فطرة الفرد، ويحس بوجوده الذاتي إحساساً مبالغاً فيه، يكون قد اعتدى على الآخرين اعتداء مؤكداً، ليحقق لنفسه أكثر مما ينبغي له من المتعة الفردية الأنانية. وهو مع ذلك لا يعتزل المجتمع ولا يعيش وحده، ولا يتنازل عن العون الضخم الذي يستمده من وجوده في الجماعة، والتسهيلات الهائلة التي ييسرها له مجموع الأفراد. فكأنه في تبجحه يريد أن يستغل المجموع إلى أقصى درجة، ثم لا يؤدي نصيبه من التكاليف.

وهنا موضع للجدل الشديد بين دعاة الفردية، وبين النظرة المعتدلة المتوازنة.

فهم حيناً يزعمون أن المجتمع لن يضيره شيء في أن يستمتع الفرد بحريته فيما يسمونه شئونه الخاصة. وهم حيناً آخر ينكرون حق المجتمع في التحريج على الفرد في تلك الشئون، أو في "تحقيق ذاتيته" كما يقول الوجوديون وغيرهم من المنحلين، سواء كان في ذلك ضرر على المجتمع أو لم يكن، لأن الأصل هو الفرد، وهو الذي ينبغي أن يتحقق له وجوده الكامل، رضي الآخرون أم غضبوا!

وفي كلا القولين مغالطة هائلة، تنهار أمام المنطق الصحيح.

فهنا نعود للسؤال الذي سألناه في مبدأ هذا الفصل: ما هو الفرد وما هو المجتمع؟ وما ذلك الخط الوهمي الذي يفصل بينهما، ويضعهما على صورة قوتين متقابلتين، أو معسكرين متصارعين؟

فلنفرض أننا نزلنا إلى الطريق فوضعنا أيدينا على واحد من المارين فيه: فمن هو ذلك الشخص؟ إنه فرد بالنسبة لنفسه، ينظر إلى الآخرين على أنهم "المجتمع". ولكن هذا الفرد

ذاته ينظر إليه الآخرون على أنه هو "المجتمع" أو هو فرد من أفراده، يتكون المجتمع –بالنسبة إليهم– منه ومن الآخرين معه.

وهكذا لا يمكن الفصل أبداً بين الفرد والمجتمع في حقيقة الأمر. فالمسألة كالدائرة لا تستطيع أن تمسك بنقطة معينة منها فتقول: من هنا تبدأ الدائرة، أو إلى هنا تنتهي. كل نقطة ككل نقطة، تصلح أن تكون مبدأ أو نهاية أو وسطاً بين نقطتين. ويظل الأمر هكذا ما دامت الدائرة قائمة. فإذا انكسرت لأي سبب من الأسباب، فعند ذلك فقط يصير لها مبدأ ونهاية، ولكنها تفقد اسم الدائرة وصفتها منذ ذلك الحين.

والمجتمع كذلك.. لا تستطيع أن تأخذ فرداً منه فتعزله، وتضعه في موضع المقابلة من الآخرين، ما دام المجتمع متماسكاً كالدائرة. لأن كل واحد من هؤلاء الآخرين ينظر إلى هذا الفرد نظرته هو إليهم. أما حينما يتحطم المجتمع ويفقد تماسكه، وتشيع فيه الفوضى، فعند ذلك كل شيء يجوز!

ولنخرج من حسابنا مؤقتاً أولئك المتميزين عن المجتمع في مجموعه، سواء كان تميزهم ارتفاعاً إلى أعلى، أو انحرافاً إلى أسفل. فأولئك شواذ. والشذوذ لا ينفي القاعدة كما يقولون. وسنعود إلى الحديث عنهم بعد أن نستوفي الكلام عن الشخص العادي، الذي يمثل الأغلبية العظمى من المجموع.

فإذا استبعدنا المتميزين، واستبقينا الأغلبية الساحقة المتقاربة بعضها من بعض في الصفات النفسية والعقلية.. فماذي يعني قول قائل منهم: إن المجتمع يظلمني، أو يحرج على حريتي الشخصية؟

لنفرض أن لي شهوة معينة، وأنا أرغب في تحقيقها، والذهاب فيها إلى آخر ما تسوّل لي نفسي من المتعة التي لا يبيحها "المجتمع": فعند ذلك أقول: إن المجتمع يقف في طريق تحقيق هذه الشهوة. وأزعم أنه يحد من حريتي، ويضع القيود في سبيل تحقيق كياني الذاتي. وقد أزيد على ذلك، فأمسك بكتاب من كتب فرويد، فأتأثر بنظرياته، أو إيحاءاتها المبالغ فيها، فأرفع عقيرتي محتجاً على المجتمع، قائلاً إنه يهدف إلى كبت نوازعي الفطرية، فتصيبني بذلك الاضطرابات العصبية والنفسية، وتتعطل طاقتي المذخورة.. الخ.

ولكني في الواقع أكون قد نسيت حقيقة مهمة. أو أدركتها ولكني أغالط نفسي وأغالط الآخرين. فأنا الذي أحتج على تحريج المجتمع عليّ في متعتي الخاصة، حين أرى فرداً آخر يريد أن يذهب إلى ما رغبت فيه لنفسي، فيستجيب لشهوته الملحة، ويذهب فيها إلى أقصى

المدى.. أنا ذاتي أهب محتجاً عليه، وأقول له مكانك! لا تتجاوز الحد المفروض! وعند ذلك أصبح أنا "مجتمعاً" أو ممثلاً للمجتمع بالنسبة لهذا الشخص، كما كان هو أو غيره مجتمعاً أو ممثلاً للمجتمع بالنسبة إلي.

وهكذا... فإذا كان الوقوف في سبيل حرية الفرد الزائدة عن الحدود جريمة في حق هذا الفرد، فكل شخص يرتكب هذه الجريمة في حق غيره، في ذات الوقت الذي يصرخ من ارتكابها في حقه! وبذلك لا يوجد شخص واحد مجنيّ عليه مائة في المائة. وإنما الجميع جناة ومجنيّ عليهم في آن واحد وبنسبة واحدة! (ومرة أخرى نستبعد الشواذ من هذا الحكم العام).

فإذا قال فرد: ما للمجتمع ومالي حين أصنع كذا وكذا، فعليه أولاً أن يسأل نفسه: ماله هو وللآخرين حين يأتون نفس هذا الأعمال؟

إنما تقوم هذه النظرة الفردية على نزعة أنانية غير مستقيمة. وحين يعطي كل فرد نفسه حق الخروج على "تقاليد" المجتمع، فلا مناص من أن تتعارض أهواء الأفراد وتتصارع، فيعتدي بعضهم على بعض، وتنشأ الفوضى التي قد يفيد منها البعض حيناً من الزمان، ولكنها بعد ذلك تعود بالضرر على الجميع.

وهنا كذلك يعترض المجادلون، ممن تأثروا بنظريات الغرب، واستهواهم بريقه الخاطف.

إنهم يقولون لك: لا تعارض ولا فوضى. والمسألة كلها نسبية. فنحن هنا في الشرق، ننظ إليها على أنها فوضى، لأننا مستعبدون لتقاليدنا البالية، التي لم تعد تصلح لهذا العصر. ولو تطورنا و "تقدمنا!" لقبلنا الأمر الواقع، وتغيرت نظرتنا إليه، فلم نستنكره ولم نعتبره "خروجاً" على الأخلاق والواجب. فليست الأخلاق قيمة ذاتية، وإنما هي انعكاس المجتمع. فإذا قال المجتمع كله أو أغلبه: هذا خير فهو خير. أو شر فهو شر. لا لأن شيئاً في ذاته يمكن أن يكون خيراً أو شراً. وإنما نظرة الناس إليه تعطيه هذه الصفة أو تلك.

وهذا كلام له بريق.. ولكن لنر من واقع الأمر إلى أي حد هو صحيح.

يقولون إننا نحن المتأخرين في الشرق، ننظر مثلاً إلى الحرية الجنسية على أنها شناعة لا يجوز أن تحدث، ونظل ننذر بالويل والثبور كل فرد أو مجتمع يندفع إليها، لأننا نحن هكذا متأخرون، لا لأن هذه حقيقة. ويقولون إنه حين يأتي الوقت الذي تتغير فيه نظرتنا إلى الأمور، فلن نعتبر هذه الحرية "اعتداء" على أحد ولا على شيء لأنها ستتم بالتراضي بين الطرفين، فلا يكون هناك معتد ومعتدى عليها كما نرى نحن. ولن يعترض الآباء على نزوات

بناتهم وأبنائهم، لأن منشأ الاعتراض هو أن المجتمع لا يسمح. فما دام قد صار يسمح، فلن يخشى الأب أن يعيّر بعار ابنته، لأنه ليس هنا عار في نظر أحد... وهكذا تهدأ الضمائر وتستقر الأعصاب، ويسير كل شيء سيره الطبيعي الهادئ الرتيب.

ويقولون: انظروا هذا هو الغرب قد صنع ذلك فتقدم وارتقى، وتحرر من خرافات الماضي، ومن خزعبلات الأخلاق.

ونترك الآن مناقشة هذا الرقي المزعوم، ومدى ما فيه من الخطر على كيان الإنسانية كلها في الشرق والغرب، لأن هذا قد يحتاج إلى قدر من الجدل مع المكابرين وهم كثير.

ولكن الذي لا يمكن الجدال فيه هو الوقائع التي تنشرها الكتب والصحف في ذلك الغرب الذي يستعبد الأرواح والقلوب...

تقول صحف أمريكا –أرحب بلاد العالم صدراً بالحرية الجنسية– إن هناك مشكلة اجتماعية خطيرة، يتزايد خطرها كل يوم، حتى أصبحت تقلق بال المسئولين، فيفزعون إلى المختصين من علماء الاجتماع، يسألونهم العون في هذه المشكلة التي تنذر بالويل والثبور!

تلك هي مشكلة الاختطاف! فكل يوم تأتي الأخبار المزعجة بأن بعض الفتيان قد اختطفوا فتيات في سياراتهم، فقضوا منهن وطرهم. وتركوهن بعيداً عن منازلهن بمسافات شاسعة، لا يتيسر لهن الرجوع منها إلى بعد أمد طويل!

ويتبادر إلى الذهن هذا السؤال: فيم الاختطاف، والحرية مباحة للجميع، إباحة كاملة لا قيد فيها ولا حدود؟

والسؤال على عجبه مردود ببساطة. فلا مناص، حين تطلق الحرية للجميع يصنعون ما يشاءون، أن تتعارض الأهواء، وتصطدم الرغبات. فيحدث أن يعشق فتى فتاة لا تحبه، وإنما تميل بمشاعرها إلى غيره. وما دامت النوازع والشهوات قد أطلقت من عقالها، ولم يضبطها ضابط خوفاً من تقييد الحرية، فإن هذا العاشق المتهوس لن يضبط عواطفه –أستغفر الله– بل شهوته إلى تلك الفتاة بعينها، فلا يجد سبيلاً إلا استدراجها واختطافها!

وهكذا يحدث هذا الأمر الشنيع، في البلد الذي أباح كل شيء للجميع، بل يحدث نتيجة لهذا الإباحة التي لا تقف عند حد..

هذا خطر تعترف به أمريكا وتنذر به الصحف، وتطلب تدخل المسئولين. وإن تزايده يوماً بعد يوم لينذر بأنه مقدمة لما هو أخطر منه في الحياة الاجتماعية والأمريكية. أي أنه العوارض الأولى للانحلال الذي أشرنا إليه من قبل، والذي ينكره المستعبدون هنا، لأنهم ملكيون أكثر من الملك كما يقال!

وقد ينظر إليها بعض قصار النظر هنا أو هناك على أنها حوادث فردية. ولكن دلالتها واضحة لكل من أوتي حظاً من التقدير السليم. فهي اليوم تبدأ بالمسألة الجنسية، وغداً تشمل ميادين أخرى غيرها، كما أثبتت حوادث التاريخ في كل شعب على ظهر الأرض[1].

ولنعد إلى فرنسا، فهي أقرب الأمثلة إلى أذهان الجيل الذي نعيش فيه. بدأت فيها المسألة بالحرية الجنسية أو الفوضى الجنسية. ثم أصبحت لهذه الفوضى تقاليد! ولا عجب فللصوص وقطاع الطرق في مصر تقاليد!

من بين هذه التقاليد الرائعة أن يتعانق العشيقان أو يتشابكا، أو يحدث منهما ما يحدث في الطرق والحدائق والسيارات العامة، فلا ينهرهما أحد ولا يستنكر حيوانيتهما تلك أحد، وإنما تنصب اللعنة والاستنكار الحار على من تسوّل له نفسه أن يعترض على ذلك، أو ينظر إليه باشمئزاز!!

ومضت فرنسا في طريقها قدماً، ولذت تلك المتع لأهلها شباناً وشيباً، فلم يعد للأسرة تقاليد ترعى، ولم يعد الزوج أو الزوجة يطالبان نفسيهما بالإخلاص بعضهما لبعض أو للأخلاق والتقاليد. وصارت الفتاة لا تحاسب نفسها ولا يحاسبها أحد حين تسقط، ولا الفتى يستنكف أن يقضي وقته غارقاً في الملذات.

ونظر أناس مبهورين، وصاحوا: هذه هي المدنية! أنّى لنا أن نرتقي ونصل إلى هذا المستوى الرفيع!

ومرد الشعب على المتاع الدنس في المراقص والبارات... وأحس كل امرئ أن من حقه أن يصنع ذلك دون أن يلومه أحد، أو يتدخل في "حريته الشخصية"!

([1]) حين كتبت هذا أول مرة لم تكن قد ظهرت بعد في المجتمع الأمريكي مظاهر الانحلال التي تكاثرت فيما بعد حتى ضج منها المجتمع الأمريكي ذاته، ومن بينها جرائم الهبييز الشهيرة.

وانتقلت عدوى الحرية في داخل نفوس الأفراد، من إحساس إلى إحساس. وتلك عملية نفسية معروفة، وفيها يكمن الخطر كله. فمالشاعر المتميزة من الظاهر ليست مستقلة في باطن النفس، ولا ينفصل بعضها عن بعض كما تبدو حين تظهر على السطح، بل هي وثيقة الصلة كأنها الأواني المستطرقة. فإذا تعمقنا أكثر، وجدناها في آخر الأمر كأنها تنبع من منبع واحد كبير. وسواء كان هذا المنبع جنسياً بحتاً، كما يفسره فرويد، أو كان طاقة حيوية شاملة كما تفضل أن نعتقد، فالنتيجة واحدة: وهي أن المشاعر يعدي بعضها بعضاً في داخل النفس، فنجد المنحلّ في الغالب ينحل في جميع نواحي حياته. والحالات القليلة التي ينحصر الانحلال فيها في رقعة معينة من النفس ولا يفسد بقية جوانبها، هي من القلة والندرة بحيث لا تغير القانون العام، ثم إنها تكون في الغالب مرحلة وسيطة في المنزلق الذي يؤدي إلى الانحلال التام.

وذلك تفسير ما حدث في فرنسا. فقد انتقل حب الاستمتاع بالحرية المطلقة من دائرة الجنس إلى دائرة أخرى ظلت تتسع بالتدريج حتى شملت كل نواحي النشاط للأفراد والجماعات. فانتقلت —كما لا بد أن يحدث– إلى السياسة والاقتصاد، وكل ما يتصل بالمجتمع والحكومة والدولة. وكرهت أنانية الأفراد —وهي نتاج الاستمتاع الزائد عن الحد– أن يجندوا أنفسهم للدولة، لأن الدولة بدت لهم معسكر آخر، منفصلاً عنهم، لا ينبغي له أن يتدخل في شئونهم أو يفرض عليهم قيداً من القيود. وأدى ذلك كله إلى قلة الإنتاج وضعف الجيش وانتشار الدسائس والاضطرابات. فلما دخلت فرنسا الحرب كانت على غير أهبة، لا لنقص أسلحتها فحسب، بل لنقص عنصر آخر أهم وأخطر من كل ما عداه، ذلك هو "الروح المعنوية"...

أمة لا تريد أن تحارب، ولا تريد أن تحمي نفسها من الغزو، لأنها تكره التكاليف النفسية للجهاد. تكره أن تترك متعتها الدنسة، وملذاتها الرخيصة. أمة لا يجمعها هدف مشترك لأنها أفراد: "تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى". أمة تهتم بعمائر باريس الرشيقة الأنيقة، ومراقصها الفاخرة المثيرة، أكثر مما تهتم بكرامتها وكيانها في المعترك الدولي.

وكان حقاً وعدلاً أن تنهزم فرنسا، وتخلي مكانتها التاريخية، حتى بعد أن أنجدها الحلفاء، وحاولوا أن يرفعوها على أرجلها المتراخية المتهاوية، لتستطيع أن تتلقى ضربة أخرى قبل أن تموت!!

ولست أجهل أن هذا التفسير "الخلقي" لكارثة فرنسا لا يعجب الشيوعيين وأضرابهم من هواة التفسير المادي أو الاقتصادي للتاريخ، كما أنه يعز على عشاق فرنسا أن يصدقوه أو يقروا به.

ولكنني أحيل هؤلاء وأولئك إلى خطبة بيتان الشهيرة، التي ألهب بها ضمائر الفرنسيين، إن كان قد بقي لهم ضمائر، وأرجع الكارثة كلها إلى انحلال أخلاقهم، وإغراقهم في شهواتهم المنحطة. وهذا رجل فرنسي، لا يمكن أن يتهم بالتشنيع على أهل بلده، وهو يرجو لهم الخير والإصلاح[1].

وهكذا نرى أنه أنه ليست هناك إلا نتيجة حتمية واحدة لخروج الأفراد على تقاليد المجتمع دون رادع، وتنازل المجتمع عن تقاليده، وترك العابثين بها يعبثون. تلك النتيجة الحتمية هي انهيار هذا المجتمع بكارثة تصيبيه من الداخل أو الخارج، وتؤدي في النهاية إلى حرمان أولئك الأفراد أنفسهم مما كانوا غارقين فيه من المتاع المباح.

فقصر النظر وحده، هو الذي يخيل للعابثين من الأفراد أنهم مستطيعون أن يظلوا في عبثهم ذلك إلى غير نهاية، دون أن يؤدي بهم إلى الكارثة، أو الفتنة التي لا تقتصر على الظالمين.

وهذه التقاليد التي تعبت الإنسانية في بنائها لم تكن عبثاً، ولا كانت لمجرد "الزينة"! بل إن لها لمهمة حيوية تؤديها لصيانة المجتمع؛ مما يؤدي في نهاية الشوط إلى خير الأفراد أجمعين. الخير السلبي على الأقل، بحمايتهم من الضرر الذي لا يمكن تفاديه على ممر الأجيال.

على أن هذا لا يعني أن المجتمع دائماً على صواب فيما يحرص عليه من تقاليد. ولا ينفي أن بعض أفراده الخارجين عليه يكونون أحياناً على صواب.

ذلك أن المجتمعات كالأفراد: عرضة للأمراض والانحرافات. ولكن أمراضها دائماً أخطر من أمراض الفرد، لأنها تطبع بطابعها المنحرف مزاج الأجيال الناشئة قبل أن يتاح لها أن تبصر الأمور على حقيقتها، وترتد إلى سواء السبيل.

وأشد ما يصيب المجتمعات أمران ينشآن بطريقة طبيعية، من عملية نفسية معروفة تحدث في نفس الفرد بمفرده، وتؤثر حتماً في نفوس مجموع الأفراد.

الأمر الأول هو انقلاب الوسيلة إلى أن تصبح هي في ذاتها غاية، بعد نسيان الغاية الأصيلة.

([1]) قد يبدو اليوم أن فرنسا قد استعادت كيانها ومكانتها بعد أن حاول ديجول أن يقيمها من وهدتها. ولكنها صحوة عابرة قبل أن تنهار الحضارة الغربية كلها.. ما لم تعد إلى الله.

يحدث هذا في نفس الفرد حين ينسى أنه يأكل ليعيش، فينتهي إلى أن يعيش ليأكل! وحين ينسى أن بقاء النوع هو الهدف من الطاقة الجنسية، فيجعل لذائذه الجنسية غاية تطلب لذاتها بغير نظر إلى الهدف! وحين ينسى أن هدف المال هو الإنفاق، فينقلب جمع المال شهوة مستقلة عن الغرض المرسوم لها في الحياة. وحين يلعب الورق أو النرد "لقتل الوقت" في بادئ الأمر، فينقلب اللعب هدفاً يستولي على اهتمامه، ويطلبه لذاته ولو لم يكن لديه وقت يقتل، بل ولو شغله ذلك عن أمور معاشه.

وتلك عملية تحدث تلقائياً إذا غفل الإنسان عن معنى وجوده وهدف الحياة التي يحياها على الأرض، ولا يحمي الفرد منها إلا أن يذكّر على الدوام، ويهذّب على الدوام.

ومثلما يحدث في نفس الفرد، يحدث في نفوس الجماعات، فتنسى أهداف التقاليد وتحسبها غاية في ذاتها تحافظ عليها محافظة التقديس، بغير هدى ولا بصيرة. ويجرها ذلك في النهاية إلى النفاق الاجتماعي، حين ينصرف الناس عن الغاية الحقيقية ويخالفونها في حياتهم الخاصة، في الوقت الذي يحافظون فيه على المظاهر الجوفاء.

والمجتمعات كذلك تصاب بالجمود. وهو ينشأ من عملية أخرى طبيعية في نفس الفرد هي التعود. والعادة تؤدي مهمة هائلة في نفس الفرد، وهي جزء أساسي من كيانه. ولولا وجودها، وقيامها بكثير من الأشياء بطريقة لا شعورية، أو على الأقل شبه شعورية، لما أمكن أن يوجد الفرد نشاطه الواعي إلى ميادين جديدة من التفكير والاستنباط والاختراع، ولبقي حياته كلها يتمرن مثلاً على المشي والكلام والطعام والشراب!

ولكن على قدر الفائدة التي يجنيها الفرد عن طريق العادة، يصيبه الضرر كذلك حين يتعود على أشياء ضارة فيصعب عليه تغييرها.

والمجتمع في ذلك كالفرد، فهو عن طريق العادة يوفر جزءاً كبيراً من نشاطه، حين يجعل التقاليد عادة مرعية تتم بطريقة لا شعورية، أو شبه شعورية، ويوجه هذا النشاط لميادين جديدة من العمل والارتقاء. ولكنه في الوقت ذاته يضار أكبر الضرر عن طريق تثبيت العادات الضارة والجمود عليها، فيفقد بذلك من الطاقة ما كان يمكن أن يتوجه به إلى الخير العام، ولا ينقذه من ذلك إلا حركة عنيفة مزلزلة.

وهنا يأتي دور الفرد الممتاز، فينفض عن المجتمع جموده، ويرده إلى الإيمان الحق بالغايات الأصيلة. وقد أرجأنا الحديث عنه حتى يجيء مكانه الصحيح.

الفرد الممتاز عضو من المجتمع دون شك، متأثر بتياراته، متفاعل معها، ولكنه ممتاز عنه في طريقة تكوينه. ففي بنيته قدر من الطاقة الحيوية أكبر من المعتاد. وهو أقدر على تفهم تلك التيارات المتفاعلة في المجتمع، وأقدر على سلخ نفسه منها والنظر إليها كأنما ينظر من خارجها، فيراها بعين النقد والتمحيص. وتلك درجة من الامتياز. ولكنها ليست كل درجاته. فهناك مرحلة أخرى هي إنكار ما يراه من خطأ في سير المجتمع، وإعلان هذا الإنكار. أي عدم الاكتفاء بالمعرفة السلبية.

ومرحلة أخرى: هي الدعوة إلى إصلاح هذا الفساد، والعمل على هذا الإصلاح.

ولكن الدرجة القصوى هي القيادة هي التصدي للإصلاح بإيمان كامل يستولي على نفس صاحبه، فيصبح شغلها الشاغل لا تملك أن تتخلى عنه... يصاحب هذا الإيمان مقدرة على العمل في سبيله، وفطنة لأفضل السبل لتحقيق الغاية... ثم قوة أخرى كأنها السحر، هي موهبة التأثير في الآخرين، تأثيراً يشبه العدوى، يسري في نفوس الناس خفية، فلا يبصر أحدهم إلا وهو متأثر منساق إلى العمل كأنما يطيع هاتفاً يهتف به من داخل نفسه.

وتلك أقصى درجات العظمة الفردية دون جدال..

ولكن ينبغي ألا نغفل أن المجتمع لا يستجيب بسهولة إلى هؤلاء. وتلك عقبة كئود طالما شكا منها المصلحون جميعاً وعلى رأسهم الأنبياء..

إن المجتمع ليعصي داعي الخير الذي يتقدم به الأنبياء والمصلحون، ويظل يقاوم ما وسعته المقاومة، حتى تنهار مقاومته بالتدريج. ولكنه عند ذلك يندفع في التيار الجديد اندفاعاً حماسياً حاراً، كأنه يكفر عن سابق خطيئته.

وشكوى الأنبياء والمصلحين على حق، خاصة وهم على يقين من أنهم يدعون إلى الخير، وأن الناس على الباطل.

ولكن هذه المقاومة ليست شراً خالصاً في كل حال! فلولا المقاومة العنيدة لكل دعوة جديدة، لأصبح الأمر فوضى، ولكن كل مأفون تقوم في رأسه فكرة يتمكن من الوصول بها إلى أقصى الغاية في وقت قصير... وفي ذلك من الخطر ما فيه..

بل إن مقاومة الفكرة –فيما عدا الرسالات السماوية بطبيعة الحال– ليفيدها هي ذاتها إذ ينضجها ويبصِّرها بما قد يكون خافياً عليها عند البدء. فقد تدفع الحماسة بصاحب

الفكرة أن يجعل فيها من الخيال أكثر مما يطيقه الواقع، فتعدل المقاومة طريقته وتردها إلى الحقائق. أو قد تكون الفكرة بأكملها سابقة لأوانها الذي تستطيع أن تؤتي ثمارها فيه فتقتلها المقاومة مؤقتاً، حتى تتهيأ لها الظروف...

أو قد تكون الفكرة صالحة ولكن القائم بها غير صالح، أو غير كفء لها، فتظهره المقاومة على حقيقته، وتقف به عند حده الذي تهيئه له طبيعته. ولو لم يحدث ذلك لكان الضرر محققاً في قيام شخص ضئيل الطاقة بدعوة لا يطيقها كيانه، فيفسد ما فيها من خير لا محالة... ولو على غير قصد منه.

وهكذا تكون المقاومة أداة للتمحيص، ثم يستقر الخير في آخر المطاف: "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ".

* * *

كنا إلى هذه اللحظة نتحدث عن الشذوذ الذي يصيب الأفراد حين يبالغون في الإحساس بفرديتهم، والانحرافات التي تصيب المجتمع نتيجة لتهاونه في ردهم إلى صوابهم. واستطردنا من ذلك إلى وصف بعض العوامل التي تتفاعل في بنية المجتمع والأفراد.

والآن ننتقل إلى الطرف الآخر، حين يخضع الإنسان أو يراد له أن يخضع لنزعته الجماعية إلى آخر المدى، وعلى حساب كيانه الفردي.

في المرة السابقة كان الاعتداء موجهاً من الفرد؛ وقد رأينا كيف أصاب الضرر المجتمع أولاً، ثم ارتد في آخر الأمر إلى الفرد. وسواء أن يكون هو الفرد نفسه، أو يكون نسله في الأجيال التالية له، فالإنسانية لا تنقطع عند جيل معين، وإنما للأنانية الكريهة التي تقول: نفسي أولاً، وليكن بعد ذلك ما يكون.

وفي هذه المرة نجد أن الاعتداء موجه من المجتمع إلى أفراده. ووضع المسألة على هذه الصورة يوقعنا في الخطأ الذي يرسم خطأً وهمياً بين المجتمع والفرد. ولكن الذي يحدث في الواقع هو أن فرداً مستبداً أو جماعة من المستبدين، يخضعون لسلطانهم الجائر بقية المجتمع، ويفرضون عليه نظاماً معيناً، تضيع فيه شخصية الفرد المستقلة، ولا يبقى له إلا كونه فرداً في القطيع، يتجه دائماً حيث يراد له، لا حيث هو يريد. فقولنا: إن المجتمع في هذه الحالة يقضي على كيان الفرد مجاز يشبه الحقيقة، لأن المجتمع الذي يستنيم لمثل هذا القهر من حكامه الدكتاتوريين، لا يسمح لفرد من أفراده أن يفكر على طريقته الخاصة، أو يكون له

رأي في أمور بلاده أو أمور الدنيا عامة، غير الرأي الرسمي الذي تريده الدولة. والمجتمع يصنع ذلك واعياً في أول الأمر، ثم يصنعه بحكم العادة بعد ذلك. وإن كانت الدولة لا تأمن أبداً أن تظل هذه الاستنامة إلى الأبد، ولا أن يسلم الأفراد كيانهم الذاتي لها عن طيب خاطر، مهما يكن الخير الذي يحصلون عليه من هذا التكتيل الجماعي، المفروض عليهم بسلطان القانون وجبروته. ولذلك فهي تلجأ إلى وسائل شتى تختلف بين اللين والشدة، تحاول بها أن تستولي على أرواح القطيع، فينقاد إليها رغباً ورهباً.

فهي أولاً تشرف إشرافاً كاملاً دقيقاً على تربية الأطفال، في محاضنهم أيام الطفولة المبكرة، ثم في مدارسهم الابتدائية والثانوية، ولا تتركهم حتى في الجامعة. بل تظل تشرف عليهم وتراقبهم في حياتهم العملية، سواء كانوا عمالاً في المزارع والمصانع، أو كانوا معلمين أو مهندسين... أو أي لون من الحرف والفنون.

وحين تتسلم الدولة الطفل منذ منشئه، تعمل على أن تبذر في نفسه الغضة الطيعة أن النظام القائم هو خير نظام أخرج للناس على الأرض، وأن كل ما سواه منحط متأخر. وتتفنن في ذلك بكل الوسائل الممكنة، حتى ينطبع الطفل انطباعاً لا شعورياً على "حقائق" معينة، لا يناقشها، بل لا يفكر في مناقشتها حين ينضج فكره في المستقبل.

وتبذل الدولة جهداً ضخماً في ذلك، حتى تتوصل إلى الربط الكامل بين ذاتية الفرد وبين النظام الذي يعيش فيه، بحيث لا يحس أن له وجوداً –أو يمكن أن يكون له وجود– إلا في داخل هذا النطاق المرسوم، وأنه لو خرج عنه تهددته الكوارث وتخطفته الأعاصير، كالسمك إذا خرج من الماء، أو الطير الغض لو خرج من العش!

وهي تمد هذا الارتباط اللاشعوري بين كيانه وكيان النظام، برصيد ضخم من الدعاية تستغل له كل وسائل الإعلام، من صحف وسينما وإذاعة وكتب... الخ.

ثم لا تكتفي بذلك كله؛ فقد يندّ بعد هذا المجهود الجبار فرد أو أفراد، لا تفلح فيهم التربية ، ولا تؤتي ثمارها المرجوة! فعند ذلك تلجأ الدلولة إلى المراقبة، عن طريق الجاسوسية التي تشكك الوالد في ولده، والولد في أبيه، والزوج في زوجته، والأخ في أخيه، فضلاً على زمالة العمل في المصانع أو الدواوين. فعندها لا يجسر أحد أن يبوح بغير ما تريده الدولة من أفكار، وتقبر أولاً بأول كل فكرة ناشزة أو تفكير مستقل. وإلا فالموت لمن يعارض، والويل لمن يثور!

ورغم ذلك فإن الأمور لا يمكن أن تستقيم بهذا الوضع من الناحية النفسية. فالفرد مجبول على أن يحس بذاتيته، وفي نفسه نزعات فردية لا يمكن القضاء عليها ولا بقوة الحديد والنار... لذلك تلجأ الدول الدكتاتورية إلى إطلاق حرية الفرد في الميدان الحيواني، لتعوض عليه ما سلبته من حرية وإرادة في ميدان العمل وميدان الفكر والشعور، ولتنفس عن الطاقة المكبوتة في نفوس الأفراد، لكي لا تتجمع وتتكتل، فتكون خطراً على الدولة والنظام!

وسواء كان إهمال القيم الخلقية في النظم الدكتاتورية ناشئاً من أنها بطبيعتها –في الغالب– دكتاتوريات هابطة من الوجهة الإنسانية، أو كان ضرورة للتنفيس عن المكبوتين، وشغلهم بملذات الجسد المتاحة، عن إعمال الفكر واعتناق المبادئ "الخطرة!" أو كان مرده إلى هذا وذاك.. فإن الواقع المشهود أن الدكتاتورية الفكرية تلتقي دائماً مع الانطلاق الحيواني الشديد.

ولا شك أن هذه الدكتاتوريات تؤدي خدمات ما إلى القطيع الذي تكبله وتقوده، فالشعب في روسيا الشيوعية خير مما كان أيام القياصرة وحكم الإقطاع. وقد استطاع النظام الجديد أن يحقق عدالة اقتصادية لم تكن تتاح من قبل لهذا القطيع ذاته، حين كان يستغله أصحاب الأملاك فيمتصون دمه، ويتركونه جثة تعمل فيها الأمراض والأوجاع، وتلقي بها في النهاية بين ركام الثلوج، وفي صقيع الفقر والحرمان.

ولكن عيبها، ككل دكتاتورية على وجه الأرض، أنها لا تساير طبائع الأشياء، وتهبط بالإنسان من آفاقه العليا كائن له إرادة حرة وكيان مستقل. صحيح أن إرادته يحدها الصالح العام، وكيانه المستقل يخضع لقدر من الإشراف يتحقق به في النهاية صالح الفرد ذاته، بتحقيق صالح المجموع... ولكن الفرد في المجتمع الحر له رأي في تكييف هذا الصالح العام وفي طريقة تنفيذه. رأي حر يتشاور فيه الناس علانية دون خوف من سلطان الدولة ولا تجسس الرقباء... ومن احتكاك الآراء وتمحيصها تتبلور وتنصقل، فتكون أقدر على الوصول إلى الخير. والفرد حر في مشاعره –التي لا تؤذي غيره– يصوغها كما يشاء له كيانه وبنيته النفسية الخاصة. حر في نظرته الشخصية التي ينظر بها إلى الحياة والكون في حدود الإطار العام الذي يتحرك فيه الجميع متعاونين غير متصارعين. وحر في اختيار العمل الذي يناسبه ويشعر أنه ميسر له...

ومن هذه الحرية تنبع الأفكار "التقدمية" وتؤثر في تطور البشرية. ومن الدوافع الفردية، دوافع الملك، وتحقيق الذات، والرغبة في التميز والبروز، يتقدم العلم والصناعة والإنتاج. ومهما كانت الأهداف الجماعية فلا يمكن أن تكون في قوة النوازع الفردية. ومهما ارتقت الإنسانية فإنما ترتقي في حدود فطرتها. وقد يصل إلى الذروة أفراد، فيحسون أن كيانهم الذاتي

لا يتحقق إلا حين يهبون أنفسهم للجماعة. ونحن نحب هؤلاء ونمنحهم من إعجابنا الشيء الكثير، ولكنهم بعد ذلك أفراد.. أما الأغلبية الساحقة من الناس ففي حدود فطرتهم يكون ارتقاؤهم، وليس في وسعهم —أو على الأقل لم يسعهم حتى اليوم– أن ينحّوا دوافعهم على طول الخط.

وإن إنكار حق الفرد الممتاز في القيادة والتوجيه لجريمة مزدوجة: فهو أولاً يبدد طاقة بشرية من نوع نادر متميز، كان يمكن أن يستفيد بها المجموع لو أتيحت لها الفرصة المناسبة. وهو كذلك يظلم هذا الفرد حين يعامله معاملة الأفراد العاديين، بدعوى المساواة المطلقة بين الجميع. فطالما أن الناس مختلفون في طاقاتهم الفردية، واستعداداتهم الجثمانية والفكرية والنفسية، كما يختلف كل شيء في هذا الكون بين القوة والضعف، والعظمة والضآلة، فدعوى المساواة المطلقة خرافة حمقاء، أو ظلم لا يقف ضرره عند حد.

وعبثاً يزعم دعاة الشيوعية أن مكانة الفرد عندهم محفوظة، وأن الامتياز موضع تقدير الدولة ومكافأتها. فالواقع أنهم في فلسفتهم النظرية ينكرون أن هناك فرداً ممتازاً بالمعنى الذي نقصد إليه، ويزعمون أن الفرد هو نتاج المجتمع الذي يعيش فيه، وهو يمثله فحسب، فلا يمكن بحال أن يشذ عنه. وغاية ما قد يتميز به عن غيره من أفراد القطيع، أن يكون مزوداً بقدرة على "فهم" الأمور على وضعها الصحيح! أما الذاتية المتميزة، التي تقدر على القيادة، والتي تتفوق على مجتمعها بحيث تؤثر فيه أكثر مما تتأثر به، وتدفعه إلى تغيير عقائده ونظم حياته، بمقدرتها الفذة على التأثير والتوجيه، فتلك كلها خرافة لا وجود لها إلا في نفوس المتأخرين من أمثالنا، الذين يؤمنون مثلاً بأن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد استطاع أن يغير وجه البشرية بما أوحي إليه من عند الله، وبطريقته في تنفيذ ما أوحي إليه؛ تلك الطريقة التي تعكس شخصيته الفذة العميقة، التي ترتفع في قوتها وتوازنها مع تعدد جوانبها، إلى قمة البشرية في تاريخها الطويل[1]. والذين يؤمنون كذلك بأن عمر بن الخطاب — بشخصيته الذاتية التي استطاعت أن تستلهم روح الإسلام —قد أنشأ نظاماً للدولة الإسلامية، وأشرف على إقامة مثل عليا في سياسة الحكم وتنظيم المجتمع، كانت كلها قائمة على وجوده الشخصي إلى جانب قيامها على بقية العوامل الأخرى، وقد رأينا أن كثيراً من هذه العوامل قد انهار حين تولت أمور المجتمع الإسلامي شخصيات أخرى من نوع آخر...

(1) يميل بعض المسلمين إلى التطرف فيجعلون الفضل كله في الرسالة لا للرسول. ويميل بعض الأوربيين إلى تعظيم قدر محمد صلى الله عليه وسلم، ليصلوا بذلك إلى غاية خبيثة هي نفي وجود الرسالة. والذي أراه أن كلا الرسالة وشخصية الرسول كان له أثر حاسم في إعطاء الإسلام صورته الحقيقية وكل من عند الله.

هذا من الوجهة النظرية في فلسفة الشيوعيين. أما من الوجهة العملية فإن ثلوج سيبريا الباردة ومعسكرات الاعتقال القاسية، في انتظار كل من يسول له امتيازه أن ينتقد شيئاً من النظام الشيوعي، أو يفكر مرة واحدة في انتقاد الإله المسيطر ذي القوة والجبروت. "بابا ستالين"[١]!

على أن الضرر الاجتماعي والفردي للدكتاتوريات لا يقف عند هذا الحد، فهي دائماً تعمد إلى إقامة عدو توجه إليه طاقة الكراهية التي كان يمكن أن توجه إلى الدولة ذاتها لولا الحديد والنار، والسهوب والثلوج؛ وينفس في الوقت ذاته عن الرصيد المكبوت من المشاعر والأفكار، ولكن النتيجة الحتمية لذلك التوجيه هي إقامة البغضاء بين طبقات الشعب الواحد في مبدأ الأمر. فإذا تمت السيطرة الكاملة لإحدى الطبقات، فسحقت غيرها وأفنتها، توجهت طاقة البغض إلى الشعوب الأخرى، وقامت الحرب المؤكدة في آخر الأمر سواء من هذا المعسكر أو ذاك، لتحقيق السيطرة أو لرد الاعتداء، فلا يمكن أن يعيش العالم في سلام وإخاء. والتاريخ يثبت أن كل الدكتاتوريات سواء في هذه الجريمة، أياً كانت الفكرة لتي تقوم عليها وتسند بها دكتاتوريتها.

ولا ينتهي الضرر كذلك عند هذا الحد. فإن طبع الألوف والملايين بطابع الدولة، وصبهم في قوالب متشابهة، إذا كان يؤدي غرضاً نافعاً لجيل من الأجيال، فإن نتيجته هي قتل القدرة على التبصر والتفكير السليم لدى الأفراد، ما دامت الأفكار تأتيهم جاهزة من مصنع الدولة الضخم؛ كالفيتامينات الجاهزة إذا أعطيت للجسم على الدوام لم تستطع أن تؤدي وظيفة الطعام العادي، الذي يهضمه الجسم ويمثله بحريته، فيأخذ منه الصالح، وينفي منه ما يضر. فضلاً على أنها تفسد الجهاز الهضمي من حيث تريد له الفائدة. لأن سنة الحياة التي لم يخترعها الرأسماليون لمصلحتهم الخاصة، ولا يستطيع الشيوعيون أن يغيروها ولو أرادوا، هي أن العضو الذي يتعطى عن العمل فترة طويلة –لضرورة أو لغير ضرورة– يعجز عن العمل في النهاية، ويصبح كأنه غير موجود...

---

(١) كنت قد كتبت هذا في الطبعة الأولى وكان ستالين حياً يسيطر على روسيا بسلطانه المطلق. وكان الشيوعيون في مصر يجادلونني أشد الجدل في هذا الأمر، وينفون أن في روسيا دكتاتورية! فلما مات ستالين جاءت الأخبار من روسيا ذاتها كما يعلم القراء، بأن ستالين كان دكتاتوراً فظًا مجرماً يحكم الشعب بالحديد والنار والتجسس! وقامت الحملات في روسيا لإزالة القداسة من الصنم القديم، وقالت الصحف إن الحكم الفردي المطلق لن يعود لروسيا أبداً!

فحين يتعطل جهاز التفكير الحر عند الفرد، كما تتعطل أجهزة الهضم في الجسم الذي يعيش على الكيمياء الجاهزة يأتي جيل لا يستطيع أن يدبر شئون نفسه، ويكون عرضة لأي سيد يحلو له أن يمتطي القطيع، ولا يفكر، بل لا يستطيع أن يفكر، في صده أو تقويمه، لأن العبيد لا يعرفون كيف يقوّمون السادة، بل لا يتجهون إلى مثل هذا التفكير.

وكيف يضمن أي نظام أن يكون حكامه صالحين على الدوام، إذا فقد أفراده ومجتمعه حرية التفكير، والقدرة على التمحيص والتدبير؟ إن الدستور الإقتصادي الشيوعي ليس قوة ذاتية تفعل فعلها بصرف النظر عن "الناس" و"النفوس". وإنما المفروض في "النظام" أن الاستفادة منه معقودة بقيام حاكم صالح، وشعب له من الوعي والإرادة الحرة ما يقوّم به الحاكم إذا أخطأ. فإذا فقد الشعب إرادته الحرة، الحقيقية لا المسرحية، لم ينفعه النظام في ذاته، مهما يكن في النظم من خير مزعوم!

والقول بأن التوزيع الاقتصادي العادل بمفرده، ودون أية محاولة أخرى لبناء الفرد والمجتمع على أسس نفسية وخلقية صحيحة، كفيل بأن تسير الأمور دائماً على خير وجه، وبأن يظهر المواطن الصالح والحاكم الصالح بطريقة آلية، قول لا يدل إلا على سذاجة التفكير، والجهل المضحك بالنفس الإنسانية ونوازعها[1].

فقصر النظر إذن هو الذي يقتل كيان الفرد في آفاقه النفسية والفكرية العليا، ويعوضه بها انطلاق البهائم في دركها الأسفل، بدعوى أن في ذلك صالح المجتمع وصالح الأفراد.

والتطرف في إخضع الفرد لنزعته الجماعية، كالتطرف في السماح له بأن يستهين بتقاليد المجتمع وأخلاقه ليحقق كيانه الذاتي، كلاهما خطأ، وكلاهما خطر على كيان الفرد والجماعة، إذا لم يظهر أثره العاجل في جيل من الأجيال، فهو لا بد مؤتٍ ثماره البغيضة على مر الأجيال.

والنظام الصالح هو الذي يوازن بين دوافع الفرد ومصالحه، وبين ضفتيه المكونتين له، كفرد مستقل، وعضو في جماعة، كما يوازن بين الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة في نطاق الإنسانية الشاملة الرحيبة..

وذلك ما يهدف إليه الإسلام.

([1]) أقرب الأمثلة على ذلك هو ستالين نفسه الذي تربى في ظل النظام الشيوعي واضطلع بأخطر قسط فيه، ومع ذلك قالت عنه صحف روسيا –بعد موته كما تقدم– إنه كان غلطة لا يجوز تكرارها!

* * *

من الفرد المتوازن ينشأ المجتمع المتوازن، وفي المجتمع الصالح ينشأ الفرد الصالح. تلك نظرية الإسلام. وهي نظرية لا تغفل الفرد، ولا تغفل المجتمع، ولا تبالغ في تقدير واحد منهما على حساب الآخر.

حينما نشأ المجتمع الإسلامي الأول، كان فرد واحد هو الذي تلقى الروح الجديد، وتشبع به، ومزجه بأعماق كيانه، وبكل قطرة من دمه، ذلك هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

ومن هذا الفرد الواحد، انتقلت الفكرة، بل الروح الجديد، إلى خديجة، ثم إلى أبي بكر، ثم إلى علي بن أبي طالب، ثم إلى غيرهم من الأفراد، في بطء وحذر، كأنما هو روح غريب يتلفت حواليه في كل خطوة، ويذرع الأفق كله ببصره قبل الخطوة التالية.

وكل فرد من أولئك المهتدين أصبح في ذاته شمساً مشعة، قبست من النور الأعظم قبسة، فتوهجت، وتألقت، وراحت بدورها تضيء آفاقاً جديدة مما حولها، وتنشر النور العلوي في ركام من الظلام.

وقام المشركون الذين عبت قلوبهم وأرواحهم من ظلمات الأرض، قاموا فزعين مبهورين، يقاومون النور الجديد، وإن كانوا يحسون في أعماقهم أنهم أضعف من أن يقفوا في سبيله. بل هم يزدادون تشبثاً بالظلام، كلما أوغل عليهم النور، كما يتشبث الناس بالجرف المنهار، كلما أوغلوا في الانهيار!

وقامت الحرب بين الهدى والضلال، ولم يكن ثمة بد من قيامها، فتلك سنة الله في الأرض. وأتم الله نوره، فغلبت كلمة الحق "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ" وتزايد "الأفراد" المؤمنون حتى صاروا هم الكثرة الغالبة، وأصبحوا هم المجتمع الإسلامي. وهذه النشأة التاريخية، التي تلتقي في نظامها بكل حركة أخرى حدثت في التاريخ، تؤكد قيمة الفرد المتميز الموجه، الذي ينبثق النور من روحه أول مرة، فينتشر بعد ذلك في الآفاق. ولكن الأمر في الإسلام أشد وضوحاً وأعمق غوراً. فكل الحركات الأخرى، والأوربية منها خاصة، كانت عوامل قيامها كلها أو معظمها كامنة في المجتمع ذاته، بحيث كانت الثورة هي الخطوة الطبيعية المنتظرة من تفاعل الظروف؛ ومن ثم ينطبق عليها التفسير المادي أو الاقتصادي للتاريخ.

ولكن هذا لم يكن شأن محمد صلى الله عليه وسلم وشأن الإسلام. وليس معنى ذلك أن الإسلام كان غريباً كله على المجتمع العربي الذي ولد فيه، وانتشر منه. فلو لم يكن هناك استعداد للاستجابة إلى هذا الدين الجديد، ما استطاع –بأي جهد– أن يثبت أركانه. ولكن الذي نريد أن نثبته ونؤكده أن الواقع المادي والاقتصادي للعرب في الجزيرة العربية ، بل للعالم أجمع حينذاك، لم يكن يؤدي –بطريقة ذاتية– إلى ظهور هذا النور الجديد، بنفس الطريقة التي قامت بها الثورة الفرنسية أو الثورة الشيوعية. وبعبارة أخرى لو لم يبعث الله رسوله بهذا الدين، لما اهتدت البشرية من تلقاء نفسها إليه في تناسقه العجيب، وتمشيه الكامل مع الفطرة الإنسانية، واستجابته لكل مطالبها في توازن شامل دقيق.

لذلك كله ينظر الإسلام إلى الفرد على أنه في ذاته كائن جدير بالاحترام والتقدير. ومجرد الإسلام أي الاهتداء بنور الله، والامتزاج به، يعطي المسلم هذا التقدير في شعور المجتمع الإسلامي، لأنه يرى فيه نفخة من الله كرمه بها، وارتفع به عن مستوى السوائم من المشركين والملحدين، الذين ينظر إليهم المسلم على أنهم كائنات ممسوخة، هي "شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ".

ومجرد الإسلام يعطي المسلم حصانة من الاعتداء، تصون له كرامته الإنسانية وحقوقه البشرية: "كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله". فلا يجوز قتله –بغير الحق– ولا تلويث عرضه، ولا التعرض لماله إلا بالحق، بل لا يجوز جرح كرامته باللمز والتنابز بالألقاب في المواجهة، ولا بالغيبة في غيابه، ولا التجسس عليه، ولا دخول بيته بغير إذن...

فإذا رجعنا إلى الصورة التي رسمناها للعلاقة المتبادلة بين كل فرد وكل فرد في المجتمع، أدركنا في الحال أن هذا التكريم للفرد يشمل كل فرد، فيشمل المجتمع كله في نفس الوقت. وهذا ما نقصد إليه حين نقول: إن الإسلام يشمل الفرد والمجتمع بنظرة واحدة شاملة.

ووسيلته إلى ذلك هي تكوين الفرد المتوازن. فمثل هذا الفرد بطبيعة توازنه، لن يعتدي على حقوق غيره، لأن الاعتداء ينشأ من الإسراف، أي من عدم التوازن في نفس الفرد من الداخل. وحين يكون كل فرد متوازناً في ذاته، يتكون بطريقة ذاتية مجتمع متوازن الأغراض والنزعات.

لذلك يعني الإسلام عناية شديدة بكل فرد على حدة، لأنه الوحدة التي ينشأ المجتمع من اجتماعها بغيرها من الوحدات، واللبنة التي يقوم عليها البناء.

وعناية الإسلام بالفرد طفلاً ومراهقاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، قد تشبه في بعض مظاهرها عناية الدول الجماعية، ولكنها تختلف عنها في جوهرها أشد الاختلاف.

ففي تلك الدول الجماعية تشرف الدولة بنفسها على تنشئة الأطفال بوسائلها الخاصة، وعلى يد أشخاص معينين هي التي تنتدبهم لهذا العمل، وتراقبهم في أثناء قيامهم بواجبهم، رقابة علنية حيناً وسرية على الدوام. ذلك لأنها لا تثق بهم، ولا تستطيع أن تكلهم لضمائرهم، لأنها لا تعنى بتربية هذا الضمير. كما أن موضع التقديس الذي تربط به المشاعر والأفكار وتنشأ عليه الأجيال هو "الدولة" لا العقيدة، وهو "الحاكم" ذو السلطان.

أما الإسلام فلا يحتاج لشيء من ذلك كله، لأن إيمان أهله به، الإيمان الذي يصلهم بالله مباشرة، يعبدونه دون شريك من دولة أو سلطان، يجعلهم يتطوعون بتنشئة أولادهم على عقيدة الإسلام، لا يرجون من وراء ذلك مغنماً، ولا يصنعونه خوفاً من حاكم أو رقيب، إلا الله الذي يخلصون له أرواحهم ويسلمون له أنفسهم.

بل لا يحس الأب المسلم والأم المسلمة حين ينشئان أبناءهما على عقيدة الإسلام أنهما قد "تطوعا" بشيء، بل هو واجبهما الطبيعي الذي لا ينتظران من أحد أن ينبههما إليه، فهو البديهية الأولى في حياة الأسرة، لا تحتاج إلى تفكير.

وحين يربي الآباء والأمهات طفلهم على المبادئ الإسلامية الصحيحة، فهم أولاً: لا يكبتون رغائبه وأشواقه لأن الكبت مناف لطبيعة الإسلام. بل يضبطون نزعاته الفطرية وينظمونها، ويربون في نفسه تلك الإرادة الضابطة التي تتحكم في تصريف الطاقة الحيوية، فلا هي تستأصلها من منبتها، ولا هي تطلقها بدون حدود. وبذلك ينقذ الطفل بما لا يمكن أن ينشأ في نفسه من اضطرابات عصبية ونفسية، تكون في مستقبل أمرها خطراً لا على الفرد وحده، بل على بقية المجتمع كذلك، إن لم يكن بتوجيه هذا الفرد إلى الجريمة، فعلى الأقل بتبديد طاقة حيوية نافعة.

وهم ثانياً: يبذرون في نفسه بذور الأخلاق التي ترتفع بمشاعره، وتتسامى بها عن الأنانية البغيضة التي تؤذي الغير حباً في أكبر قسط من الاستمتاع.

وهم ثالثاً: يقيمون في نفسه ضميراً حياً، يراقب أعماله ويحاسبه عليها أولاً بأول، ليضمنوا أن يطيع دافع الخير، ويمتنع عن دافع الشر، لا خوفاً من السلطان القاهر في الخارج، ولكن طاعة لله، وحباً في أن يعيش الإنسان مع غيره في سلام ومودة وإخاء.

وهم أخيراً: يربون فيه الأنفة والعزة التي تستنكف أن تخضع لإرادة بشر على ظهر الأرض إذا خالفت إرادة الله، والتي لا تقبل الظلم يقع عليها من مخلوق.

والحديث بالتفصيل عن وسائل التربية على الطريقة الإسلامية الصحيحة ليس مجاله في هذا الكتاب، فهو مبحث مستقل يمكن أن تؤلف فيه الكتب المطولة. وحسبي أن أذكر المبادئ العامة التي تشير إلى الطريق[1].

فإذا ربينا الطفل على هذه المبادئ –وتلك مهمة تقوم بها الأسرة دون قهر من الدولة ولا تجسس منها– أصبح لدينا أفراد متوازنون، ينشئون بطريقة ذاتية مجتمعاً متوازن الأركان، يقوم على الحب لا على البغضاء[2].

ولكن الإسلام، مع اعتماده الشديد على هذه التربية الفردية في إقامة المجتمع الصالح، لا يستطيع أن يكل إليها وحدها تنفيذ المبادئ الإسلامية كاملة. فلا بد من أنظمة خارجية تقوّم تلك التربية الخاصة، وتعاون على تركيزها وتثبيت أركانها.

ومن هنا يلجأ الإسلام إلى إقامة نظمه كلها في سياسة الحكم وسياسة المال على أساس من الشريعة الإسلامية. وقد أشرت في مرة سابقة إلى أن القانون الإسلامي يختلف في طبيعته عن كل القوانين الأرضية الأخرى، في أنه لم تضعه طبقة لصالحها الخاص، ضد طبقة أخرى، ولا فرد لمصلحته ضد بقية الأفراد. وإنما هو الله الذي وضعه وأنزله. ولا يمكن بداهة أن يكون الله سبحانه قد حابى فرداً على حساب فرد أو طبقة على حساب طبقة، لأن الناس جميعاً بالنسبة إليه سواء، هو الذي خلقهم وإليه مرجعهم، لا يتميزون عنده إلا بالتقوى. فإذا كان القرآن يقول: "وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ" "وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ" فهذا تقري للأمر الواقع لا في المجتمع الإسلامي وحده، بل في كل

([1]) كتبت بعد هذه الإشارة الموجزة كتاباً عن التعليم في مصر –لم ينشر بعد– يشتمل على فصل عن التربية الإسلامية ثم أخرجت كتاباً بعنوان "منهج التربية الإسلامية" شرحت فيه نظرية الإسلام التربوية بقدر من التفصيل.

([2]) لفرويد رأي في أن الإنسانية تقوم على مشاعر الكره، أو بالأحرى على الصراع بين الكره الأصيل المكبوت، والحب المفروض عليه من قوة خارجية قاهرة. وقد ناقشت هذا الرأي في فصل قادم عن "القيم العليا" وقلت: إن الرأي الذي أرجحه هو أن الحب أصيل في البشرية، وإنما ينشأ الكره من احتكاك مصالح الأفراد، فإذا استطعنا أن نقلل هذا الاحتكاك إلى آخر مدى ممكن، كان لنا أن نتوقع أن تقوم البشرية على الحب والمودة والإخاء.

مجتمع على ظهر الأرض. والمجتمع الشيوعي ذاته، الذي زعم أنه سيطبق المساواة المطلقة، يعترف بأن المهندسين لهم امتيازات خاصة، ليست لبقية "الطوائف" لأنهم يقومون بخدمات جليلة في النظام الصناعي تبيح لهم هذا الامتياز، كما يقول الشيوعيون مفاخرين: إن رجال الأدب والفنون هم "الطبقة" المميزة في الاتحاد السوفيتي، لا في الأجور فحسب، بل في كل متع الحياة.

وإذا كانوا يماحكون بعد ذلك في طبيعة هذا الامتياز ومداه، فالمهم —من حيث المبدأ– أن التمييز موجود، وتلك هي السنة الطبيعية ما دام الناس مختلفين في استعداداتهم ومواهبهم. ولكن هذا الامتياز في الإسلام لا يبيح لأحد حقاً إنسانياً أكثر من غيره من الأفراد. فأفقر فقير في الأمة الإسلامية له نفس الحقوق البشرية التي لغيره، أياً كان غيره. له حصانة الدم والعرض والمال والكرامة الإنسانية. له أن يقول للحاكم كما قال رجل من المسلمين لعمر بن الخطاب: "والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيف" فلا يغضب عمر ولا يعتبر ذلك إهانة، بل يحمد الله على هذه الروح المعجبة التي أشعرت هذا الرجل بإنسانيته الكاملة أمام الحاكم ذي السلطان، فيقول راضياً مغتبطاً: "الحمد لله الذي جعل في أمة عمر من يقوّمه بحد السيف"! والحصانة التي جعلت عمر يقول "اسمعوا وأطيعوا" فيقول له فرد من المسلمين "لا سمع لك علينا ولا طاعة". فإذا سأله "ولِمَ؟" طلب منه أن يبين من أين له ذلك الثوب الذي يكتسي به، وهو رجل طوال، لا يكفيه البرد الذي ناله كفرد من المسلمين، فلا تأخذ عمر العزة بسلطان الخلافة، بل يبتسم وينادي ابنه عبد الله فيسأله: "نشدتك الله! هذا البرد أهو بردك؟" فيقول عبد الله: إنه تبرع بنصيبه لأبيه ليتسنى له الحصول على ثوب يناسبه. فعند ذلك يقول الرجل: "الآن مر، نسمع ونطع!"

ذلك أن الحاكم في الإسلام لا يمثل طبقة ولا بيتاً ولا طائفة. إنما هو رجل من المسلمين اختاروه بالشورى، وبملء حريتهم لينفذ شريعة الله، لا شريعته الخاصة. شريعة الله التي تسوّي بين الجميع في الكرامة الإنسانية وحق الحياة. ونصيب الحاكم من هذه الشريعة هو نصيب كل فرد آخر من المسلمين، لا امتياز له إلا حق الهمينة والإشراف، وحق السمع والطاعة من المحكومين، طالما كان ذلك كله في حدود شريعة الله. فإذا شذ عنها ابتغاء مغنم لنفسه أو أهل بيته، أو طبقة من المسلمين دون طبقة، سقطت طاعته على حد قول أبي بكر: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم".

بقيت مسألة خطيرة هي مسألة المال، أو المشكلة الاقتصادية، وهي ركن أساسي من أركان المجتمع لا يقوم له بدونها كيان. وقد تزعم الشيوعية أنها هي التي اكتشفت أو اخترعت العدالة الاجتماعية في القرن العشرين. وقد يتابعها المستغفلون في الشرق الإسلامي، فيفتحون

أعينهم مبهورين بما هناك، ويقولون: انظروا! هذه هي العدالة، لا الإسلام الذي يبيح الملكية الفردية بدون قيد ولا شرط!

وليس أكذب من هذا على الحق والتاريخ. فالحقيقة أن العدالة الاجتماعية – الاقتصادية– هي الركن الركين في الإسلام، لا على الأسس الشيوعية المحدودة، التي تنتهي عند ضرورات الجسد، وتهبط بالإنسان إلى مستوى الحيوان، وإنما على أساس إنساني شامل رفيع، يشمل عدالة المال كاملة، ويضيف إليها العدالة الإنسانية في أعلى الآفاق.

وعلى ما لهذه النقطة من الأهمية البالغة في كيان المجتمع، فإني لا أملك في بحث نفسيّ أكثر من الإشارة إليها. وقد تكفل بشرحها بطريقة وافية دقيقة كتاب "العدالة الاجتماعية في الإسلام" لسيد قطب. ومنه أخذنا فكرة التوازن في المجتمع الإسلامي. وتلخيصها في أبسط صورة: أن المال ليس ملكاً حقيقياً لأحد، وإنما هو مال الله يستخلف فيه الجماعة. والمالك موظف فيه بعمله وجهده، وحسن التصرف فيه. فإذا أساء التصرف فيه عاد حق التصرف فيه إلى الجماعة. كما أن لولي الأمر في كل وقت أن يسترد الفائض من المال إذا اقتضت الضرورة ذلك، لموازنة المجتمع، ودفع الضرر الذي ينشأ لا محالة في مجتمع غير متوازن.

فإذا وجدت العدالة الاجتماعية –الاقتصادية والإنسانية– التي لا تحرم الفرد من نشاطه الحيوي المعقول، وتقف به في الوقت ذاته عند الحد الذي لا يؤذي الآخرين، أمكن أن تقوم العلاقة بين الناس في المجتمع الإسلامي على الود والإخاء، لا على التشاحن والبغضاء. ولم تكن هناك "طبقة" واحدة وأخرى محرومة. بل "أفراد" يملكون، بوسائل محددة واضحة، ودولة أو حاكم، يأخذ فضول ما يملك هؤلاء فيردها إلى الفقراء لأنها حق لهم، لا منحة يمنحونها. حق تعطيه إياهم الدولة وهم كرماء على أنفسهم وعليها، لا أذلاء ولا مستضعفون.

وليس من الضروري في كل حالة أن تعطيهم إياه نقداً وعيناً. فهي تستطيع أن ترده إليهم ومدارس ومستشفيات ومساكن صحية ومواصلات رخيصة... إلى آخر ما يمكن تصوره من التسهيلات[1].

ولا بد هنا من بيان حقيقة تاريخية هامة. فمما لا شك فيه أن المجتمع الإسلامي لم يحقق بعد أبي بكر، تعاليم الإسلام وروحه كاملة في مسألة المال وفي طريقة الحكم. ولكن هذا لا يعني أن الإسلام نظام خيالي أو مثالي[2]، فإن تحققه كاملاً في عهد الشيخين يقطع

---

(1) في كتاب "شبهات حول الإسلام" بعض التفصيل لهذه الموضوعات.

(2) في كتاب "شبهات حول الإسلام" بعض التفصيل لهذه الموضوعات.

بأنه ممكن التطبيق. وقد استطاع عمر بن عبد العزيز، بعد فترة من قيام الحكم الأموي أن يعيد الإسلام سيرته الأولى في كل شيء.

وإذا كان المسلمون قد انحرفوا في الماضي عن تطبيق مبادئ الإسلام كاملة في سياسة الحكم وسياسة المال، فلعلهم اليوم أقدر على ذلك، على ضوء تجارب البشرية التي اقتربت — في بعض جوانبها– من الصورة الإسلامية وإن اختلف الأساس كل الاختلاف.

وفي الإسلام لا تتدخل الدولة ممثلة المجتمع في الحرية الشخصية للأفراد. ولكن الحرية الشخصية هنا شيء آخر غير ما تفهمه الدول المنحلة، التي تترك أفرادها يعيثون فساداً في الأرض باسم الحرية الشخصية.

فقد رأينا تدخلها في مسألة المال لحماية المجتمع من أخطار عدم التوازن، التي تؤدي إلى الفتن والثورات وانحلال عقدة المجتمع، بسبب وجود الترف المجرم من جانب، والحرمان الكافر من جانب آخر. وهنا يفترق الإسلام افتراقاً أساسياً عن الدول الرأسمالية التي تترك حفنة من الناس أحراراً في استعباد بقية الشعب، لمصلحتهم الخاصة. وإذا كانت بعض هذه الدول الرأسمالية قد اهتدت أخيراً جداً إلى نوع من التوازن، عن طريق نظام الضرائب التصاعدية، أو تأميم وسائل الإنتاج، فقد سبق الإسلام في ذلك كله، وفيما هو أوسع منه، قبل أن تنشأ الشيوعية التي أخافت هذه الدول فأجبرتها على التعديل. فلم يكن نظام الإسلام اضطراراً لمواجهة خط أجنبي محدق، وإنما كان تطوعاً وإنشاء، في فترة كانت أوربا فيها تعيش في ظلمات الجهالة والاستعباد...

ليس استغلال الآخرين إذن حرية شخصية في الإسلام.

وكذلك الانحلال الخلقي أمر غير مباح. وحكمة تحريمه واضحة بعد كل الأمثلة التي ذكرناها من قبل، والتي تبين الأثر السيء الذي ينتج من هذا الانحلال على مدى الأجيال. وليس الإسلام من قصر النظر بحيث ينظر إلى جيل واحد كأنه مقطوع الصلة بما قبله أو بعده من أجيال. فالإنسانية حلقة مستمرة. والذي نصنعه اليوم يؤثر حتماً فيما يحدث غداً. وأبناؤنا الذين نربيهم ونحن منحلون، أو نهمل تربيتهم لهذا السبب، سيكونون أكثر انحلالاً في الجيل القادم، لأن الإفلات من القيود والارتداد إلى الحيوانية أسهل على الأفراد والمجتمعات من ضبط الشهوات ومحاولة الارتفاع. ومن هنا كانت التربية الرشيدة واجباً دائماً لا يسقط من الآباء، ولا عن أولياء الأمر في أي جيل من الأجيال.

والاعتداء على الآخرين بأية صورة من الصور أمر كذلك غير مباح. فإصابة أي مسلم في دمه أو عرضه أو ماله أو كرامته أمر لا يجوز لأحد من الحكام أو المحكومين.

فحدود الحرية الشخصية إذن في الإسلام هي عدم الإيذاء للآخرين، سواء كان الإيذاء يقع على فرد بعينه، أو على المجتمع كله. وسواء كان الضرر الناشئ واضحاً لمرتكبه، عاجل الأثر، أو كان خفياً لا يتبين مداه إلا بعد أجيال.

ولا يستطيع أحد مهما أوتي من الجرأة على الحق، أن يماري في أن دفع الضرر أمر واجب. وأن المجتمع، والدولة الممثلة له، مكلفان بعمل كل ما في طاقتهما في هذا السبيل.

وأدق ما قيل في تصوير ذلك هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الدين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً".

تلك هي الحدود المأمونة للحرية الشخصية، وهي الوسط المتوازن بين اتجاهين متطرفين.

ولكن الإسلام يذهب إلى أبعد من ذلك في دفع الضرر، وصيانة المصلحة العامة والخاصة لجميع الأفراد. فهو لا يمنح حق الردع والزجر لولي الأمر وحده، وهو ممثل المجتمع، المكلف بالإشراف على شئونه. بل يجعل كل فرد في الأمة مكلفاً تكليفاً شخصياً بتغيير المنكر، سواء وقع عليه هو أم وقع على أي مسلم في أقصى الأرض، وسواء كان المنكر من الحاكم أو المحكومين: "من رأى منكم منكراً فليغيره". "والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنّه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض".

وهكذا يصبح كل شخص فرداً بالنسبة لنفسه مطالباً بحقوقه المشروعة، ومجتمعاً، أو ممثلاً للمجتمع بالنسبة للآخرين، يسعى لدفع الضرر عنهم كما يدفعه عن نفسه، ويعاونهم على نيل حقوقهم كما ينالها لنفسه. وذلك أقصى الغاية في العدالة المتوازنة، وفي التمشي مع فطرة الأمور.

أما ما يتحقق به النفع الفردي، ولا ينتج منه ايذاء لفرد بعينه، أو لمجموع الأفراد، فالحرية مباحة فيه إلى آخر الحدود.

فكل فرد يختار عمله بنفسه، وبما يرى أنه موهوب فيه. ولا تتدخل الدولة لتفرض عليه لوناً معيناً من العمل، كما تصنع الدول الاستبدادية، بحجة أنها أدرى من الفرد بنفسه، وأدرى منه بحاجات المجتمع! إن المجتمع ينظم نفسه في هذا الشأن بطريقة ذاتية لا تحتاج لتحكم الدولة. وإنما كل واجب الحكومة –وهي المهيمنة على السياسة العامة– أن تهيئ أحسن الفرص للحصول على أحسن نتيجة، وأن تنصح إذا لزم النصح، وتنظر في أن أحداً لم يحرم من فرصته الملائمة بسبب اضطراب الأحوال الاقتصادية أو الاجتماعية.

فإذا كان نظام العمل يعد تقدم الصناعة في العصر الحديث، يستلزم طرقاً وقيوداً معينة، فهنا تتدخل الدولة لرسم السياسة العامة، ولكنها لا تفرض على فلان أن يكون مهندساً، أو طبيباً أو عاملاً في مصنع، لمجرد أنها ترى أن ذلك خير...

والآباء أحرار في أبنائهم، في حدود التربية الإسلامية بطبيعة الحال. فهم ليسوا أحراراً في إفساد أخلاقهم، ولا تركهم بدون رعاية. وللدولة في هذا الصدد حق الإلزام، أو تكليف غيرهم إذا كانوا عاجزين لأسباب خارجة عن إرادتهم. وإنما هم أحرار في الشعور بأن أبناءهم ملك لهم –بعد الله– لا ملك للدولة تتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شئونهم.

إن الدولة الشيوعية –مثلاً– لترى من حقها الإشراف الكامل الدقيق على الأبناء ما دامت هي التي تكفل لهم الغذاء والكساء.. كأنما الحياة كلها هي الغذاء والكساء. أو كأنما يجوز لأحد أن يستعبد أحداً بلقمة الخبز. ألا إنها حطة للبشرية، ونزول بها عن مستواها الكريم في آفاقها العليا، لتكون حاجة جسد وضرورة عيش!! والواقع أن الدول الدكتاتورية تكره رابطة الأسرة كراهية عنيفة. لأنها أولاً تقف في سبيل رغبتها الجامحة في الإشراف بنفسها على تنشئة الأطفال حتى لا يخرجوا على النظام المفروض. وثانياً لأنها تعاكس نظام الجاسوسية الذي لا تقوم الأمور بدونه في ظل الاستبداد. وبدلاً من أن يقروا بتلك الحقيقة السافرة يزعمون أن قوة روابط الأسرة هي من سمات المجتمعات المتأخرة!! وهذا على أي حال اعتراف منهم بأن مجتمعهم "المتقدم" خلو من هذه الروابط الإنسانية!

والفرد في الإسلام حر في أن يمتلك ما يشاء في الحدود العامة التي تمنع الإيذاء، وذلك في مقابل حق الدولة في أن تسترد الفائض من هذه الملكية حين ترى أن المصلحة العامة لا تتحقق بغير ذلك.

وحر في اختيار حاكمه، بانتخاب حر لا تتدخل فيه سلطة الحاكم، ولا نفوذ أسرته، ولا يخضع لضغط أي "طبقة" من الطبقات.

وهو حر على العموم في الاستمتاع بكل طيبات الحياة بالقدر الذي لا يؤذي به نفسه ولا غيره. وحر في التفكير في أمور الحياة على النحو الذي يراه، في داخل الحدود الإسلامية التي تتعرض للأصول العامة في المسائل المتغيرة، ولكنها تترك التفاصيل لكل جيل يحددها حسب حاجاته وملابساته الخاصة. ومن ثم فقد ترك للناس حرية التصرف في تلك الأمور في حدود روح الإسلام بحيث لا يخالفون أصلاً من أصوله العامة. فكل فكرة أو عمل لا يعارض العقيدة ولا المصلحة العليا، مباح للفرد بدون استثناء. والعقيدة ذاتها قد تعرضت لمبادئ عامة هي وحدانية الله وعبودية الناس له وحده دون شريك. ولكنها تركت كثيراً من التفصيلات، ولم تصنع كالكنيسة المسيحية حين حتمت على الناس أن يعتنقوا آراء معينة، من خرج عليها فهو كافر، بينما هذه الآراء لم تكن على صواب من الناحية العلمية، فنتج من ذلك أن كفر الناس بالكنيسة وبالدين. أما الإسلام فقد ترك الناس –مثلاً– يختلفون في مسألة الإسراء هل هو بالروح أم بالجسد، ويظلون مع اختلافهم مسلمين مؤمنين. ويختلفون في وصف الآخرة، وفي أمر آدم هل هو أول الخلق أم هو "خليفة" لأجيال سابقة.. كل ذلك دون أن تمس عقيدتهم أو يعتبروا كافرين.

فالعجب بعد ذلك أن يزعم الشيوعيون أن الإسلام نظام دكتاتوري! وغير هؤلاء كانوا أولى بالكلام عن الحرية، وهم الذين لا يكادون يتنفسون إلا أن تأذن لهم الدولة، وتحدد لهم القدر المباح من الهواء!

إن الذي لا يباح للمسلم، ويعتبر في الظاهر من قبيل الحرية الشخصية، هو الكفر بعد الإيمان، ورفض التحاكم إلى شريعة الله. وعقوبته الصريحة هي القتل.

ولكن الارتداد ليس مسألة شخصية وإن بدا لك في ظاهر الأمر. ولا أحب أن أدخل في جدل مذهبي فأسأل أولئك المتبجحين: كيف كان يجوز أن يُقتل شخص بل مئات وآلاف لأنهم لا يؤمنون بستالين، ثم يباح للناس ألا يؤمنوا بخالق ستالين؟ على أن غير المسلم له أن يعتقد ما يشاء، وليس لأحد عليه سلطان –حتى داخل الدولة الإسلامية– " لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ". وإنما يعاقب المسلم المرتد. فما معنى ارتداده عن الإيمان؟

إن الارتداد عن دين الله بعد الإيمان معناه إفساد نظام لا مجرد تغيير عقيدة فردية. فالإسلام نظام عملي قائم على عقيدة، ومجتمع قائم على هذا النظام. وأوامره –كما رأينا فيما سبق– مفروضة لصالح الفرد أولاً، وصالح المجتمع في الوقت ذاته. فهي إذن ليست مسألة شخصية، وإنما يرجح الضرر والنفع فيها على الجميع.

بل إن عبادة الله الواحد، لترفع الفرد عن أن يستذل لأية قوة أخرى على الأرض، سواء كانت قوة السلطان الجائر، أو قوة المال أو غيرها مما يستذل الأفراد والمجتمعات التي لا تؤمن بالله. وهذا الإيمان يدفع المؤمن الحق، بل يكلفه تكليفاً أن يضرب على يد الحاكم إذا استبد وخرج عن شريعة الله. فليس لصالح نفسه إذن ينفذ الحاكم عقوبة الردة على المرتد. وإنما لصالح الجميع حاكمين ومحكومين.

* * *

الآن رأينا كيف تقوم العلاقة بين الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي.

وهي حين تقوم على هذا الأساس الذي يتسم بروح التعاون والتكافل بين الجميع في الواجبات والحقوق، لا تدع مجالاً لانقسام المجتمع إلى طبقات مستغِلة وطبقات مستَغَلّة. طبقات حاقدة وطبقات محقود عليها. طبقات يتمنى بعضها زوال بعض، وتعمل بينها الكراهية والبغضاء.

ولا تدع مجالاً كذلك لشعور الفرد بأن المجتمع هو القيد الذي يضيّق عليه، أو الغول الذي يتعقبه ليفتك به. ولا لشعور مجموع الأفراد بأن كل واحد من بينهم قوة معادية ينبغي أن تخضع وتقهر، لتسير على هواهم في كل الأمور.

وربما كان المجتمع الإسلامي –في صورته الحقة– أقل المجتمعات عرقلة لنشاط الممتازين من أفراده، طالما أن امتيازهم موجه لخدمة الله الذي يؤمن به الجميع، ويعملون على إرضائه كل بقدر ما يستطيع.

أما الفرد المنحرف إلى أسفل، في تيار الجريمة، فله حكمه الخاص الذي سنبحثه في فصل "الجريمة والعقاب".

وفي مثل هذا المجتمع لا تكون التقاليد سجناً يحبس حرية الأفراد، ولا سخفاً لا موجب له. بل هي الحواجز التي تمنع الطغيان، وتنظم المرور بحيث لا يصطدم الغادرون والرائحون: حواجز إذا أحسها الفرد عائقاً لشهواته الجامحة، فهو يحسها في الوقت ذاته درعاً تحميه هو من جموح الآخرين. ولذلك يرتضيها ولا تضطغن نفسه عليها ولا يعمل على إزالتها. لأنها يوم تزول لن يستطيع وهو فرد محدود القوة والمقدرة أن يصد بمفرده طغيان الجميع.

وأكرر هنا مرة أخرى، أنني لا أزعم أن المجتمع الإسلامي يحوّل أفراده إلى ملائكة مطهرين. ولكني أؤكد في ثقة ويقين أنه يرتفع بهم إلى أقصى ما في طاقة الإنسانية أن ترتفع،

دون أن تبدو عليهم أمارات الكبت والاضطراب. وإنما يرتفعون متطوعين، شاعرين بأن إنسانيتهم التي كرمها الله ورفعها عن الحيوانية البغيضة، لا تتحقق إلا بهذا الارتفاع. وحتى في أظلم العهود الإسلامية وأبعدها عن روح الإسلام في سياسة الحكم والمال، كان الحكام وحدهم هم الفاسقين. وكانت بقية المجتمع تعيش على التعاون الإنساني الرفيع. وكان الخير هو الغالب، وهو الموجه للأفراد فيما يشعرون وما يعملون... فلا يشعر الغني أن ماله ملكه وحده ولا الفقير أنه يعيش وحده منبوذاً في المجتمع.

بل حتى حين انقسم العالم الإسلامي إلى دويلات متنافسة متباغضة، كانت الحكومات وحواشيها هي التي تتصارع. وبقي المسلم أخاً للمسلم في كل أقطار الأرض، يلقاه بالبشر والترحاب، ويعاونه على قضاء حوائجه بكل ما في وسعه من جهد.

*　*　*

ولكن المجتمع الإسلامي على نطاقه الواسع من الهند إلى الأندلس، لم يكن يقصر روحه المتسامية المترفعة على أهله من المسلمين، فقد ارتقى بالروح الجماعية من حدود القبيلة وحدود الإقليم، وحدود الأمة الإسلامية ذاتها إلى أن تكون روحاً إنسانية شاملة رحيبة.

ولم يكن ذلك أمانيّ في الضمير، ولا كلاماً يتشدق به المتشدقون. وإنما هي وقائع يشهد بها التاريخ، نقرر أن الإسلام أول نظام على ظهر الأرض هدف إلى تحقيق المجتمع الإنساني. بل إنه النظام الوحيد الذي صنع ذلك، لا على أساس الاستغلال الاقتصادي، ولا الطمع السياسي، وإنما على أساس إنساني بحت، لا تستطيع أن تفسره كل التمحلات التي يقدمها التفسير المادي أو التفسير الاقتصادي للتاريخ، ويزعم أنها تفسر كل حوادث التاريخ، ومشاعر النفوس.

خرج عمر يوماً فإذا بشيخ يهودي ضرير يسأل على الأبواب فسأله: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسن... وهنا تحركت مشاعر الإنسانية الغامرة عند عمر، فقاده حتى وصل به إلى بيته، وأضفى عليه من رحمته وعطفه، وأمر له بصدقة من بيت المال تكفيه الحاجة والسؤال. وقال لخازن المال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخزه عند الهرم.

لم يكن عطف المسلم على المسلم هو الذي دعا عمر أن يصنع ما صنع. وإنما هو الشعور الإنساني الذي لا يقف عند حد، حتى العداوة للدين. وقد كان اليهود من أشد الحاقدين على الإسلام، وعملوا كل ما في وسعهم لعرقلته وتأليب القبائل عليه.

وهؤلاء هم الأسرى من المشركين، الذين ينظر إليهم المسلمون على أنهم كائنات ناقصة البشرية، يوصي بهم الرسول خيراً. فيفضلهم الآسرون على أنفسهم، فيمنحونهم من الطعام ما لا يكادون يجدونه لأنفسهم، وهم مشتبكون معهم في قتال!!

قال أبو عزيز بن عمير بن هاشم (حين وقع في الأسر): كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر.

وقد كانت معاملة المسلمين لأسراهم على مدار التاريخ مثلاُ من المثل الرفيعة التي أقرّ بها أشد أعدائهم بغضاً لهم من الصليبيين. ولم يكن الدافع إليها اشتراكاً في الدين ولا في المصلحة القريبة أو البعيدة. وإنما هي معاملة لوجه الله، ولوجه الإنسانية في أفقها الرحيب.

وما يزال الغرب المتبربر حتى اليوم، رغم ما يزعم من الرقي والتحضر، لا يصل إلى شيء من ذلك، لا في معاملة الأسرى، بل في معاملة البلاد المفتوحة، بل في معاملة الزنوج الذين يعتنقون ديانة الغربيين أنفسهم، في جنوب أفريقيا والولايات المتحدة..

فأين تلك البربرية المتوحشة من تعاليم الإسلام الإنسانية الرفيعة، التي تشمل البشرية كلها، رغم كل ما بينها من اختلاف المصالح، واختلاف الأجناس والألوان والأديان؟!

بل إن الشعور الإنساني لا يقف عند حد الإنسان، بل يتعداه إلى الطير والحيوان:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى. فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له".

فسألوا: "وإن لنا في البهائم لأجراً يا رسول الله؟ قال: "في كل كبد رطبة أجر".

ويقول: "ما من زارع يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو بهيمة إلا كان له به أجر".

ألا إنها لآفاق لا يملك الإنسان نفسه وهو يتطلع إليها من العجب والإعجاب!

الجريمة والعقاب

الجريمة –في الغالب– اعتداء موجه من الفرد إلى الجماعة. لذلك كان طبيعياً أن تختلف النظرة إلى الجريمة باختلاف النظر إلى طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع.

فأما الأمم التي تبالغ في تقدير حرية الفرد، وترى أن كيانه الذاتي يجب أن يتحقق دون أن تقف في سبيله العراقيل، فهي لا تكتفي بالتساهل في أمر الجريمة، بل تذهب إلى أبعد من ذلك، فترى أن المجتمع هو المسئول عن جرائم أفراده، بما يفرض عليهم من الكوابت والقيود. وترى –تبعاً لهذا– أن المجرم مجنيّ عليه، وهو أحق بأن يعوض عن جريمته لا أن يعاقب عليها!

وعلى العكس من ذلك الأمم ذات النظم الجماعية. فهي تبالغ في الحط من قيمة الفرد ولا تعترف له بكيان مستقل. فتقسو تبعاً لذلك في الحكم على جرائمه ومخالفاته، لأنها في نظرها اعتداء على شيء "مقدس" هو الجماعة، من شيء لا قداسة له في ذاته ولا كيان!

أما الإسلام فله رأي في الجريمة والعقاب ينفرد به بين كل نظم الأرض، ويمسك فيه بميزان العدالة المطلقة –بقدر ما يمكن أن تتحقق في دنيا البشر– فلا يسرف في تقدير حقوق الجماعة، ولا يسرف في تقدير حقوق الفرد، ولا يميل مع واحد منهما على حساب الآخر، وذلك تبعاً لنظرته المتوازنة التي ينظر بها إلى الناس، لا من واقعهم الأرضي المحدود، ولا من زواياهم المتضاربة، بل ينظر إليهم من أعلى، من السماء، فيراهم كلهم في لحظة واحدة، بنظرة واحدة شاملة، تدرك مساربهم المتشعبة، وهي كامنة في داخل أنفسهم، أو وهي أعمال صريحة في واقع الحياة. فحينذاك لا يبدون فرداً وجماعة منفصلين متقابلين، بل يبدون وشائج متصلة، وعلاقات متداخلة، لا يمكن فصل بعضها عن بعض. وتبدو الأرض لا خيراً خالصاً ولا شراً خالصاً، وإنما نسيجاً من هذا وذاك. ينبع الخير من الشر، كما ينبع الشر من الخير. ومن كليهما يتكون نسيج البشرية! وعن هذه النظرة العميقة الشاملة المتوازنة يصدر الإسلام في كل تشريعاته وتوجيهاته: في العبادات والمعاملات، في الاجتماعيات والاقتصاديات، وفي تقدير الجريمة والعقاب.

*   *   *

ولنأخذ في شيء من التفصيل.

في الأمم الفردية تكون ذات الفرد مقدسة... وإذا تتبعنا التاريخ وجدنا أن هذه النظرة حديثة. فأما في الماضي، فكانت القداسة في نطاق ضيق شديد الضيق، لا تشمل إلا السيد

المسيطر على القطيع. وكانت الشعوب هملاً، لا يحسب لها حساب ولا تباح لها حقوق، وإنما تفرض عليها الواجبات والالتزامات من كل جانب. وشيئاً فشيئاً انتقلت القداسة إلى الحاشية المحيطة بالسيد، وإلى الأشراف كطبقة، وإلى رجال الدين، وإلى أصحاب الإقطاع على وجه العموم. ثم قامت الثورات، السلمي منها والدموي، فتغيرت الأحوال على مر الأيام، واسترد القطيع كيانه، ثم أخذ يسيطر بالتدريج، حتى انتقلت القداسة إلى أفراده باعتبارهم مصدر السلطات...

وللشيوعية رأي في أن الناس ما زالوا مستعبدين، وإنما تغير السيد من صاحب الإقطاعية إلى صاحب المصنع أو صاحب رأس المال. والواقع أن الكيان الاقتصادي للفرد في الدول الرأسمالية يخضع خضوعاً كاملاً لسيطرة أصحاب رءوس الأموال. ولكن الحرية الشخصية – فيما عدا هذا– مباحة للفرد في أوسع الحدود، إلى درجة القداسة التي لا ينبغي أن تمس ولو خرجت عن حدود الأدب واللياقة...

وما زلت أذكر خبراً نشرته الصحف العالمية على سبيل التفكهة والترفيه عن القراء، وهو بالغ الدلالة في معناه: ذلك أن جلسة من جلسات الكونجرس الأمريكي تعطلت، لأن امرأة تقطن في عمارة مواجهة للمجلس قد وقفت في شرفتها عارية... تماماً لا يستر جسدها شيء البتة.. فانشغل الأعضاء –المحترمون!– بفتنتها الطاغية، وتعطلت أعمال الدولة، ريثما بعث رئيس المجلس "يرجو" السيدة الفاضلة –أو لعلها آنسة– أن تدخل من الشرفة، أو تكتسي، ليتسنى للمجلس أن ينظر في سياسة العالم!!

وهكذا نرى أن الحرية قد أبيحت في الميدان الذي كان ينبغي أن تقيد فيه، بينما هي مغلولة إلى درجة خطيرة في ميدان آخر كان أحرى أن تعدّل فيه القيود بما يحقق العدالة للجميع.

وكان من نتيجة هذه الإباحة أن توسع الناس في تقدير المدى الذي يذهبون إليه في تحقيق حريتهم؛ ونشأ من ذلك لا محالة أن يعتدي أفراد على حقوق أفراد آخرين، أو على كيان المجتمع بوصفه الإطار الذي يحفظ مصالح الجميع.

وكان القانون فيما مضى صارماً في توقيع العقوبة على الفرد المعتدي، وخاصة حين كان الاعتداء يقع من أحد أفراد القطيع ضد السيد المطاع (ولو لم يكن في الأمر جريمة حقيقية). ولكن العقوبات ظلت تخف بالتدريج، حتى صارت الجريمة الوحيدة التي تشتد الدول الرأسمالية في محاربتها هي الاعتداء على رأس المال. أما الجرائم الأخرى، والخلقية منها خاصة،

فقد صارت تلتمس لها المعاذير، وتخفف العقوبة عليها إلى أقصى حد ممكن، إلى حد اعتبارها أحياناً مخالفة هينة يعالجها القاضي "بكلمتين" وتنتهي المسألة في بساطة ويسر!

وهنا تدخل علم النفس التحليلي ليبرر الجريمة!

يقول ألدوس هكسلي في كتابه (Texts and Pretexts): "إنه لا مناص من أن يقف المحلل النفساني إلى جانب المجرم الخلقي".

وهذا صحيح. فالتحليل النفسي يهبط مع الإنسان من الذروة إلى الدرك الأسفل، يهبط من الشجرة المورقة المزهرة المثمرة، إلى البذرة الغارقة في الطين. فموضع اهتمامه الدائم، ليس هو الإنسان في آفاقه العليا، وإنما هو المنبع الذي تصدر عنه الأعمال، أي الدوافع الفطرية، والطاقة الشهوية الجامحة. والمحلل ينسى –حين يركز اهتمامه كله في هذا الميدان– أن في الإنسان طاقات أخرى غير طاقة الشهوة، من بينها القوة المتحكمة في انطلاق الشهوات.

أو هو لا ينسى، ولكنه ينظر إليها من زاوية أخرى. فهو موكل دائماً بدراسة حالات المرض النفسي، وهذه تنشأ من الكبت، من الصراع الذي ينشب بين الشهوة الجامحة والقيد المفروض عليها من الخارج، أو من الداخل، حين يتلبس الإنسان بالقوة المسيطرة عليه من الخارج، ويتولى عملها في داخل النفس دون أن يحس.

فهو إذن ينظر إلى هذه القيود نظرة الكراهية والبغضاء. ويرى –من وجهة نظره– أنها تجرم في حق هذا الفرد إذ تسبب له آلاماً مزعجة، وتعطل نشاطه، وتبدده فلا يفيد منه أحد.

وبطول مصاحبة الحالات المريضة، والاهتمام بها، يتخذ المحلل النفساني –دون وعي منه تقريباً– اتجاهاً عدائياً نحو القيود كلها، يشمل الضروري منها والزائد عن المعقول[1].

وإذ كان المجتمع هو الذي يفرض القيود، فهو في نظر المحلل النفساني مجرم مجرم مهما برر موقفه، ومهما قال إنه يضع القيود لكيلا تصطدم الرغبات الجامحة والميول المتطرفة!

ولكن المحلل النفسي في وقوفه إلى جانب المجرم الخلقي لا يكون على صواب. وكل ما يقوله في تبرير الجريمة هو في الواقع كلام يفسر ولا يبرر. يفسر الجريمة بشرح الخطوات النفسية

(1) حين كتبت هذا في الطبعة الأولى لم يكن قد تبين لي بوضوح أن وراء فرويد –وعلم النفس التحليلي من بعده– مخططاً تخريبياً، يقوم بتبرير الجريمة، والجريمة الخلقية بصفة خاصة، لتنتشر الجريمة في المجتمع.

المتتابعة التي أدت إلى حدوثها. ولكنه لا يبررها، لأنه -كما قلنا من قبل- يغفل القوة الضابطة في كيان الإنسان، وهي واقع علمي لا سبيل إلى إغفاله، ومن الخطأ ولا شك أن نقيم نظرياتنا وتشريعاتنا على أساس إغفاله أو التهوين من قيمته في الحياة البشرية.

كما ينشأ الخطأ كذلك من اعتبار كل مجرم مريضاً نفسياً، لا إرادة له فيما وقع منه من اعتداء، بل مجنياً عليه من المجتمع، ينبغي علاجه من شذوذه، دون أن يوقع عليه عقاب.

والاعتقاد بالجبرية النفسية هو الأساس الذي يقوم عليه هذا الاتجاه وما يترتب عليه من تشريعات وقوانين. وقد كان فرويد بطلاً مغواراً في هذا الميدان، وإليه يرجع الفضل أكثر من غيره في تقرير هذا المبدأ النفسي الخطير.

وقد تكلمنا من قبل عن فرويد، وبينا ما نعتقده من أسباب شذوذه؛ ووصلنا إلى تقرير هذه الحقيقة: وهي أن تطرفه في تطبيق نظرياته، وإغفاله للجوانب العليا من البشرية، أو الإصرار على تفسيرها بما يلوث نظافتها، هو الذي يقلل من قيمة هذه النظريات من الوجهة العلمية، ويحدد المجال الصالح لتطبيقها.

وما يكابر أحد في أن بعض بواعث الجريمة في المجتمع المسيحي الغربي، قد نشأ من سوء تطبيق التعاليم المسيحية، ومن الكبت الذي لا مبرر له في واقع الأمر... فإن الحجر على كل نزعة فطرية، وتحريم الإحساس بها في داخل النفس، لا بد أن ينشأ عنه هذا الصراع المدمر الذي ينتهي أحياناً إلى الجريمة.

ولكن التوسع في تطبيق هذه النظرية، حتى تشمل كل جريمة، أمر شديد الخطورة فضلاً عن مجانبته للحقائق العلمية. فكثير من الجرائم في المجتمع الغربي الحديث لا ينشأ عن الكبت، وخاصة بعد أن انحلت القيود، ولم يعد هناك رقيب من المجتمع ولا من داخل النفس يحرم النشاط الجنسي، وهو مبعث الجريمة كلها في نظر فرويد، وكثير غيره من المحللين. وإنما تنشأ الجريمة في هذا المجتمع المنحل من المبالغة في الإباحة ونزع القيود، لأن هذا يؤدي إلى إغراء كل فرد "بتحقيق ذاتيته" على أوسع نطاق، فتتضارب المطالب وتصطدم الرغبات، وتحدث الجريمة.

وحين تتجه التربية إلى عدم إقامة الحواجز أمام رغبات الطفل -خوفاً من الكبت- تكون النتيجة أن ينساق الفرد مع شهواته إلى آخر حد، ويرى في ذلك حقاً مقدساً لا يجوز لأحد أن يقف في طريقه. وفي الوقت ذاته يتقدم علماء النفس التحليليون والتجريبيون،

بمبررات هذا النظام المنحل، حين ينادون بمبدأ الجبرية النفسية الذي يهبط بالإنسان إلى مستوى الحيوان.

على هذا الأساس الخاطئ في التربية وعلم النفس، يقوم المجتمع الغربي المنحل، وتنتشر فيه الجريمة؛ ثم تقدم لها المبررات، فتزداد يوماً بعد يوم، ويتغاضى عنها المجتمع، ويأخذها على أنها أمر واقع لا تجوز مقاومته، ولا تستطاع حتى لو أريدت، لأنها مسألة جبرية ليس لأحد عليها سلطان!

* * *

أما الشيوعية فترى أن الجريمة تنشأ من أسباب اقتصادية لا جنسية، ولا نفسية على وجه العموم. وأنه طالما كان المجتمع غير متوازن من الوجهة الاقتصادية فلا بد أن تنشأ الجرائم، لأنه لا سبيل إلى قيام الفضائل في نفوس الفقراء الحاقدين، ولا الأغنياء المترفين. ولذلك فهي ترى أن وجود الجرائم في البلاد الرأسمالية أمر طبيعي، وأنه ليس من العدل مقاومتها ولا فرض العقوبات عليها. كما أنه لا سبيل إلى القضاء عليها مع بقاء الأساس الاقتصادي غير متوازن. وقد مر علينا أنهم يؤمنون بالجبرية الاقتصادية في الحياة.

أما في داخل البلاد، فنحن لا نعلم الأمور كلها على وجه اليقين. ومعظم ما يصلنا هو الدعاية إما منهم وإما ضدهم. وعلى أي حال فهم يزعمون أن الجرائم قد انتهت، وإن كانوا لم يزعموا بعد أنهم قد ألغوا المحاكم والسجون! ولعلهم يقصدون أن جرائم السرقة هي التي انقطعت. فإنه لا موجب فعلاً للسرقة إذا أتيح لكل شخص كفايته من الطعام والشراب والكساء. وإن كانت الأخبار قد جاءت ذات مرة بمحاكمة صبي في الثالثة عشرة لأنه زوّر في البطاقات الخاصة بمواد التموين، ليحصل على قدر أكبر من نصيبه. وقالت الصحف التي أوردت الخبر: إن القاضية نصحت الصبي بألا يعود لمثلها أبداً، ثم أطلقت سراحه.

قد تكون هذه دعاية!

إنما المهم أن الشيوعية لا تنظر إلى الأخلاق على أنها قيمة ذاتية؛ وربما قالت عنها إنها أشياء ابتدعها الإقطاعيون والرأسماليون لحماية نفوذهم من أن تمتد إليه يد "الشعب" المتطلع المحروم! ولذلك فإن ضرورتها تسقط حين يزول الإقطاعيون والرأسماليون وما كان لهم من نفوذ!

وهم لا يرون في الجريمة الجنسية جريمة، لأنهم لا يؤمنون بالإنسانية المترفعة المتعالية عن مستوى الحيوان. ولأنهم في الوقت ذاته مضطرون إلى إطلاق القطيع على سجيته في المسألة الجنسية، تنفيساً عن الطاقة المكبوتة، ومنعاً لها أن تتكتل فتتجه يوماً إلى تحطيم النظام[١].

أما الجريمة الكبرى في الدولة الشيوعية، الجريمة التي تنشق لها السماء وتنهد الجبال هداً، فهي انتقاد النظام الشيوعي، أو التعرض لواحد من الآلهة المقدسين، وخاصة الإله لينين[٢]! عند ذلك ينسى القاضي رحمته المشرقة التي تؤثر النصح على العقاب، وتنسى الدولة مناعة النظام الذي لا تتغلب عليها قوة أياً كانت، وينسى الدعاة جبرية الاقتصاد، التي تخضع الأرض والسماء لسلطانها بطريقة ذاتية، غنية عن كل قانون.. وينقضّون جميعاً على هذا المجرم الأثيم فيسرعون به إلى المشنقة إن أرادوا له الرحمة، أو ينفونه في ثلوج سيبريا إذا أريد له العذاب! وعندئذ تخرج الصحف الروسية مفاخرة مباهية، بأن الدولة قد قامت بحركة تطهير لحماية النظام!

وبعد ذلك يجدون في أنفسهم الجرأة التي ينتقدون بها عقاب المسلم المرتد، ويتصنعون العطف على هذا "المسكين" الذي لا جريمة له إلا حرية الفكر! وقد تكلمنا في الفصل السابق عن الردة، وسنعود إليها هنا عند الكلام عن الحدود في الإسلام. ولكني أريد أن أثبت في هذا المقام أن شخص الحاكم لا قداسة له في النظام الإسلامي. وانتقاده ليس ممنوعاً. بل إنه لواجب محتم على كل مسلم أن يوجه النقد للحاكم إذا رأى أنه أخطأ في فهم الشريعة أو تنفيذها. والنبي صلى الله عليه وسلم يأمر المسلمين أن يأخذوا على يد الحاكم الظالم وإلا كانوا عرضة لغضب الله. والله يقول "وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً" فيشرك الجميع في المسئولية إذا سكتوا عن الأخذ على يد الظالم، وإن كانوا هم أنفسهم لا يظلمون.

وننتقل الآن إلى الجريمة والعقاب في الإسلام.

---

(١) يزعم الشيوعيون أولاً أن النظام ليس في حاجة إلى حماية لأنه محبوب من "الملايين". وصحيح أنه يحقق لهم مصلحة مؤكدة، ولكن هذا لا ينفي أن سلب الناس حريتهم الفردية قد يؤدي في أية لحظة، لو ترك بدون تدبير معين، إلى الانتقاض عليه. ويزعمون ثانياً أن روسيا قد ارتدت إلى المحافظة على الأخلاق. وسواء كان ذلك صحيحاً أو كان دعاية للترغيب.، ففيه على أي حال اعتراف صريح بأن الأخلاق ضرورة لا غنى عنها للحياة البشرية.

(٢) سمحت روسيا أخيراً بمهاجمة ستالين ولكن بعد أن مات!

الجرائم الكبرى التي يعاقب عليها الإسلام هي القتل والسرقة، والزنا، وشرب الخمر، ثم الردة والإفساد في الأرض. وهي التي ورد ذكرها في هذه الآيات والأحاديث[1]:

(١) "وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ". "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى". "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ". "وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً". "من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ومن أخصى عبده أخصيناه" حديث.

(٢) "وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ".

(٣) "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ".

وقضت السنة بالرجم لا بالجلد في حالة الإحصان —أي الزواج.

(٤) من شرب الخمر فاجلدوه. فإن عاد فاجلدوه" حديث.

(٥) "من بدل دينه فاقتلوه" حديث. "أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه فإن عاد، وإلا فاضرب عنقه" حديث.

(٦) "إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ".

* * *

ولننظر أولاً في الحكمة التي تقضي بتحريم كل عمل من هذه الأعمال، ولا بأس في أن نمر في الطريق ببعض النظريات الغربية.

([1]) اكتفينا هنا بالجرائم الكبرى التي نزلت فيها الحدود، لأننا بصدد النظرية العامة. وفي كتب الفقه تفصيل واسع لمن يريد الاستزادة، وخاصة في شأن التعزير والحبس في الأمور التي دون الحدود.

يلح فرويد –وخاصة في كتاب (Totem and taboo)– في القول بأن الجريمة اتجاه طبيعي للبشرية! ويستشهد على ذلك بأن الشيء لا يمنع إلا إذا كان هناك دافع قوي إلى ارتكابه. فلولا أن في البشرية اتجاهاً قوياً إلى الجريمة ما وضعت لها الحواجز والعقوبات.

وهذا حق. ولكنه حق يراد به باطل! فالنزعة إلى الاعتداء موجودة، بل متأصلة في أعماق البشرية. والقرآن يروي قصة بني آدم ليدل على أن الجريمة قديمة قديمة في النفوس.

ولكن هذا جانب واحد من جوانب "الإنسان". وهو لم يصبح إنساناً إلا بأن أصبح له الجانب الآخر الخيّر المشرق، الذي ميز بينه وبين الحيوان.

ويصر فرويد على أن هذا الجانب لم ينشأ نشأة ذاتية، شأنه في ذلك شأن الاتجاه الإجرامي الشرير، وإنما نتيجة الكبت الذي وقع على الطاقة الغريزية الميالة إلى الاعتداء. ولا نريد هنا أن ندخل في جدل مع فرويد! وإن كان هو قد أقر بأن الإنسان الأول قد أحس بالندم على الجريمة التي اقترفها. ولكنه تهرب من هذا السؤال: من الذي فرض هذا الإحساس على الإنسان الأول؟ من الذي أوحى إليه بأن عملاً من الأعمال خطأ لا يجوز أن يعمل؟!

وسنناقش في فصل "القيم العليا" آراء فرويد في هذا الشأن بشيء من التفصيل. ولا يمنعنا هذا من أن نقول هنا: إن الجانب الخيّر المشرق من الإنسانية قد وجد فعلاً، مهما يكن السبب الأول في نشأته، وإن الإنسانية –في مجموعها– لم تعد تتجه إلى الجريمة. وإنه لو ترك الناس أحراراً من كل قيد –الآن– لما أقبلوا– كلهم– يتقاتلون كالوحوش. وإنما سيبقى جانب منهم، كثير أو قليل، يميل إلى السلام وينفر من الجريمة.

بل نعود إلى قصة ابني آدم ذاتها كما وردت في القرآن، والكتب السابقة، وكما روتها أقاصيص الأمم قبل ذلك، فنرى أنها تثبت اعتداء واحد منهما على الآخر، وامتناع الثاني عن ارتكاب الجريمة. يقول القرآن في ذلك: "قال لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك". فمنذ الإنسانية الأولى إذن كان هناك من يترفع عن الجريمة وينفر من ارتكابها.

ويتفكه بعضهم تعليقاً على هذه القصة فيقولون: إن الأخ الشرير قد قتل أخاه الخيّر، فجاء نسل البشرية كلها بعد ذلك من هذا الشرير! وتمشياً مع الفكاهة نقول: إن البشرية مزيج من نسل هذا وذاك، فهي إذن مزيج من الخير والشر، وقد يرث أحد الأحفاد قسطاً أكبر من طباع هذا الجد أو ذاك فيكون مجرماً، أو يكون من القديسين!

ونعود إلى فرويد. فهو لا يكتفي بتلويث الإنسانية في نشأتها الأولى. ولكنه يتعقبها إلى هذه اللحظة، فيقول: إن مركب أوديب، أي عشق الأم، هو السبب في كل جريمة، إذا لم يتغلب عليه الصبي في الوقت المناسب "فيكبته" وينشئ مكانه الفضائل والأخلاق!

ونحن على أي حال نحاسبه بأقواله! فهو يقر بأن الغالبية العظمى من الأطفال تتغلب على هذه العقدة بطريقة طبيعية، وأن الشواذ فقط هم الذين يخفقون في ذلك، فينحرفون إلى الاضطرابات العصبية والنفسية.. وإلى الإجرام.

الحمد لله! ليس كل الناس إذن مجرمين! والجريمة —في جميع أحوالها– شذوذ عن الطريقة السوية، وليست أصلاً من الأصول.

* * *

يحرص الإسلام أشد الحرص على أمن الجماعة وسلامتها. فهذا هو الطريق الوحيد الذي يكفل لجميع الأفراد أكبر قسط من السعادة في الحياة. وليس في وسع أي نظام أن يضمن للأفراد سعادتهم وطمأنينتهم من طريق آخر غير الحرص على كيان الجماعة واستقرارها، تبعاً للبديهية التي ذكرناها من قبل وهي أن الجماعة هي مجموع الأفراد.

وكل الجرائم التي حرمها الإسلام هي أعمال تفسد أمن المجتمع، وتؤدي —لو تركت وشأنها– إلى اضطراب الأمور، وإشاعة الفوضى والقلق في النفوس.

فكيف يعيش الناس آمنين، وكيف ينشطون إلى أعمالهم التي تعود عليهم بالخير، وعلى الإنسانية كلها بالرخاء والتقدم، إذا أبيحت مثلاً حرية القتل؟

ولا نحتاج إلى بيان تلك البديهية. ومع ذلك فلا بأس من ذكر هذه الحقيقة التاريخية، وهي أن كل الفترات التي ساد فيها الاضطراب، وتقوض فيها الأمن، كانت فترات تأخر في تاريخ البشرية. وأن العلوم والفنون، والحضارة بوجه عام، لم تتقدم إلا في الشعوب التي استقرت فيها الأمور. وذلك طبيعي من الوجهة النفسية، لأن الفرد الذي يتوجه بكل همه إلى حماية شخصه وأهله من الاعتداء، لا يبقى لديه من الطاقة ما ينفقه في علم أو فن، بل لا يتجه إلى ذلك ولو وجد فضلاً من الطاقة. ويقول علماء النفس في ذلك: إن الغرائز أو النزعات الفطرية لا تنشط إلى العمل، إلا بعد أن تطمئن الغريزة الأولى. وهي غريزة حفظ الذات.

فتحريم القتل بديهية لا تحتاج إلى مبررات.

أما السرقة فقريبة من القتل، وإن كانت أخف ضرراً وأثراً. فهي اعتداء على الملك لا على النفس. أي اعتداء على نزعة فطرية تالية في الترتيب والأهمية لغريزة حفظ الذات[1].

ولكن إطلاق السرقة بدون عقاب يؤدي إلى حالة تقرب من إباحة القتل. فهي تجعل الناس في شغل شاغل بحماية أملاكهم، وذلك يبدد نشاطهم الذي كان يمكن أن يوجه الناس إلى شيء نافع. كما أنه يمكن أن يؤدي إلى الجريمة الكبرى حين تضطغن النفوس، وتقوم بينها الحزازات. ولا بأس هنا أيضاً من ذكر حقيقة تاريخية أخرى: هي أن حركة التجارة، الإقليمية والعالية سواء، لم تكن تنشط إلا في الفترات التي يسود فيها الأمن ويمتنع السلب والنهب. أما فترات الفوضى التي كانت تقضي على حركة التجارة، فكثيراً ما كانت تؤدي إلى المجاعات في شتى بقاع الأرض.

حين يأمن المالك على ملكه، ويطمئن باله من هذه الناحية، يمكن أن يتجه إلى تحسين وسائل الإنتاج. وقد كان هذا من أكبر حوافز البشرية على التقدم والرقي.

فتحريم السرقة كذلك أمر لا يحتاج إلى جدال[2].

وإنما يكثر الجدل بشأن تحريم الزنا؛ ويأتي الجدل من الغرب المنحل، ومن بريقه الخاطف الذي يفسد أعصاب المحرومين والمنحلين في الشرق، فيفتحون عيونهم مبهورين، ويسيل لعابهم إلى الإباحية الحيوانية، كما يسيل لعاب الكلب على الطعام.

لماذا يحرم الزنا، ويكبت الناس دوافعهم الغريزية التي تريد أن تنطلق، والتي لا بد أن تنطلق، شئنا أم أبينا، وأقمنا الحواجز أم حطمناها؟ لماذا لا نرضى بالأمر الواقع، ونكون

([1]) لعل الترتيب الطبيعي أن نتحدث عن جريمة الزنا بعد القتل. فغريزة الجنس هي التالية في الترتيب لحفظ الذات. وقد تمشى الإسلام في تقرير العقوبة مع هذا الترتيب التنازلي. ولكني أخرتها فقط لأن القتل والسرقة لا يثور الجدل بشأنهما كما يثور بشأن الزنا، فأردت أن أرجئ ما يحتاج إلى جدل، إلى ما بعد البديهيات المسلم بها.

([2]) يقول الشيوعيون: إن السرقة لا تنشأ إلا في المجتمع الإقطاعي أو الرأسمالي الذي يزاول الملكية الفردية، وإنه حين تلغى الملكية الفردية تلغى جريمة السرقة في ذات الوقت ولا نحتاج لوضع العقوبة لها. وقد تحدثت في كتاب "شبهات حول الإسلام" عن الملكية الفردية بما يثبت أنها نزعة فطرية أصيلة لا ينبغي مقاومتها ولا كبتها، خاصة وأنه يمكن تهذيبها بحيث يتحقق منها الخير ويمتنع الشر إلى أقصى حد. وقد عرضنا هنا في هذا الفصل كيف يعالج الإسلام أمر السرقة بما يحقق العدالة الكاملة.

معقولين، بدلاً من هذا النفاق الاجتماعي البغيض! إن كل واحد فينا بينه وبين نفسه يشتهي.. وكل واحد يعرف أنها شهوة لذيذة تأخذ بالألباب. فلماذا.. لماذا بالله تحرمونها أيها المتأخرون.. المنافقون؟!

وقد أفردنا فصلاً خالصاً للمشكلة الجنسية من جميع نواحيها. ولكني أحسب أنني تحدثت بما فيه الكفاية عن نتيجة الفوضى الخلقية، وكيف تنخر في كيان الأمة كالسوس، وأن آثارها البغيضة قد تخفى جيلاً أو بضعة أجيال ولكنها تظهر لا محالة في آخر الأمر؛ وتظهر بصورة فتاكة مدمرة، تقضي على كيان الشعب كله في فترة وجيزة. كما ينهار في لحظة واحدة بناء بيت كامل حين يتخلخل الأساس.

وشواهد التاريخ كلها تثبت هذه الحقيقة بصفة مؤكدة. لم تشذ أمة في الأرض عن هذا المصير حين أدت إليه مسبباته الطبيعية: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً".

وإنه للبله وقصر النظر هو الذي يدعو شخصاً أن يقول: ومن أدراني أن الكارثة ستحدث في هذا الجيل، أو تصيبني أنا بالذات من بين المصابين؟ فلأستمتع. ولأمض إلى آخر الشوط، وليكن بعد ذلك ما يكون...

وما ينبغي لأي نظام يعمل لحياة الأجيال كلها، لا لجيل واحد بعينه، أن يجاري هذا البله الخطير، فيبيح للناس شهواتهم، وهو يرى رأي اليقين بعين المستقبل أن الكارثة تنتظرهم في آخر الطريق!

ولو فعل فأي نظام يا ترى يكون؟!

وكيف يجاري سنة الحياة في التقدم والتطور، وهو يبيح للإنسانية أن تهبط وتنحط، وتنفق طاقتها في لذة الحيوان، فلا تجد رصيداً بعد ذلك للارتفاع، ولا ميلاً إليه ولو وجد الرصيد؟

ثم... كيف يجوز لأحد أن يسرق عرض أحد في غيابه؟ من يبرر ذلك؟ وكيف يجوز أن تسرق عواطف أب، بالتدليس عليه بولد غير ولده؟ أم يقولون: إن هذه المشاعر –مشاعر الغيرة على العرض، أو الغيرة من العشيق– لا توجد إلا في الشرق المتأخر؟ فلينظروا في حوادث الانتحار وحوادث القتل التي تحدث في الغرب المتحضر، نتيجة لإحدى الغيرتين.. في فرنسا أم المدنية، وأمريكا أمة الآلهة القادرين!

إنه لعجيب أمر هذا الناس الذين يطلبون إباحة الزنا للمجرمين...

أما الخمر فقد كان أمراً طبيعياً أن يحرمها الإسلام. ولست أدري أن نظاماً يحترم نفسه يمكن أن يبيحها. وإذا كانت دول الغرب تأخذ المسألة على أنها أمر واقع، فإنها –مع ذلك– تعاقب السكير حين يخرج عن حدوده، حتى ولو لم يعتد على أحد ولا على شيء. لأن منظره وهو ملقى في الشارع، أو محتضن عمود النور يناجيه بآلامه وأمانيه، أو سائر يترنح لا تكاد قدماه تحتملانه.. منظر مؤذ لكرامة الإنسان.

ولكن الإسلام بالذات لم يكن ليبيحها، ولو أباحتها كل نظم الأرض..

فالخمر في حقيقتها هروب من واقع الحياة، وإعلان للهزيمة أمام التبعات!

فبدلاً من أن يواجه الإنسان شئون حياته ويتدبر الحلول لمشكلاته –ولكل إنسان على الأرض مشكلات– نجده يهرب من ذلك كله في كأس من الخمر، تخدر أعصابه رويداً رويداً، وتبعده عن تلك المشكلات، وتخلق له –في الخيال– عالماً جديداً ليس فيه شيء من تلك الواقع التي كانت تشغل باله منذ حين. عالماً يصنعه على عينه، وكما يشتهي. ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. فهناك نشوة تسري في عروقه، تخيل له أنه قد أصبح شخصاً جديداً، حياً، فياضاً بالحيوية والنشاط. وهذا الشخص الجديد كما يقول السكير الذي استشهدنا من قبل بكلمته، يحس أنه في حاجة إلى كأس أخرى. وهكذا لا يرتوي من الشراب. بل كلما شرب ازدادت شهوته إلى كأس جديدة، حتى يفقد وعيه، وتعجز أعصابه وفكره عن أداء وظيفتهما فيصير إلى ذلك الشخص المضحك المثير للسخرية الذي وصفناه منذ قليل. وقد يزيد على ذلك، فتصيبه نوبات القيء التي تثير الاشمئزاز والنفور.

وهب أن هذا الإسفاف لا يقع كله فإن الإسلام يكره الهروب من الواقع. إنه دين مواجهة ومجالدة. دين غلبة وجهاد. سواء جهاد الأعداء أو جهاد النفس الذي أشار إليه القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ولا يتيسر شيء من ذلك مع الهرب من مواجهة الحقائق واللوذ بالخيال المريض.

والحياة عادة كما كررنا أكثر من مرة. والذي يتعود أن يهرب من المشكلة ولا يواقعها، ويحلها هذا الحل الرخيص في عالم الخيال، شخص لا يصلح للجهاد. بل هو أقمن أن ينزوي عنه ويطلب السلامة من أيسر سبيل. والجهاد ليس الحرب والقتال فقط. فتلك مسألة استثنائية، وإن كانت تحتاج إلى تعويد النفس عليها، وتجنيدها لها، حتى إذا وقعت فجأة كان الناس على استعداد.

ولكن حياة السلم ذاتها مليئة بالمشكلات: فعلاقات الإنسان بأهله، وبرؤسائه ومرؤوسيه، وزملائه، ومواجهة المطالب التي لا تنتهي، كل ذلك في حاجة إلى الوعي الكامل، ولا يمكن أن تحلها كؤوس الخمر وعرائس الخيال! وكل شيء يحتاج إلى مرانة.. إنك لا تستطيع السباحة إذا لم تتعلمها وتمرن عليها. لا لأنك عاجز بطبيعة تكوينك، ولكن لأنك فقط لم تدرب. وكذلك لا تستطيع الوقوف للمشكلة والعمل على تخطيها إذا أنت لم تدرب على ذلك مرة ومرات، لا لأن كيانك في ذاته يعجز عن ذلك، ولكن لأنك تعجزه بعدم التدريب.

ومن هنا لا يستطيع المدمن أن يصحو فجأة فإذا هو قادر على مجالدة الأمور ومصارعتها، لأن جهاز المصارعة يتعطل بعدم استخدامه في مواجهة وقائع الحياة.

وقد يزعم الشارب أن هذا شأنه كفرد، وليس لأحد أن يتدخل في شئونه الشخصية ما دامت لا تؤذي أحداً سواه.

وفي هذا القول كثير من المغالطات.

فليس أولاً حراً في إيذاء نفسه! لأنه ليس ملكاً خالصاً لنفسه. فإذا قيل إن في هذا اعتداء على كيانه الشخصي فردنا على ذلك بسيط: إذا كان الفرد يريد أن يكون ملكاً خالصاً لنفسه فعليه أن يعتزل المجتمع كله، ويصنع لنفسه غذاءه وشرابه وكساءه، ويحافظ على أمن نفسه من كل خطر يتهدده. وليصنع بعد ذلك ما يشاء! أما إذا أراد أن يعيش في المجتمع، ويستفيد من حياته فيه أمناً ورفاهية وسعادة، فعليه إذن أن يضع نفسه تحت تصرف الجماعة، بقدر ما وضعها هو تحت تصرفه، في الخدمات التي تؤديها له. والجماعة في حاجة إليه صحيحاً معافى، لا في الجسد فقط، ولكن في النفس والعقل والضمير. فكل إيذاء يتعرض له الفرد، سواء بإرادته أو بغير إرادته، يعود بالضرر على المجتمع الذي يعيش فيه.

تلك هي المغالطة الأولى، وإن لم تكن الكبرى..

فهناك العدوى بالتقليد، وذلك أخطر ما في الموضوع. إن نزعة التقليد نزعة بشرية لا يمكن الفكاك منها. ومهما كان الفرد ممتازاً، ففي نفسه هذا النزوع الدائم إلى تقليد غيره، بغير وعي في كثير من الأحيان. فمن جرائم السكير أنه يضع القدوة السيئة أمام غيره، وفيهم من الضعفاء كثيرون. ولا يزعم هذا السكير أنه غير مسئول عن الآخرين، لأنهم لو شاءوا لامتنعوا عما يأتيه هو من السوء! فإنه لا يجوز لي أن أضع الجراثيم وسط الناس ثم أقول: إذا

كانت لديهم مناعة فلينجوا من الأمراض! وإنما علي أن أمنع الجرثومة في ذات الوقت الذي أربي المناعة فيه.

وأسوأ ما يكون الأثر على أسرة السكير، ولو علم أي جريمة يرتكبها في حق أولاده لجلد نفسه بنفسه قبل أن يجلده الآخرون. إن الطفل ينزع إلى إكبار والده، حتى ليرى فيه كائناً يشبه الإله! ثم هو –على غير وعي منه– يتلبس بشخصية والده في داخل نفسه، فيحاول أن يكون صورة منه. فكيف يكون الحال حين يرى أباه في تلك الهيئة المزرية المنفرة المهينة؟ إن صراعاً عنيفاً جداً يقوم في نفس الطفل، ولا يمكن أن ينتهي بالخير. فهو إما أن ينفر من والده ويحتقره، فيفصل في داخل نفسه بين شخصين كانا متحدين من قبل، فيلقي بأحدهما إلى الخارج، وينزوي بالآخر حائراً ليس له دليل. وإما أن يظل متلبساً به، مقتدياً بأعماله، فينشأ منحلاً ليسه له كيان. فإذا كانت طفلة، فهي إما أن تنشأ منحلة الأخلاق ساقطة، أو يصيبها النفور من الرجال جميعاً فتنفر من الزواج، وتصاب بالعقد النفسية إذا قسرت عليه. فكأن السكير يهدر كيان أبنائه، ويبدد حياتهم ويضعها في كف الشيطان.

ولا ننس المشاحنة والبغضاء التي تقوم بين الشاربين حين يفقد كلٌّ وعيه. فينسى إنسانيته، ويخرج بحيوانيته الكامنة في عقله الباطن. ثم إن شرب الخمر جريمة تغري بجرائم أخرى أهمها الزنا، والقتل في بعض الأحوال.

يقول القرآن: "إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ" ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اجتنبوا الخمر فهي أم الكبائر". وذلك لما يتولد عنها من شرور أخرى، أثناء تعطل الإرادة الضابطة، والوعي الذي يزن الأمور. وعلم النفس التحليلي يؤكد هذه الحقيقة إذ يقرر أن الخمر تخدر "الرقيب" الذي يقف بباب العقل الباطن يمنع منه ما لا يجوز أن يخرج، فتنفلت الشرور الحبيسة فيه في غفلة من هذا الرقيب "المغفل"!

وسيان فعل الخمر وغيره من المخدرات كالحشيش والأفيون.. الخ. والذين يتشككون في حكم الإسلام عليها قوم قصار النظر، لا يتبينون طبيعة الإسلام. فما دام الإسلام يكره الهروب من الواقع، ويحتم أن يكون الإنسان في وعيه، ليعد نفسه على الدوام لمواجهة الأزمات والتغلب عليها، فكل شيء يسلبه وعيه –ولو إلى حين– حرام، صريح الحرمة في نظر الإسلام.

ويحضرني في ذلك وصف دقيق لفعل الأفيون في مشاعر من يتعاطاه، كتبه سومرست موم في قصة المأزق الحرج The Narrow Corner. كان يصف حالة رجل مضطرب

على ظهر سفينة شراعية صغيرة تعبر المحيط بين استراليا وأندونيسيا. والرجل في خشية من مواجهة البحر لأنه هائج مضطرب، ولم يكن له قِبَل به في مثل هذا المركب الصغير. فماذا يعمل؟ لقد هرب لأنه لم يستطع مواجهة العاصفة. هرب إلى قمرته في داخل السفينة وأخرج غليونه، فوضع فيه قدراً من الأفيون وأخذ يدخن (وقد كانوا في الشرق الأقصى يدخنونه!) ورويداً رويداً هدأت مخاوفه، فقد صارت هزات السفينة العنيفة، اهتزازاً لطيفاً كاهتزاز المهد بالطفل! ثم أخذ بالتدريج يسبح في "الملكوت". وخيل إليه أنه قد اكتسب قدرة فائقة. قدرة جسدية وعصبية وفكرية. وأنه قادر على حل كل مشكلات الأرض لو عرضت عليه. ولكنه مطمئن إلى قدرته تلك. فهي تحت تصرفه حين يريد. فلماذا يشغل باله الآن بحل المشكلات؟ كلا. كلا! فلينعم الآن بالخيال، وليترك المشكلات لحينها. ووقتها سوف يحلها بإشارة واحدة من بنانه، ولمحة واحدة من فكرة الخصب!!

وهكذا خيال المساطيل! فكيف يبيح الإسلام هذه الغيبوبة التي تشل الفكر وتعطل جهاز المجالدة والصراع! لا يحتاج الإنسان إلى كثير فكر ليعرف رأي الإسلام في المخدرات، وهو الحريص على تربية كل جوانب النفس، وخاصة جانب الإرادة الواعية، والمقدرة على ضبط المشاعر والشهوات.

* * *

بقيت جرائم الردة والإفساد في الأرض.

وقد بينا من قبل أن الردة لا تدخل في باب الحرية الشخصية. ونضيف هنا أن فيها كجريمتي الخمر والزنا خطر العدوى، لو تركت بغير عقاب. والارتداد تحلل من الالتزامات. ولا يمكن أن يتحلل فرد من التزاماته نحو ربه، التي هي في الوقت ذاته التزاماته نحو نفسه والجماعة التي يعيش فيها، دون أن يكون خطراً على بقية المجتمع، ولنتمش قليلاً مع خيال الذين يزعمون أن هذا حادث فردي يدخل في نطاق الحرية الشخصية. ما موقف هذا الفرد المرتد من بقية المؤمنين؟ إن خياله المريض يخيل له دون شك أنه هو المهتدي! وتلك مغالطة داخلية يقوم بها بينه وبين نفسه، لينكر أنه في الواقع يريد أن يتنصل من قيود الخلق ومن ضوابط الإنسانية، ليصبح حيواناً عربيداً يخضع لهاتف الشهوات.

هو إذن يزعم أنه هو المهتدي، وأن الآخرين –المؤمنين– مغفلون، يقيدون أنفسهم بالتزامات تحد من استمتاعهم بحيوانيتهم الطليقة! فهو يدعوهم إلى الهدى! ويبشرهم بالنور الجديد! والاستجابة لدعوة الشر، أو دعوة الانطلاق من القيود لا تحتاج إلى كبير جهد، فالإنسان أقرب إلى الهبوط منه إلى الصعود. وإنما التسامي والارتفاع هو الذي يحتاج إلى

جهد دائب. من المربي في أثناء الطفولة، ومن الإنسان ذاته حين يرشد، ومن ولي الأمر ليعاون الضعفاء الذين يتعرضون لمخاطر الهبوط. فيأتي هذا المرتد فيفسد هذا الجهد الطويل كله، ويرتد بالناس إلى الحيوانية الغريزية. فكيف يطلب المتشدقون بالحرية أن يباح هذا لمن يريد؟ ولا يزعم المرتد —كما يزعم شارب الخمر– أن هذا شأنه وحده، وعلى الناس أن يتحصنوا من شروره. فهذه سفسطة لا تثبت للنقاش.

ثم إن المرتد لا بد أن يرتكب شيئاً من الجرائم الخلقية، تلك الجرائم التي بيّنا خطرها على المجتمع من قبل. ولا تصدق من يقول لك: إنني ألحد —بالفلسفة!– ولكني أراعي قواعد الأخلاق. فقد كان الانفلات من قيود الأخلاق هو الدافع الأصيل الذي دفعه إلى الهروب من الدين. ولو وافق عليها، عن اقتناع حقيقي بضرورتها، وإيمان خالص بأن الإنسانية لا تتحقق إلا بها، لما وجد في نفسه حاجزاً يحجزه عن الله ودينه الحق.

ومهما يكن من أمر، فلن يتوقع أحد من نظام يحرص على سلامة الجماعة، سلامتها الجسدية والعصبية والفكرية والروحية، أن يبيح للمؤمنين أن يرتدوا إلى حظيرة الحيوانات.

* * *

أما الإفساد في الأرض فجريمة تندرج تحتها أعمال كثيرة: منها فتنة المسلمين عن دينهم. وقد كان هذا يحدث في بدء الدعوة، وانتهى باستقرارها وتمكنها في الأرض، وإن كان ما يزال ينطبق —من الوجهة القانونية– على عصابات التبشير التي تبثها الدول الأجنبية في البلاد الإسلامية.

ومنها إقامة العراقيل والاضطرابات أمام الحكومة الإسلامية الرشيدة، بدون وجه حق، وبنية خبيثة هي تقويض دعائم الإسلام، وإثارة الفتنة في صفوف المسلمين. وينبغي أن نفرق هنا تفريقاً حاسماً بين هذا العمل وبين معارضة الحاكم الإسلامي حين يخرج على شريعة الله. فتلك المعارضة واجب محتم على كل مسلم، لا يتم إيمانه دون القيام به. ويتهدده العذاب في الدنيا والآخرة إذا هو نكل عن أدائه.

ومن أهم ما ينطبق عليه كذلك "التكييف القانوني" لجريمة الإفساد في الأرض، إقامة العصابات للسلب والنهب والاعتداء على الأرواح والأعراض. فكل عصابة تتألف للسرقة أو النشل أو قطع الطريق أو نهب المحاصيل، أو نشر الدعارة والفساد الخلقي، داخلة في هذه الجريمة الشنعاء.

وقد كان حقاً أن تشدد العقوبة على هذه العصابات أكثر مما تشدد على الأفراد. فالفرد الذي يرتكب جريمة بمفرده أقل خطراً على أمن الجماعة وسلامتها، من الذين يجتمعون للشر ويتفننون فيه. فهم لكونهم جماعة، قادرون على تنظيم أنفسهم، بحيث يرتكبون أكبر قدر من الشر، دون أن ينالهم أذى كبير. فهم يعهدون إلى البعض منهم بأعمال الكشف، ليتمكنوا من الهرب إذا دهمتهم الشرطة. ويعهدون إلى البعض الآخر بالتسلح لحراسة الجريمة، ومهاجمة الشرطة والاعتداء عليها إذا وقع بينهما صدام، وهكذا يسعون في الأرض فساداً متبجحين معتزين بالإثم. فلا بد أن تكون العقوبة من الجانب الآخر عنيفة قاسية، ليرتدع من لا ضمير له من المجرمين. وإن عثمان يقول: يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

* * *

إلى هنا كنا نعرض الجريمة من وجهة نظر الجماعة المعتدى عليها. ولا يماري أحد في حق الجماعة في حماية نفسها ما يفسد أمنها وسلامتها. وإن من حقي وأنا قابع في بيتي أو منصرف إلى عملي أو إلى المباح من المتعة البريئة، لا أوذي أحداً ولا أشترك في إيذاء أحد، أن أستمتع بالاطمئنان الكامل على نفسي وأهلي وملكي المشروع. وعلى الدولة بوسائلها أن تحقق لي هذا الاطمئنان.

ولكن كثيراً من الغربيين "المتحضرين!" يتابعهم هنا كثير من "المثقفين" يستبشعون العقوبات الإسلامية، ويعدونها همجية بربرية، لا يجوز أن توصم بها الإنسانية وخاصة في العصر الحديث... عصر الهلاك الإجماعي بالقنابل الذرية والإيدروجينية وأشعة الموت، للشيوخ والأطفال والنساء، وللظالمين والأبرياء سواء!!

وهم يقولون لك: إن سمات البربرية والتأخر في هذا الإسلام أنه يهدر كيان الفرد، فيستسهل إعدامه، أو رجمه وجلده، أو قطع يده لأبسط الشئون. أوَ من العدل أن تقطع يد رجل من أجل عشر تمرات. أف! إنها لوحشية كريهة، إن كانت تصلح لأعراب الجزيرة في ظلمات الماضي، فإنها لا تصلح للعالم المتحضر في القرن العشرين...

ولا نسأل أولئك الملائكة المترفعين عن قنبلتي هيروشيما ونجازاكي، ولا عن معسكرات الاعتقال في الثلوج الباردة، وقوائم التطهير السنوية التي يعدم فيها الناس بالمئات والألوف. ولا نسألهم عن الزنوج -إخوانهم في المسيحية لا في الإنسانية فحسب- كيف يركلون بالأقدام حتى تفارقهم أرواحهم، فيصلبون في جذوع الشجر نكالاً وعبرة، لأنهم ارتكبوا جريمة شنيعة، وأصروا على ارتكابها: جريمة "الحياة" وهم ملونون!

لا نسأل عن شيء من ذلك، لأن أولئك المتبجحين لا يخجلون من أنفسهم ولا يتأثمون.

وإنما نقول لهم: إنه لا يوجد نظام على ظهر الأرض، شرقها وغربها سواء، يصون كرامة الفرد وإنسانيته بقدر ما يصنع الإسلام. فهو النظام الوحيد الذي يعتبر الجماعة مجرمة في حق الفرد إذا هي سلبته حق الحياة، فيبيح له أن يقاتلها، فإذا قتل فهو شهيد تدفع لأهله الدية، وإذا قتل فلا دية عليه. وهو لا يترك هذا أماني في الضمير، ولا دعاية شفهية. بل يجعله جزءاً من التشريع. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى". ويرتب ابن حزم على ذلك –وهو من كبار الفقهاء– فيقرر أن أي إنسان يموت جوعاً في محلة لزمت الدية على أهلها جميعاً (أو على الدولة ممثلة المجتمع).

والغربيون يستبشعون الحدود الإسلامية لأنهم يتصورون أنها تطبق كل يوم كعقوبات السجن والغرامة التي يطبقونها في بلادهم كل يوم، فيتصورون في المجتمع الإسلامي مجزرة هائلة لا تهدأ عن العمل: هذا يقتل وهذا يرجم وذاك يقطع... ولكن الواقع أن هذه العقوبات لشدتها وقسوتها لا تكاد تطبق أبداً! وربما يمضي الجيل الكامل لا يوقع فيه حد على أحد من الناس. فهي كما يقول عمر: "علّق عصاك بحيث يراها أهل الدار، ولا داعي للضرب بعد ذلك، فإنه يكفي التهديد!

ولكن أهم من ذلك كله أن الإسلام لا ينظر للجريمة بعين الجماعة فحسب، بل يمسك الميزان من منتصفه، فينظر إليها كذلك –وفي ذات الوقت– بعين الفرد الذي تقع منه الجريمة.

فهو حين ينظر إليها بعين الجماعة، فيقرر حقها في حماية نفسها من الجريمة، ويفرض لذلك العقوبات، ينظر كذلك بعين الفرد، فيرى مبرراته ودوافعه لارتكاب الجريمة، فيعترف بها، ويعطيها حقها الكامل من التقدير والرعاية، ويعمل على إزالة كل الدوافع المعقولة قبل أن يفرض العقوبة. فإذا حدث رغم هذا الاحتياط الذي يحرص عليه أشد الحرص، أن قامت المبررات، سقط الحد ولم تكن هناك جريمة.

وأنا أستند في هذا إلى حادثتين لهما دلالة عميقة، وقعتا في عهد عمر بن الخطاب. وعمر بالذات لا يمكن أن يتهم بالتوسع أو التساهل في تطبيق الشريعة. وهو الذي حضر الرسول عليه الصلاة والسلام في نوبة من نوبات المرض الشديدة فوجده يقول: "ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً" فيقول عمر: إن النبي عليه الصلاة والسلام والسلام غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا.

فإذا كان هذا هو استمساك عمر بحرفية الشريعة، فلا يمكن أن يتهم بالتوسع والتساهل في أمور الشريعة.

فأما الحادثة الأولى فهي أنه أسقط حد السرقة في عام الرمادة —عام الجوع– فاعتبر الجوع شبهة تمنع إقامة الحدود.

والثانية وهي أبلغ في الدلالة، هي هذه الحادثة: "روي أن غلماناً لابن حاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة، فأتى بهم عمر، فأقروا، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم. فلما ولّى ردّه، ثم قال: أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له، لقطعت أيديهم. ثم وجه القول لابن حاطب بن أبي بلتعة فقال: وأيمن الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك! ثم قال: يا مزني، بكم أريدت منك ناقتك؟" قال: بأربعمائة. قال عمر لابن حاطب: "اذهب فأعطه ثمانمائة".

هذه الحادثة كتلك، قاطعة الدلالة في أن العقوبة لا تنفذ في الإسلام، حتى يضمن ولي الأمر أن مبررات الجريمة غير قائمة. فإذا قامت المبررات —ولو على سبيل الشبهة– سقط الحد. والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يقول: "ادرءوا الحدود بالشبهات" فيجعل ذلك مبدأ تشريعياً، لا تصل الرحمة إلى أبعد منه في معاملة الفرد، حتى وهو يعتدي على أمن الجماعة وطمأنينتها.

* * *

ولننظر في الجرائم واحدة واحدة، فنرى المبررات المعقولة لها في نفس الفرد، وكيف يتفادى الإسلام قيامها في مشاعره قبل أن يفرض عليه العقاب.

إذا أحصينا جرائم القتل في أنحاء العالم كله، وجدنا معظمها يقع لأسباب اقتصادية أو لأسباب تتصل بالعرض.

فأما المسألة الاقتصادية فقد احتاط لها الإسلام بمبدأي التكافل الاجتماعي، والتأمين الاجتماعي.

فولي الأمر في الإسلام مكلف بنشر العدالة الاجتماعية، بحيث يمنع وجود الترف المجرم من جانب والحرمان الكافر من جانب آخر. وقد وضع الإسلام في يده تشريعات تحرم الربا وتحرم الاحتكار —وهما وسيلتا التضخم الرأسمالي الذي يفقد المجتمع توازنه– كما تحتم جباية الزكاة التي تأخذ قدراً من رأس المال ذاته — لا من الأرباح فحسب– وتشريعات تفتت الثروة

بالإرث، حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء، وجعلت له بعد ذلك كله حق أخذ فضول أموال الأغنياء وردها إلى الفقراء، على حد قول عمر. كما أوجب عليه الإسلام أن ينظر في أن لكل فرد في الأمة عملاً شريفاً يتكسب منه[1]، فإذا كان عاجزاً عن الكسب فعلى بيت المال أن يؤمّنه من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية...

وليس هذا فقط هو الإسلام. فهو يضيف إلى العدالة الاقتصادية، التي تضع الشيوعية كل همها في تحقيقها، وتنفض يدها من الأمر بعد ذلك، على زعم أن جبرية الاقتصاد — تعمل عملها دون تدخل من أحد! يضيف الإسلام إلى تلك العدالة الاقتصادية غاية أخرى يهتم بها أشد الاهتمام، ويدأب عليها، ولا يمل أن يلقي إليها همه: تلك هي تربية الفرد منذ طفولته على مشاعر الحب والألفة والتعاون، بحيث تُمنع الضغينة من القلوب.

فإذا كان الأمر كذلك فقد انتفت المبررات الاقتصادية للقتل والاعتداء. ومع ذلك، فإذا وجدت المبررات —رغم كل احتياط– فقد أبيح للفرد أن يقتل من في يده طعامه أو شرابه إذا منعه عنه، وخاف على نفسه الهلاك، كما يقرر الفقه الإسلامي.

فالإسلام إذن لا يترك المظالم الاجتماعي قائمة ثم يطالب الناس بالبعد عن الجريمة، بل يمنع هذه المظالم أولاً ويطلب منهم بعد ذلك ألا يكونوا معتدين.

أما الأسباب التي تتصل بالعرض، فقد ضمن الإسلام عدم قيامها بتشريع آخر هو حد الزنا. ولا يكتفي بذلك —كعهده في كل شيء– بل يعمل جاهداً على تعويد الفرد أن يضبط شهواته ويكبح جماحها في الحدود الشرعية المعقولة، التي تعود بالنفع على الجماعة والفرد في آخر الشوط.

فإذا كان المجتمع قائماً على الفضيلة، لأن أفراده قد تربوا على استنكار الحيوانية البهيمية، وإذا كانت هناك عقوبة توقع على سارقي الأعراض، فقد انتفت المبررات التي تدفع إلى القتل دفاعاً عن العرض.

* * *

([1]) جاء رجل يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم، فنهاه عن السؤال ودبر له عملاً يقتات منه. وهذا مبدأ تشريعي صريح في بيان واجب الحاكم نحو الشعب في الدولة الإسلامية.

أما السرقة فدوافعها الجوع، والعجز عن الكسب الشريف، واضطراب الميزان الاقتصادي في المجتمع. وقد أسلفنا بيان الواجب المفروض على وليّ الأمر في الإسلام لملاقاة هذا الاضطراب، وتمكين كل فرد أن يجد العمل الذي يكسب به قوته وقوت عياله في حدود إنسانية كريمة. وبيت المال مطالب بتكملة النفقات الضرورية إذا كان العمل وحده لا يكفي. فإذا كان الفرد عاجزاً للمرض أو الضعف أو الشيخوخة، أو كان طفلاً، فعند ذلك يتكفل بيت المال بجميع النفقات اللازمة للحياة الكريمة. وذلك بالإضافة إلى التربية الإسلامية التي تحبب الإنفاق في سبيل الله، طمعاً في رضوان الله.

فإذا حدث —رغم هذا الاحتياط– أن وجد جائع يسرق ليأكل، أو يسرق ليستكمل وسائل حياته، فقد سقط عنه الحد بنص حديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

* * *

أما دوافع الزنا فهي الغريزة المسيطرة العنيفة الملحة، التي لا تهدأ ولا تكف عن الهياج.

وقد عالج الإسلام أمر هذه الغريزة من عدة وجوه. أولها التربية التي تعود الفرد على ضبط شهواته جميعاً ومن بينها شهوة الجنس، دون أن تكبتها بما يؤدي إلى الاضطرابات النفسية والعصبية. فإذا صرح للفتى المراهق أن يحس بالرغبة دون أن يتحمل قلبه إثماً، فهذا يخفف كثيراً من الحمل الذي يقع على الأعصاب. ويعالجها ثانياً بإيجاد مجتمع تحكمه الفضيلة، فلا يوجد فيه التبرج الذي يثير كوامن الشهوة، ولا الصور الخليعة ولا السينما ولا الإذاعة التي تشترك في هذه الجريمة؛ كما يضرب على أيدي تجار الأعراض المفسدين في الأرض؛ فيعمل بذلك على منع العوامل التي تستفز الغريزة إلى درجة السعار المجنون، الذي يتعذر معه الضبط والقياد. ثم هو يشغل الفتيات والفتيان بما ينفس عن الطاقة الحبيسة شيئاً من التنفيس. ولكن الإسلام يدرك من طبيعة البشر ما يجعله يعلم أن كل هذه الوقاية لا تفلح إلا في تخفيف عوارض الغريزة. فهو لذلك يقرر لها العلاج العملي الذي لا علاج غيره وهو الزواج. فيدعو إلى التبكير فيه، ويحض عليه بكل الوسائل، إلى حد أن يفرض على بيت المال أن يعاون من تقف حالته المالية عائقاً عن الزواج[1].

([1]) أول ما يتبادر إلى الأذهان هو استحالة هذا الحل في في المجتمع الحالي. وقد عرضت لتلك الاعتراضات بالتفصيل في فصل المشكلة الجنسية. وأنا على أي حال أتكلم عن المجتمع الإسلامي، لا عن المجتمعات التي لا تعرف من الإسلام إلا اسمه، والتي لا يمكن أن يقام فيها الحد.

فإذا وجدت هذه الاحتياطات العملية والتربوية، فقد سقطت المبررات المعقولة لهذه الجريمة. ومع ذلك كله فقد يحدث أن يعنف الإغراء بفرد حتى تنهار مقاومته، ولا يملك نفسه من التردي في الهاوية. فأي رحمة بهذا الفرد الضعيف أمام شهوته —رغم جريمته– أعظم من أن يكون في التشريع ذاته ما يعاونه على الإفلات من العقاب؟!

إن جريمة الزنا لا تثبت إلا بشهادة أربعة شهود يرون الجريمة فعلاً، وبدرجة التثبت واليقين. بحيث لو نقصوا عن أربعة، أو سحب واحد منهم شهادته، لاعتبر الباقون متهمين بالبلاغ الكاذب، ووقعت عليهم العقوبة بدلاً من توقيعها على المجرم الأصيل!

ولم يكن القصد من هذا الاحتياط بطبيعة الحال تشجيع المنحلين على الفاحشة! ولكن قصد به ألا يتخذ الكاذب في هذه المسألة وسيلة للإيقاع بالناس بغير جريرة، إرضاء لضغائن شخصية، وأحقاد مريضة.

كما روعي فيه كذلك أمر بالغ الخطورة في نظر الإسلام. فإن صعوبة إثبات جريمة الزنا، ومعاقبة المبلغين إذا لم يتثبتوا، تجعل التبليغ عن الجريمة أمراً نادر الحدوث. فلا يتحدث المجتمع إذن عن وقوعها، ولا تلوكها الأفواه، وهذا هو المقصود. فإن كثرة الحديث عن وقوع الجرائم يهوّن أمرها لدى السامعين، ويغري ضعفاء النفوس بإتيانها —اقتداء بالمثل السيء. فأما حين لا يذكرها الناس في مجتمعاتهم، فإنها تظل مرهوبة يستبشع الناس حدوثها ولا يقدم عليها أحد. فيقف هذا حائلاً سلبياً يحول دون انتشارها. وهكذا يقصد الإسلام بتصعيب إثبات الزنا ألا تشيع الفاحشة بالسماع، وتظل قلوب المتطهرين والمتطهرات خلواً مما يخدش ترفعها ونظافتها. ولمثل هذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم من وقع في معصية فستر الله عليه فلم يره أحد، أن لا يعود فيقول صنعت كذا وكذا.

وإنما توقع العقوبة على المتبجح الذي يصل تبجحه إلى حد أن يضبطه أربعة من المارة متلبساً بجريمته. وأقول من المارة، لأن التجسس ممنوع بأمر القرآن. وتسور البيوت لإثبات الجريمة ممنوع كذلك إلا أن تقوم القرآن اليقينية على اتخاذها أوكاراً للمفسدين في الأرض، يسعون فيها فسادا.

وهذا المتبجح يرتكب في الحقيقة جريمة مزدوجة. فليس هو الشخص الذي استولت عليه نزوة الغريزة فلم يقدر عليها. وإنما هو العابث المستهتر، الهازئ بكل تقاليد المجتمع وقوانينه وآدابه، فهو لذلك لا يستحق الرحمة من الله ولا من الناس، فيقول القرآن عنه وعن شريكته في الجريمة: "وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ".

أما المجرم المتستر، الذي يراعي تقاليد الجماعة، حتى وهو يقع في الخطيئة، فهو أقل ضرراً على المجتمع لأن جريمته لن تشيع، فلا يكون هناك خطر العدوى بالقدوة السيئة. وهو متروك لضميره، ولعذاب الآخرة ينتظره في نهاية المطاف. فإما أن يتوب ويصلح، فعسى الله أن يغفر له، وإما أن يستمر في غيه، فيزيد عبودية لحيوانيته، فيقع يوماً تحت طائلة العذاب.

ذلك بين العزاب من الشبان المراهقين. ولكن المتزوجين أحياناً يقعون في الخطيئة. وقد كان المفهوم أن الزواج قد أحصنهم فلم يعودوا يجدون دافعاً للجريمة. وكان هذا هو السبب في تشديد العقوبة عليهم وجعلها الرجم حتى الموت لا مجرد الجلد. ومع ذلك فإن تلك العقوبة القاسية لم تقرر على الزوج أو الزوجة حتى تستنفد جميع المبررات المعقولة.. رغم أنهما متزوجان.

فهذه المبررات عند الزوج قد تكون طاقة جنسية شاذة عنيفة لا تكفيها زوجة واحدة. أو قد تكون كرهاً للزوجة لا تجعل الاتصال بها يحدث السكينة المطلوبة. وقد كان تشريعا تعدد الزوجات وإباحة الطلاق منظوراً إليهما من هذه الوجهة، مع المبررات الأخرى التي اشتملت عليها حكمة التشريع لمواجهة حالات "الطوارئ" الشاذة. فأما الزوجة فقد يكون عذرها كذلك أن زوجها عاجز عن إشباع رغبتها الجنسية أو تكون كارهة له بحيث لا تسمتع بالاتصال به. وهما حالتان تبيحان لها أن تطلب الطلاق وتحصل عليه.

وهكذا تسقط المبررات، ولا يبقى إلا الزجر بعقوبة قاسية تكافئ الجرم في شناعته.

* * *

أما الخمر فلست أرى كيف يتجه إليها شخص له فطرة سليمة! فلنسأل الشاربين إذن ما الذي يغريهم بها، فينكبّون عليها حتى ينسوا أنفسهم وكرامتهم!

يقولون إنهم يغرقون فيها هموم الدنيا، ويستبدلون بظلمة اليأس نشوة وانطلاقاً. ولكن أصحيح ما يقولون؟ وما قيمة النشوة التي يعقبها الخمار والدوار، ويتبعها في الصباح هم أسود يغشى الحياة كلها بظلمته كما كان بالأمس أو أشد؟

على أي حال، فالخمر من أدواء المجتمع المضطرب الذي لا توازن فيه..

فالترف الفاجر في القصور يبلد الحس بكثرة المتاع، والانكباب الدائم عليه، فيحتاج هذا الحس البليد إلى منشطات صناعية، ليستعيد شيئاً من نشاطه المفقود.

والفراغ التافه الذي يحيا فيه المترفون، يبعث على السأم والركود، فيحتاج هو الآخر إلى "مبهجات"صناعية، تخيل لصاحبها أنه يتجدد، فيحس أنه يعيش.

وهكذا تحيا القصور دائماً غارقة في الخمر، ما دامت غارقة في الفجور.

أما الشعب المحروم من جانب آخر فهو مكبوت محزون، تأكل الحسرة قلبه، وينغص الواقع حياته؛ ولذلك يلتمس المهرب في الخمر أو غيرها من "المغيبات" لينسى.. ينسى الهم والكبت والتنغيص طرفاً من الليل، فإذا أقبل الصباح عاد الهم من جديد.

وأشد الناس إقبالاً على الخمر هم العمال المتعطلون. فحالة التعطل هي أقسى ما يمر على العامل من الناحية النفسية، لا المالية فحسب. لذلك يشتد إدمانه على الخمر لينسى هذا العجز الذي يعيش فيه. وإذا كان فقيراً معدماً، فهو يشرب أردأ الأنواع، وهي في الوقت ذات أقدرها على شل التفكير.

وهكذا تلازم الخمر والمخدرات الأخرى كل مجتمع تشتد فيه الفوارق بين الطبقات.

ولكن الملاحظ أنها توجد اليوم في كل المجتمعات وتؤدي في كل منها وظيفة متقاربة، هي الهرب من الواقع السيء حيناً من الزمان... ولكن ذلك لا يستعصي على التفسير. فالمدنية الحديثة، كما صدرت عن الغرب المادي الذي لا يؤمن بالروح، ولا يرتفع عن المادة، مدنية ثقيلة الحمل على الأعصاب. وليس فيها الترفيه الروحي الذي كان يمكن أن يعوض الجهد الجسدي المضني، أو الجهد العصبي طوال النهار. فلا بد إذن من مرفه صناعي، يخلق هذا الجو المشرق، بعيداً عن كآبة الآلة الجامدة ذات الوتيرة الواحدة. الآلة الصماء التي لا تأنس إليها النفس، ولا يرتاح إليها الضمير. وبعيداً عن الجلسة المملة في مكاتب الحكومات والشركات، ساعات متطاولة من النهار في عمل صامت كئيب.

وقد لوحظ أن الخمر، وكل المفاسد الخلقية الأخرى، تسير دائماً في ركاب "المدنية" الأوربية، حيثما وصلت شرورها إلى ميدان جديد.

وكان يقال إن البرد القارس في أوربا هو الذي أجبر الأوربيين على شرب الخمر، ولكن انتشار شرب الخمر في منطاق شديدة الحرارة في أمريكا، كفيل بالرد على هذا الزعم، كما يرد عليه أيضاً وجود قوم في أبرد بلاد أوربا لا يشربون الخمر، ومع ذلك لا يحسون بنقص في نشاطهم وحيويتهم.

وإنما الحقيقية أن الجفاء الذي يتسم به الغرب المادي، لقيام علاقاته على غير روح الود الإنساني فترات طويلة من التاريخ، يحتاج إلى "مليّن" صناعي، يذيب هذه القشرة الجامدة التي كونّنها الصراع على لقمة العيش، ويصل إلى القرار الإنساني المطمور تحت الركام.

أما المجتمع الشرقي أو الإسلامي فإنسانيته دائماً حاضرة، طافحة على السطح، وعميقة في الضمير. فهو لا يلجأ إلى الخمر إلا هروباً من الملل المخيم على القصور، أو هروباً من الواقع السيء الذي ظلت تعانيه الشعوب في سياسة الحكم والمال، آماداً متطاولة، وما زالت حتى اليوم تعانيه.

والنظام الإسلامي الصحيح مكلف بإعادة التوازن إلى المجتمع كلما جنح إلى الاختلال. ومكلف بإيجاد عمل للمتعطلين، سواء من سكان القصور الفارغين، أو من الشعب الفقير. وبذلك تنتفي الحاجة القاسية والفراغ الممل.

والتربية الإسلامية كذلك، بما تبثه في القلوب من تراحم وتعاطف، لا تجعل أحداً يركبه الهم إلى الدرجة التي تلجئه إلى الهروب من الواقع، دون أن يناله من عطف الآخرين ورحمتهم ما يخفف عنه، ويرده إلى البِشْر والتطلع والرجاء. وفوق ذلك فالإسلام يعالج جفوة الحياة وتجهمها بالإشراقة الروحية التي تبعثها العبادة، وإن كان لا يستحب أن تشغل العبادة أحداً عن عمله الذي يرتزق منه، ولا عن الصحو الواجب للمؤمن المجاهد في سبيل الله.

ومع ذلك فحين يوجد –رغم كل احتياط– من تلجئه حالة نفسية أو جسدية إلى شرب الخمر، فهو لا يعاقب –في الحياة الدنيا– على مجرد شربها، وإنما يعاقب على الجهر بذلك بحيث يراه الناس. وتلك جريمة أخرى مضافة إلى الشراب. لأنها تعدي بالقدوة السيئة وتغري بالاستهتار.

أما الشارب المتستر، فحسبه عذاب الآخرة، إذا لم يتب إلى الله. والواقع أنه إذا لم يتب، فسوف يصل إلى الإدمان، والمدن لا يستطيع أن يضبط نفسه، فيصل في النهاية إلى العلانية التي توجب العقاب.

* * *

أما المرتد فلست أدري كيف أبحث له عن مبررات!

غاية ما أستطيع أن أقول: إنها نوبة من الشك تنتاب الفرد، فيشك في إلهه وفي كل ما حوله، حتى نفسه! أي أنها أزمة نفسية، دائمة أو موقوتة. أو خلل نفسي يؤدي إلى خلل في

التفكير. هذا طبعاً إذا أحسنّا الظن. وإلا فإن الرغبة في الانفلات من القيود، كامنة دائماً وراء هذا التحايل الفكري، مقصوداً كان أو غير مقصود.

والمجتمع الإسلامي يربي أفراده على الإيمان، ويطبع في نفوسهم الطمأنينة إلى الله، والتوجه إليه دائماً في كل مشكلة؛ ويعقد بين العبد والرب صلة وثيقة من الحب والرجاء، تنتفي معها الأزمات الروحية التي تثور في نفوس المتشككين. ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى النصيحة قبل توقيع العقوبة.

وعلى أي حال فالمرتد الذي يبقي أفكاره لنفسه ولا يذيعها في المجتمع، لا يناله العقاب في الدنيا، لسبب بسيط، هو أن أحداً لن يعرف به. وإنما يعاقب المجتمع دائماً على الجهر بالجريمة، لأن فيه خطر العدوى، وهو خطر يقوض أركان المجتمع في النهاية.

أما المرتد المستتر، فقد يعود فيهتدي. فيتوب الله عليه. وإلا فعذاب الآخرة للكافرين.

* * *

والإفساد في الأرض هو مجموع الجرائم السابقة كلها، وإنما يزيد عليها أن مرتكبيها ليسوا أفراداً متفرقين، بل عصابات مجتمعة، تقدر على "كميات" من الشر لا يقدر عليها شخص بمفرده.

ولا يمكن أن تقوم المبررات للإفساد في الأرض إلا في المجتمع المختل، الذي لا يجد فيه الناس العمل الشريف، أو الكسب المجزي على العمل الشريف.

والمجتمع الإسلامي الحق مكلف بأن يمنع تلك الحالة من الوقوع، وبمعالجتها إذا وقعت، بإعادة التوازن إلى المجتمع، فعندئذ لا توجد المبررات، ويحق العقاب على المفسدين.

* * *

وبعد فتلك نظرة الإسلام إلى الجريمة والعقاب.

وهي إذ تراعي حق الجماعة في الطمأنينة اللازمة لكيانها، وتضع لهذه الطمأنينة ما يكفلها من تشريعات، لا تغفل عن دوافع الجريمة في نفس الفرد. ولا تطبق العقوبة عليه حتى تضمن أولاً أن هذه المبررات غير قائمة في شعوره. وهي تعترف بكلا الدوافع الاقتصادية

والدوافع النفسية للجريمة، وذلك قبل أن يتشدق بهما المتشدقون في الغرب بما يزيد على ألف عام!

فأين هذه العدالة المطلقة، التي تمسك الميزان من منتصفه، وتعطي كل ذي حق حقه بغير تفريط ولا إفراط، من تخرصات المتخرصين على الإسلام، أو من العدالة الجزئية التي اهتدى إليها الأقزام؟

حقاً إن الإسلام لا يتطرف مع المدارس النفسية التحليلية ليقول إن المجرمين جميعاً مرضى لا يجوز للمجتمع أن يعاقبهم على ما أحدثه فيهم من شذوذ. ولكنه يوجه المجتمع — بكل الوسائل الاقتصادية والنفسية والروحية– إلى حالة لا تسمح بقيام الشذوذ النفسي. فإذا بقيت بعد ذلك حالات شاذة نادرة، وهو أمر لا معدى عن حدوثه أياً كان الجهد المبذول، فما ذنب البريء الذي لم يشترك أي اشتراك في إحداث هذا الشذوذ، حين ترتكب في حقه الجريمة؟ إن العدل ليقضي أن نضع العقوبات التي تخوّف هذا الشخص الشاذ من ارتكاب الجريمة، فيفكر مرات قبل أن يقدم عليها. فإذا كان الشذوذ عنيفاً بحيث يقضي قضاء كاملاً على الإرادة، فقد سقط الحد من تلقاء نفسه، لأن الحد لا يقام إلا على الشخص المسئول.

أما الحالات الخفيفة التي لا تقضي على الإرادة، وتقع فيها المسئولية، فغاية ما يحدث فيها هو "كبت" نوازع الجريمة خوفاً من العقاب. وذلك أخف ما يمكن أن يقع من الإجراءات، حرصاً على سلامة الأبرياء. والإسلام على أي حال يعمل على علاج الجميع بما يصلح نفوسهم، ويستخرج منها دوافع الجريمة قبل أن تقع بالفعل، كلما كان هذا في الإمكان.

ومهما يكن من أمر، فالمجتمع الإسلامي الصحيح هو أقل مجتمعات الأرض لجوءاً إلى العقوبة، لأنه أشدها حرصاً على بناء النفس الإنسانية على وضعها السليم.

المشكلة الجنسية

الجنس مشكلة[١]...

فالإحساس الجنسي هو أعنف الأحاسيس التي تخطر في نفس الفرد، بعد إحساسه بذاته. وطالما كان الإنسان مطمئناً على ذاته، من الوحوش الكاسرة والمفاجآت القاتلة، فالجنس هو القوة المسيطرة على كيانه، الموجهة له من حيث يشعر أو لا يشعر، في مسارب الحياة المختلفة وطرقاتها المتعرجة، ما لم يكن للحياة هدف أعلى، يستوعب الطاقة البشرية ويوجهها إلى القيم العليا، وإلى الجهاد في سبيل إقامة الحق والعدل.

لذلك كانت المدنيات التي تؤمّن الناس على أرواحهم وأملاكهم أبعث على استثارة العامل الجنسي وتوسيع نطاقه في الحياة، على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن، من أن المتوحشين أو البدائيين، أشد اهتماماً بالمسألة الجنسية. وإن كان ينبغي أن نفرق هنا بين العنف الذي يمارس به البدائيون شئونهم كلها، والجنسية من بينها، مع المجال الضيق والنطاق المحدود، وبين التهذيب العملي مع السعة والشمول عند المتحضرين.

ولذلك أيضاً كانت كل مدنية تجنح إلى الترف وتيسير وسائل العيش، دون أن تقيم للحياة هدفاً أعلى تجاهد في سبيله، أشد استثارة للشعور الجنسي، حتى لتجعله الشغل الشاغل، والهم المقعد المقيم، لا بتأثير الطعام الموفور والفراش الوثير والطاقة المذخورة التي لا تنفق في شيء فحسب، بل كذلك لسد الفراغ الشعوري الهائل الذي يتخلف بعد قضاء كل مطالب العيش من أيسر سبيل.

والمشكلة في الجنس أنه ضرورة وضرر في آن[٢].

([١]) خطر لي فيما بعد (في الجزء الثاني من منهج التربية الإسلامية) أن استخدام كلمة "مشكلة" بالنسبة لأي دافع من الدوافع الفطرية أمر بعيد عن الصواب. وأن "المشكلة" لا تنجم من الدافع الفطري في ذاته، إنما تنجم من التوجيه الفاسد لتلك الدوافع. وأنه حين يطبق منهج التربية الإسلامية تطبيقاً صحيحاً في مجتمع مسلم فلن توجد "مشكلة" جنسية! (راجع منهج التربية الإسلامية، الجزء الثاني).

([٢]) خطر لي فيما بعد (في الجزء الثاني من منهج التربية الإسلامية) أن استخدام كلمة "مشكلة" بالنسبة لأي دافع من الدوافع الفطرية أمر بعيد عن الصواب. وأن "المشكلة" لا تنجم عن الدافع الفطري في ذاته،

ضرورة لأن الحياة لا يمكن أن تستمر إلا بالتزواج الدائم، الذي لا يقف في جيل من الأجيالأ. فلا بد إذن أن يكون في نفس كل فرد في كل جيل ما يحمله على طلب الجنس الآخر ليتم التزاوج، ويخرج النسل الجديد الذي يعمر وجه الأرض. ولا بد أن يكون هذا الدافع من العنف والإلحاح بحيث لا يتمكن الفرد من الإفلات منه، ولو حدثته نفسه بالإفلات!

وضرر لأن الاستجابة الكاملة لهذا الدافع الملح تؤدي إلى هبوط الإنسان إلى مرتبة الحيوان، وتفسد الحياة كلها إذ تنتهي بها إلى أن تكون ضرورة جسد ونشوة غريزة، لا ترتفع إلى فكرة عليا، ولا شعور إنساني، ولا فن رفيع. وبذلك يتحطم المجتمع وتنهار الحضارة وينتهي كل شيء إلى البوار.

والتوفيق بين هذين المتناقضين هو مهمة الإنسانية!

ففي عالم الحيوان تقوم الغريزة بتنظيم مواسم معينة للنشاط الجنسي، حتى إذا تمت المهمة، وحملت الإناث بذور الأجيال القادمة، صام الذكر والأنثى كلاهما عن كل محاولة جنسية، صياماً ينشأ من عدم وجود الرغبة، لا من ضبطها وتقييدها بإرادة الحيوان.

أما الإنسان فقد تحرر من هذا القيد، وصارت الأيام كلها عنده موسماً صالحاً لهذا النشاط. وفي مقابل الحرية تقوم دائماً تبعة، فتلك سنة الحياة!

وهذه التبعة تقتضي أن يقوم الإنسان نفسه بتنظيم مشاعره الجنسية وضبطها، بحيث تحقق أهدافها المرسومة، ولا تعود عليه بالضرر فرداً أو جماعة.

وعلى قدر توفيقه في هذه المهمة يكون مدى ارتفاعه في سلم الرقي. فلن يكون مرتفعاً إذا هو أغرق في ملذاته الجنسية دون أن يصحو إلى أهداف الحياة الأخرى، التي لا تقف عند مجرد استمرارها على وجه الأرض، بل تهدف دائماً إلى التحسين والارتفاع.

ولن يكون مرتفعاً الرفعة الحقيقية إذا هو أهمل دافع الجنس، ليتطهر ويتسامى بروحه عن ضرورات الأرض. لأنه بذلك يقف في طريق غرض أصيل للحياة، فضلاً عما يصيبه هو من كبت وإرهاق.

إنما تنجم من التوجيه الفاسد لتلك الدوافع. وأنه حين يطبق منهج التربية الإسلامية تطبيقاً صحيحاً في مجتمع مسلم فلن توجد "مشكلة" جنسية! (راجع منهج التربية الإسلامية، الجزء الثاني).

وإنما يرتفع حقاً حين يصل إلى التوازن بين المطالب المختلفة والنزعات المتباينة. بين ضغط الجسد وانطلاقة الروح، بين واقع الأرض المحدود، وفسحة السماء التي لا تعرف الحدود.

والحياة كلها في أفقها الأعلى محاولة دائمة للتوازن بين مختلف النزعات.

وما يزعم أحد أنها محاولة سهلة رفيقة. فهي محاولة مشقية لا يصل إليها فرد إلا وقد بذل من جهده ومن راحته. وقد يحتاج أن يبذل فيها الدماء والدموع!

ولكنه يجد سعادته من خلال هذه الآلام... سعادة الشعور بالرفعة والامتياز. سعادة القدرة على الانطلاق لحظة من قيود الضرورة المرهقة، والانفلات من الظلمة الكابية إلى إشراقة النور.

ومتى كانت الحياة خلواً من الآلام؟

لو أن الانطلاق الكامل مع رغبات الجسد، يمنح النفس سعادة كاملة لا يشوبها القلق والعذاب، لكان هناك شيء من المنطق في دعوة الراغبين في الهبوط! ولكنه ليس كذلك في الواقع، فهو يبعث اللهفة الدائمة ويؤدي إلى شقاء الجسد والأعصاب..

ولكنه شقاء خطير!

وعلى قدر مكان الإنسان في سلم الرقي، يكون شقاؤه وسعادته. فهو في دركه الأسفل يتمتع كما تتمتع الأنعام، ويشقى بالتفاهات الحقيرة التي لا تزن جناح بعوضة!

وهو في أعلى آفاقه يشقى في جهاد الشر المنبث في الحياة والأحياء، ويسعد كذلك بلذة الانتصار.

فإذا لم يكن من الشقاء بد، في مقابل قدر من السعادة، فعلام يا ترى نحرص على الشقاء الحقير في مقابل نعيم حقير؟!

* * *

وحين نتحدث عن الجنس فلا مناص من ذكر فرويد، فقد كان يوجه اهتمامه لهذه المسألة إلى درجة المبالغة والشذوذ! وقد ألف كتاباً خاصاً بشأنها سماه Three Contributions to the Sexual Theory، ولكن كل كتبه الأخرى تدور

حول الغريزة الجنسية، لأنه يجعلها مدار الحياة كلها، ومنبع المشاعر البشرية جميعها بلا استثناء.

ويصل به التعسف في تقرير نظريته إلى حد أن يصبغ كل حركة، حتى حركات الطفل الرضيع، بصبغة الجنس الحادة المجنونة. فالطفل يرضع فيجد في رضاعته لذة جنسية! ويلتصق بأمه بدافع الجنس! (والطفلة يا ترى هل تحس نحو أمها بنفس الدافع؟) وهو يمص إبهامه بنشوة جنسية، ويحرك أعضاءه بنفس الدافع ولنفس الغاية! وهكذا وهكذا إلى آخر الأوهام التي يقيمها بغير دليل، إلا دليلاً واحداً مشكوكاً فيه هو حالات الشذوذ. وقد بينا في فصل "فرويد" رأينا في استدلالاته الخاطئة من حالات الشذوذ.

والحضارة كلها ناشئة من الغريزة الجنسية، لا لأنها تجمع الذكر والأنثى، فتخرج منهما نسلاً، فيتكون المجتمع، وتتعدد ضروراته فترتقي حياته... كلا! فهذا كلام مفهوم معقول، لا يحتاج في بيانه إلى عبقرية ولا شذوذ! وإنما الذي يحتاج إلى العبقرية والشذوذ أن يقول: إن الإنسانية الأولى قتلت أباها، لأن الأبناء طمعوا في الاستيلاء على أمهم والاستئثار بها دون أبيهم، لأنهم يحسون نحوها بشبق الجنس. فلما قتلوه وجدوا أنهم سيدخلون في معركة عنيفة لتقرير غلبة أحدهم، واستيلائه على أمه. لذلك كبت الأولاد شعورهم الشهوي نحو أمهم. ومن هذا الكبت نشأت الحضارة!!

وحين قتلوا أباهم بدافع الصراع الجنسي نشأ الدين! فقد أحسوا بالندم على فعلتهم فقدسوا ذكرى الوالد، وجسموه في حيوان، فعبدوا الحيوان! ثم ظلت الفكرة ترتقي حتى عبدوا إلهاً ما.. وذلك قبل أن تنزل الأديان. ولكن نزول الأديان من السماء لم يخرجها عن نطاق الجنس. فقد أراد المسيح أن يقتل أباه ثم جعل نفسه إلهاً مكانه، كما قتل الولد الأول أباه ليأخذ مكانه مع الأم!!

على هذا النسق من التعسف والسخف يجري فرويد في تفسير السلوك الإنساني كله على ضوء الجنس. وما يحتاج الإنسان، لكي يؤمن بقوة الدافع الجنسي وتعمقه، أن يصل إلى كل هذا التعسف السخيف. فما من شك في أن الحياة كلها لا يمكن أن تقوم بغير المشاعر الجنسية التي تجمع بين الجنسين، ومن تطور هذه الغريزة نشأت الأسرة بكل ما فيها من مشاعر التعاطف والود والأمومة والأبوة. ومن أجل الأولاد خرج الوالد للعمل والإنتاج، وبدافع الصراع وحب الغلبة، تحسنت وسائل الإنتاج وارتقى العلم...

ومن هذه الغريزة كذلك نشأ الفن. فهو في مبدئه حنين جنس إلى جنس، وفرحة باللقاء. وظل يرتقي حتى شمل الجمال كله في الكون العريض، وبعد عن منبعه الأول، ولكنه ما زال على صلة به لا يفترقان.

ومن رغبة كل جنس في أن يعجب الآخر نشأ كثير من المشاعر والأعمال، فتفنن الرجل في إظهار قوته ومقدرته، وتفننت المرأة في إبراز جمالها وفتنتها، وإظهار مقدرتها على تدبير المنزل بمختلف شئونه. فكان الجنس باعثاً هاماً من بواعث الحيوية في كلا الجنسين.

وهكذا لا نكاد نجد شيئاً في حياة الرجل والمرأة لم يدخل فيه الجنس من بعيد أو قريب. ولكن تفسير الحياة —في أبسط صورها– بباعث واحد، أو عنصر واحد، خطأ علمي لا يرتكبه إلا الأطفال. وقد كان فرويد مخطئاً أشد الخطأ حين قصر تفسير الحياة كلها على دوافع الجنس، مهما كانت من القوة والشمول.

* * *

على أن هذه الأحكام العامة على الطاقة الجنسية لا ينبغي أن تنسينا حقيقة مهمة: هي اختلاف طبيعة الإحساس الجنسي بين الرجل والمرأة، مع اشتراكهما في الأصل الكبير.

فكل منهما مهيأ لوظيفة معينة. وعلى حسب تلك الوظيفة صيغت مشاعر كل منهما وأفكاره، كما صيغ جسده من قبل، بحيث يؤدي وظيفته المرسومة على أفضل وجه.

وإذ كان الرجل بتكوينه الجسدي والعصبي مكلفاً بالصراع الخارجي لكسب القوت، فقد تضخم إحساسه بذاتيته، ونزعته إلى السيطرة، ليكون ذلك هو الدافع الذي يدفعه إلى الصراع. ولم يعد الجنس يستغرق من جسده ولا تفكيره بقدر ما يستغرق من جسد المرأة وتفكيرها. وبغير ذلك لم يكن يتيسر له أن يفرغ إلى مهمته الأولى أطول وقت مستطاع.

ولكن هذا ليس معناه أنه طليق من الإحساس بالجنس، أو قادر على الإفلات منه لو أراد. كلا! فإن ذلك يفسد أغراض الحياة! وإنما معناه فقط أن الرجل يستطيع أن ينصرف بفكره أحياناً عن مسائل الجنس إلى ألوان أخرى من الحياة لا تتصل اتصالاً مباشراً بالمشاعر الجنسية، كما يستطيع أن ينصرف عنه بجسده في كثير من الأحيان.

وللتوفيق بين هذين الغرضين المتزاحمين في نفس الرجل، فإن مشاعر الجنس في نفس الرجل أقرب إلى النزوة الطارئة المركزة، أو الشحنة الكهربائية الجارفة، التي تنزع إلى التفريغ،

فإذا أفرغت هدأت واستقرت.. حتى تعود من جديد. وفي خلال ذلك ينصرف الرجل إلى شئون الصراع.

أما المرأة فليس إحساسها كذلك. وليس ينفي هذا أنها تشعر بوجود الشحنة الجارفة التي تطلب التفريغ، ولكن كثيراً ما يكون هذا نتيجة الإثارة الموضعية التي تصاحب العمل الجنسي.

وأما إحساس المرأة بالجنس فهو عميق جداً، وشامل جداً. ولم يكن بد من ذلك، حتى لا تحملها آلام الحمل والوضع والرضاعة على الإفلات! وهو لا يتركز في نشوة الجنس الطارئة كما يحدث عند الرجل. فبينما تنتهي المسألة –مؤقتاً– عند الرجل بهذا التفريغ السريع، فهي على العكس من ذلك عند المرأة قد تبدأ بهذا التفريغ، إذ يليه الحمل والولادة والرضاعة والتربية.. إلى آخر هذه الأمور، وكلها عند المرأة جزء من الإحساس الجنسي الأصيل.

ولا يقتصر الأمر على هذا الاختلاف الجسدي "البيولوجي" بين الرجل والمرأة في شأن الجنس. فإن أموراً كثيرة أخرى نفسية وعقلية تشير إلى هذا الاختلاف. وليس اهتمام المرأة الشديد بزينتها، مهما تكن درجة ثقافتها أو العمل الذي تؤديه، إلا مظهراً من مظاهر هذا الأمر. ففي أعماقها رغبة شديدة في أن تبدو جميلة على الدوام. وهذا –في حسها– هو التعبير المباشر عن "أنوثتها".

وتبعاً لهذا الاختلاف الحاسم في المهمة والأهداف، اختلفت طبيعة الرجل والمرأة، ليواجه كل منهما مطالبه الأساسية وقد زودته الحياة بكل التيسيرات الممكنة، ومنحته التكييف الملائم لوظيفته.

لذلك لا أرى كيف تستساغ هذه الثرثرة الفارغة عن المساواة الآلية بين الجنسين! إن المساواة في الإنسانية أمر طبيعي ومطلب معقول. فالمرأة والرجل هما شقا الإنسانية، أو هما نصفا التفاحة التي تشير إليها الأسطورة الشهيرة. أما المساواة في وظائف الحياة وطرائقها، فكيف يمكن تنفيذها، ولو أرادتها كل نساء الأرض، وعقدت من أجلها المؤتمرات، وأصدرت القرارات؟

هل في وسع هذه المؤتمرات وقراراتها الخطيرة، أن تبدل طبائع الأشياء، فتجعل الرجل يشارك المرأة في الحمل والولادة والإرضاع؟

وهل يمكن أن تكون هناك وظيفة بيولوجية من غير تكييف نفسي وجسدي خاص؟ هل اختصاص أحد الجنسين بالحمل والرضاعة لا يستتبعه أن تكون مشاعر هذا الجنس وعواطفه وأفكاره مهيأة بطريقة خاصة لاستقبال هذا الحادث الضخم، والتمشي مع مطالبه الدائمة؟

إن الأمومة، بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة، وأعمال رفيعة، وصبر على الجهد المتواصل، ودقة متناهية في الملاحظة وفي الأداء.. هي التكييف النفسي والعصبي والفكري، الذي يقابل التكييف الجسدي للحمل والإرضاع. كلاهما متمّم للآخر، متناسق معه، بحيث يكون شذوذاً عجيباً أن يوجد أحدهما في غيبة من الآخر.

وهذه الرقة اللطيفة في العاطفة، والانفعال السريع في الوجدان، والثورة القوية في المشاعر، التي تجعل الجانب العاطفي، لا الفكري، هو النبع المستعد أبداً بالفيض، المستجاش أبداً بأول لمسة.. كل ذلك من مستلزمات الأمومة، لأن مطالب الطفولة لا تحتاج إلى التفكير، الذي قد يسرع أو يبطئ، وفد يستجيب أو لا يستجيب. وإنما تحتاج إلى عاطفة مشبوبة لا تفكر، بل تلبي الداعي بلا تراخ ولا إبطاء.

فهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حين تلبي وظيفتها الأصيلة، وهدفها المرسوم.

والرجل من جانب آخر مكلف وظيفة أخرى، ومهيأ لها على طريقة أخرى.

مكلف بصراع الحياة في الخارج. سواء كان الصراع هو مجابهة الوحوش في الغابة، أو قوى الطبيعة في السماء والأرض، أو نظام الحكم وقوانين الاقتصاد.. كل ذلك لاستخلاص القوت، ولحماية ذاته وزوجه وأولاده وعشيرته من العدوان.

هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المستجاش. بل ذلك يضرها ولا ينفعها. فالعاطفة تنقلب في لحظات من النقيض إلى النقيض. ولا تصبر على اتجاه واحد إلا فترة، تتجه بعدها إلى هدف جديد. وهذا يصلح لمطالب الأمومة المتغيرة المتقلبة، ولكنه لا يصلح لعمل له خطة مرسومة، ويحتاج في تنفيذه إلى الثبات على وضع واحد لفترة طويلة من الوقت. وإنما يصلح لذلك الفكر. فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ. وهو أبطأ عملاً من العاطفة الجياشة المتفجرة؛ ولكن المطلوب منه ليس هو السرعة بقدر ما هو تقدير الاحتمالات والعواقب، وتهيئة أحسن الأسباب للوصول إلى الهدف المنشود. وسواء كان المقصود هو صيد فريسة، أو اختراع آلة، أو وضع خطة

اقتصادية، أو سياسة حكم، أو إشعال حرب، أو تدبير سلم، فكلها أمور تحتاج إلى إعمال الفكر ويفسدها تقلب العاطفة.

ولذلك فالرجل في وضعه الصحيح حين يؤدي هدفه الصحيح.

وهذا يفسر كثيراً من أوجه الخلاف بين الرجل والمرأة. فهو يفسر مثلاً لماذا يستقر الرجل في عمله، ويمنحه الجانب الأكبر من نفسه وتفكيره، بينما هو في الميدان العاطفي متنقل كالأطفال. في حين أن المرأة تستقر في علاقتها العاطفية تجاه الرجل، وحينما تتجه إليه فكأنما كيانها كله يتحرك ويدبر الخطط ويرتب الملابسات. وهي في هذا الشأن أبعد ما تكون نظراً وأشد ما تكون دقة. ترسم أهدافها لمسافات بعيدة وتعمل دائبة على تحقيق أغراضها. بينما هي لا تستقر في العمل، إلا أن يكون فيه ما يلبي جزءاً من طبيعتها الأنثوية كالتمريض أو التدريس أو الحضانة. أما حين تعمل في المتجر، فهي تلبي كذلك جزءاً من عاطفتها، بحثاً عن الرجل هناك. ولكن هذه الأعمال كلها بديل لا يغني عن الأصل، وهو الحصول على رجل وبيت وأسرة وأولاد. وما إن تعرض الفرصة للوظيفة الأولى حتى تترك المرأة عملها، لتهب نفسها لبيتها؛ إلا أن يحول دون ذلك عائق قهري، كحاجتها الشديدة إلى المال.

ولكن هذا ليس معناه الفصل الحاسم القاطع بين الجنسين. ولا معناه أن كلا منهما لا يصلح أية صلاحية لعمل الآخر.

فالعلم يقرر أن الجنين في أسابيعه الأولى لا يكون له جنس متميز، بل يحوي أعضاء الذكورة والأنوثة في وقت واحد، ولا يتقرر جنسه إلا في الشهر الثالث، فتنمو مجموعة من الأعضاء وتظل الأخرى على حالتها الجنينية، ولكنها تبقى مكانها ولا تزول. وهكذا يحمل كل جنس أعضاء من الجنس الآخر. ويقرر العلم كذلك أن في كل من الجنسين هرمونات جنسية مزدوجة، وإنما تغلب واحدة على الأخرى فتكون الرجولة أو الأنوثة واضحة بقدر هذه الغلبة وعلى حسب نسبتها. فإذا جاءت الشيخوخة ضعفت الهرمونات المميزة للجنس، فأخذت الأخرى تظهر عليها رويداً رويداً، فيخشن صوت المرأة، ويضعف صوت الرجل ويرق...

الجنسان إذن خليط، وعلى نسب متفاوتة. فإذا وجدت امرأة تصلح للحكم أو القضاء أو حمل الأثقال أو الحرب والقتال.. وإذا وجد رجل يصلح للطهي وإدارة البيوت أو الإشراف الدقيق على الأطفال، أو الحنان الأنثوي، أو كان عاطفياً سريع التقلب يتنقل في لحظة من النقيض للنقيض..

فكل ذلك أمر طبيعي، ونتيجة صحيحة لاختلاط الجنسين في كيان كل جنس. ولكنه خلو من الدلالة المزيفة التي يريد أن يلصقها به شذاذ الآفاق، في الغرب المنحل والشرق المتفكك سواء.

فالمسألة في وضعها الصحيح ينبغي أن توضع على هذه الصورة: هل كل هذه الأعمال التي تصلح لها المرأة زائدة عن وظيفتها الطبيعية، تغنيها عن هذه الوظيفة الأصيلة؟ تغنيها عن طلب البيت والأولاد والأسرة؟ وتغنيها عن طلب الرجل قبل هذا وبعد ذلك ليكون في البيت رجل؟ بصرف النظر عن شهوة الجنس وجوعة الجسد؟

* * *

على أن ذلك كله شيء والمساواة الإنسانية شيء آخر. فكلا الجنسين من طينة واحدة ومن أصل واحد. وكلاهما ينطبق عليه الوصف الذي أوردناه في فصل "نظرة الإسلام": مخلوق لا هو بالملاك و بالحيوان، وإن كان قادراً على الصعود كالملائكة، والهبوط إلى مستوى الحيوان.

ولست أجد في نفسي ميلاً لتلك المفاخرات التي يعقدها الجنسان كل ضد الآخر، كالمفاخرة بين القطار والطائرة، والطبيب والمهندس.. إلى آخر ما تفسد به دروس الإنشاء عقول التلاميذ!

إنني أومن بأن لكل من الجنسين نبالاته الرفيعة، وسفالاته المخزية، كل في ميدانه وعلى طريقته. فالرجل الذي يهب نفسه لفكرة، فيعيش حياته كلها من أجلها، لا تفتنه مغريات الأرض، ولا تقعده عن الجهاد عقبة، دون أن يكون له في ذلك مصلحة قريبة أو بعيدة، وإنما يعمل لصالح الإنسانية بلا تمييز؛ الإنسانية التي يربطها بقلبه الحب.. الحب الخالص من الضغائن والأحقاد.. الحب الشامل للجميع.. ذلك يرتفع إلى قمم لا تقدر عليها المرأة[1].

([1]) حين كتبت هذا في الطبعة الأولى كان في خاطري الأنبياء -وكلهم من الرجال- والمصلحون المخلصون والمكافحون في سبيل الأفكار والعقائد. ثم خطر لي من عالم المرأة في داخل الإسلام وخارجه أسماء شهيرة: أسماء بنت أبي بكر ومدام كوري وجان دارك؛ بالإضافة إلى كثير غيرهن من المؤمنات بعقيدة والمكافحات في سبيلها. ولكن ينبغي أن نذكر في هذا الشأن حقيقتين بارزتين: الأولى أن المرأة لا تصبر للكفاح الطويل مع الهزيمة. والثانية أنها لا تصبر على الكفاح الذي لا يؤتي ثماره في أثناء حياتها الفردية. بينما عظماء المكافحين من الرجال يصبرون على الهزائم المتكررة ويظلون على نفس الدرجة من التصميم.

والرجل الذي يهبط إلى حيوانية الجنس، فيتحول إلى نزوة بهيمية لا تهدأ، إلى ذئب مفترس لا يكاد ينتهي من الاعتداء على فريسة حتى يبحث عن أخرى في سعار مجنون، ذلك يهبط إلى مستوى لا تقدر عليه المرأة السوية.

والمرأة التي تهب نفسها لحب كبير، لرجلها أو أبنائها وبيتها، فتتفانى في ذلك إلى أبعد حد. إلى حد أن تنسى نفسها وأنانيتها، وكأنما كل ذرة من كيانها قد تحولت إلى طاقة تنفقها لإسعاد من تحب؛ تلك ترتفع إلى قمة لا يصل إليها الرجل.

والمرأة التي تبلغ بها وحشية الغيرة من امرأة أخرى أن تقتل لها أولادها، أو تنشب أظافرها في جسدها تمزقه، تهبط إلى مستوى لا يقدر عليه الرجل السوي.

وبين هذه القمم العالية والمنحدرات السحيقة يلتقي الجنسان في كثير من ألوان النبل وكثير من الحقارات... كل على طريقته، وفي ميدانه. ولكن أعجب ما في هذه الحياة أن نتوءات كل جنس تلتقي في الجنس الآخر بأوضاع كأنما هي مرسومة على قدها لتتلبس بها وتثبت فيها! كل بروز هنا يقابله هناك تجويف، وكل تجويف هنا يقابله هناك بروز. ومن التحام الجزئين المتقابلين تتألف "تعشيقة" مترابطة متناسقة، يتكون منها مخلوق متكامل، متآلف الأجزاء. وقد يحدث أحياناً ألا يتآلف الجزءان، لأن كلاً منهما ليس على قد الآخر بالتمام. فيكون معنى ذلك أنه قد وقع خطأ في التنسيق: فذهب كل نصف من نصفي التفاحة في طريق، ولم يعثر على نصفه الأصيل. ولكن التنافر الكامل قليل على أي حال، وفي الإنسانية من المرونة ما يجعلها توفق نتوءاتها ومنحنياتها، ليتلبس كل نصف بالآخر على قدر الإمكان.

* * *

وأنا أومن بتكافؤ الجنسين على هذا المعنى؛ على أساس التقابل في النتوءات والمنحنيات، ليتكون منها تمازج كامل بين القسمين المتقابلين. ولكني لا أستطيع أن أومن به على أساس التماثل المطلق. ففضلاً عن المغالطة الضخمة التي تحملها هذه الدعوى بين طياتها، وإغفالها لكل الحقائق الجسدية والنفسية، البيولوجية والفسيولوجية، فإنها لا تؤدي إلى التآلف المنشود، بل تؤدي إلى الاحتكاك الدائم بين النتوءات المتماثلة، التي يبرز بعضها في وجه بعض. فما يحب الرجل أن يقضي حياته مع رجل مثله، وما يلبي رغبات المرأة أن تعيش

كما أنهم يستطيعون الكفاح من أجل فكرة يعلمون في قرارة أنفسهم أنها لن تتحقق في جيلهم ولن تنتصر وهم أحياء. وتلك فروق ينبغي أن يحسب حسابها في هذا المجال.

مع امرأة تشابهها في الطباع، تنقص حيث تنقص هي، وتزيد حيث تزيد، فلا يلتقي هذا النقص بتلك الزيادة. ويخطر على ذهني تشبيه لا أملك الإفلات من صورته: صورة حذاء كلتا فردتيه يمين أو يسار!! وأتخيل لابسه وهو يعرج بإحدى قدميه لأن الحذاء لا يوافقها، وقد يصبر عليه حيناً، ولكنه يضيق به في النهاية، فيلقيه عنه في حنق وضيق!

وليست العلاقة بين المرأة والرجل علاقة الصراع والقتال، ليشحذ كل منهما سلاحه في وجه الآخر مدى الحياة. فإذا كان هناك صراع وهمي، فأنا أتخيله لا كالجيشين اللذين يلتقيان ليفتك كل منهما بالآخر، بل ليتفرس كل في الآخر، ويعجم عوده، ويكشف حقيقته بعد أن ينحي عنه الدروع التي يختفي وراءها. فإذا اطمأن إلى تلك الحقيقة ألقى سلاحه، وراح يحتضن خصمه الوهمي في شوق وابتهاج!!

وأسلحة هذا الصراع متكافئة، ولكنها ليست متماثلة. فإذا غلب الرجل بجسمه أو بعقله، أو بنقوده كما يقول الاقتصاديون، فهي تغلب بجاذبيتها وأنوثتها، فتأخذ السلب كله وتملكه في النهاية!

تلك هي الفطرة السوية، وفيها الخير كل الخير. فإذا ألقت المرأة سلاحها الأصيل، ولجأت إلى أسلحة الرجل لتحاربه بها، فقد انقلبت المسألة إذن إلى صراع حقيقي بغيض، قد يغلب فيه هذا أو ذاك. ولكن الجيشين ينحسران، فإذا جثث القتلى تملأ الميدان، جثث الحب والود والتعاطف. ولا يبقى بعد ذلك إلا وجوه صلدة وقلوب متحجرة، وشقاء يشمل الجميع.

على أن هذا كله لا ينفي أن المرأة قد أوذيت واضطهدت على مدار التاريخ. ولا ينفي أنها قد عُيّرت بأنها تحمل وتلد ولا تخرج إلى العمل، ولا تكسب قوتها بنفسها.

وتلك حطة تردت فيها البشرية، وما كان يجوز لها أن تنزل إليها. ولكني لا أرى كيف يمكن علاج ذلك بخروج المرأة إلى العمل، وتكسبها للمال، وقد كانت نتيجة ذلك في المجتمع الأوربي أن صارت المرأة –باختيارها– متعة لهو تهب نفسها راضية لكل نزوة هائجة في جسد حيوان! بل صارت في المجتمع الأمريكي –وقد حصلت على المساواة الاقتصادية الكاملة– تسعى بنفسها لاصطياد الرجل، وتتزلف إليه لعله يرضى!!

أو هذه هي الكرامة التي تسعى إليها المرأة؟ أو هذا هو الاستقلال والحرية؟

لست أستطيع أن أدافع عن الحطة التي هبطت إليها البشرية حين عُيِّرت المرأة بأن الرجل هو الذي ينفق عليها. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يدافع عن العودة إلى الرقيق الأبيض، في كل مكان استقلت فيه المرأة في ميدان الاقتصاد؟

إنما علاج ذلك بالتربية.

فحين تربي كل أم ولدها على أنه ينفق لأنه مكلف بالإنفاق، وأنه له القوامة لأنه رجل مكلف بصراع الحياة، فهو أقدر على حماية زوجه وأولاده. ولكن ليس له مقابل هذا التكليف والقوامة أن يستذل أحداً، أو يُشعر أحداً "بالدونية".

حين تربي كل أم ولدها على هذا الأساس، تنتهي المشكلة إلى حلها الصحيح. لا عن طريق المساواة الاقتصادية، ولا المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات عن طريق القانون. فما كان القانون قط وسيلة لتنفيذ شيء ما لم يكن راسخاً في الضمير.

صحيح أنه حل بطيء. وأنه خلو من الضجة المفرقعة التي تحرص عليها نساء المؤتمرات والأحزاب والهيئات. ولكنه مع ذلك الحل المثمر الوحيد.

* * *

وإذا كان كل جنس بطبعه يهفو إلى الجنس الآخر، فقد كان من المحتم أن يلتقيا على صورة من الصور. ولم يكن هناك مناص من أن تختار البشرية بين أحد وضعين: أن يكون كل النساء لكل الرجال، على المشاع. أو تكون امرأة واحدة لكل رجل، ورجل واحد لكل امرأة[1].

وقد اختار الإسلام –والأديان كلها– الوضع الآخر، واختار الغرب المتحضر أن يعود إلى الوضع الأول. فلننظر أي الوضعين أصلح للبشرية وأنسب لفطرتها. ونبدأ بالوضع الذي اختاره الغرب، ولكنا لن نتحدث عنه من الناحية الخلقية التي يكرهها علماء النفس ولا يطيقون ذكرها، بل من الناحية النفسية البحتة.

([1]) يحدد علماء الاجتماع خمسة أنواع للعلاقة بين الرجل والمرأة كما يلي: الشيوعية الجنسية، وتعدد الأزواج والزوجات معاً، ووحدانية الزوجة مع تعدد الأزواج، ووحدانية الزوج مع تعدد الزودات، ووحدانية الزوج والزوجة. ولكنا هنا نشير إلى اللونين البارزين: وهما الشيوعية من جانب، والواحدنية من جانب آخر.

لقد "تحرر" الغرب من قيود الأخلاق، لأنها عبء ثقيل ورثناه من ظلمات الماضي دون وعي منا، عن طريق التقليد الأعمى والجمود المتحجر. وقد كانت هذه الأخلاق والتقاليد تصلح للبشرية في طفولتها وتأخرها. يوم لم تكن هناك طائرات تستطيع أن تقطع العالم في ساعات. وتستطيع كذلك أن تدمره في ساعات! يوم كان الإنسان حيواناً يغار على عرضه، ولا يتركه نهباً مباحاً لغيره من الحيوانات الجائعة المسعورة. يوم كنا جهلاء، لا نفهم أن الطاقة الجنسية مسألة بيولوجية لا شأن لها بالأخلاق. مسألة حيوانية بحتة، يأتيها الإنسان كما تأتيها الكلاب والبهائم. ولا ينبغي أن توضع لها القيود المصطنعة لئلا نرتفع عن الكلاب والبهائم. يوم كنا منافقين نأثم بقلوبنا وأفكارنا، ويعتبرنا المجتمع شرفاء لأن أجسادنا وحدها لم تتلوث بالطين. فصار ينبغي أن نغرق بأجسادنا وقلوبنا وأرواحنا في الأقذار، لنكون على طبيعتنا الحيوانية الخالصة، ونخلص من تهمة النفاق!

على أي حال لقد تحررنا، ونجت أرواحنا –إن كان لنا أرواح– من لعنة الماضي المظلم الكريه. وصرنا لا نجد حرجاً في أن نصارح أنفسنا بما في أنفسنا من لواعج وأشواق. وإن كل ذكر ليحنّ لكل أنثى، وكل أنثى لكل ذكر. هكذا خلقتهم الحياة لا يستغني بعضهم عن أن ينزو على بعض. وركبت "الطبيعة" في كيان كل منهما كيمياء خاصة تجعله يهفو للآخر ويشتهيه. كيمياء أيها المتأخرون الجهلاء. كيمياء لا دخل لها بالأخلاق. بل لا ترتفع حتى تكون مجرد مشاعر، إلا لأن الكيمياء الجسدية تنشئ، كنتيجة حتمية لها –مع الأسف البالغ– مشاعر نفسية. فيفهم المغفلون ممن لم يدرسوا علم الحياة، أو علم النفس التجريبي، أن هذه المشاعر لها قيمة في ذاتها، أو يمكن أن تكون موضع احترام وتقدير. أو موضع تفاضل بين شخص وشخص!

حين ينزو كلب على أنثاه، هل تكون هناك أخلاق؟ هل تتدخل المشاعر؟ هل يجوز أن نقول إن هذا الكلب أنبل من ذلك أو أحط منه في هذا الأمر بالذات؟ كلا. كلا! وأنتم أيها البشر كالكلاب سواء بسواء. فإذا اشتعلت شهوة الجنس في أجسادكم فلماذا تقفون هكذا مترددين؟ أوَ يتردد أسلافكم من الحيوان؟ أو يحسون بذلك الخجل المصطنع الذي يقعد بكم عن العمل؟ هلموا. فليتقدم كل ذكر فيختار الأنثى التي تعجبه. فإذا تأخر أو تلكأ فهلمي أنت أيتها الأمريكية الفارهة فهزيه من جموده، وأثيري شهيته المتخاذلة. وانطلقا. فإن لم تكن الشوارع تناسبكم لأن حركة المرور تقلق متعتكم، فلا بأس بالغابات والأحراج، وشواطئ الأنهار والبحيرات. هنالك كان أجدادكم لا يجدون حرجاً في أنفسهم. فعودوا مثلهم إلى الحرية والانطلاق، وتخففوا من قيود الإنسانية السخيفة!

عظيم! ولن نتقدم إليكم باعتراض. ولكنا نسايركم إلى آخر الشوط لنرى كيف تفعلون.

* * *

حين انطلق الغرب إلى هذا العبث، كان خارجاً من قيود المسيحية الكنسية المتزمتة، التي تكبت النوازع الفطرية، وتغلها عن الانطلاق حتى في الخير المأمون. وما أريد أن أبالغ في سوء الظن. فلعلهم حسبوا مخلصين أن هذا الانطلاق هو الحل الحقيقي لمشكلة الجنس الجامحة، التي تزداد تعقداً كلما ازدادت المدنية الغربية "رقياً" على طريقتها المادية الخالصة.

وتربى جيل من البشرية على طريقة جديدة، تمنع الكبت من المشاعر بإطلاق الحرية إلى أبعد الحدود. وصار الفتى أو الفتاة حين ينطلقان مع شهوة الجسد، لا يحس كل منهما أنه قد أتى منكراً يحاسبه عليه أحد: لا ضميره، ولا المجتمع، ولا الدولة، ولا الدين:

واستمتع الناس...

وانتظر العالم أن تحدث المعجزة المرجوة، فتشبع الغريزة الجائعة، وتستقر الأجساد الهائجة، وتستقر تبعاً لذلك كل أوضاع المجتمع، وشئون الحياة.

فهل حدثت المعجزة حقاً؟

فلنترك جانباً كل ما تقوله الدعاية المغرضة من هنا أو هناك. ولنأخذ أحكامنا من الواقع الذي نراه. ولنختر أمريكا موضوعاً للدراسة. وذلك لعدة أسباب: فهي التي وصلت في الإباحة إلى أقصى المدى، على أسس علمية تجريبية! كما أنها أشد الأمم اهتماماً بالإحصاءات في كل أمر من أمور حياتها، ومن بينها شئون الجنس. وهي أخيراً القبلة التي تتجه إليها عيون الزائغين والزائغات من أبناء الشرق المضطرب المفتون[1].

ظنت الجماهير، وتابعها العلماء، أن إباحة العمل تطفئ الغريزة. ونسوا أن الغريزة من شأنها ألا تشبع، مهما قدم لها من الغذاء. ولحكمة عليا قد فطرت الغرائز هذه الفطرة. فلو أنها كانت تشبع أو تقنع بكثرة الغذاء، لجاءت عليها لحظة تتوقف عن العمل إلى الأبد، اكتفاء بما حصلت عليه. وعندئذ تقف دورة الحياة. حين يكف الناس عن الطعام لأنهم كانوا قد شبعوا ذات مرة، فتضعف أجسادهم وتتهاوى. أو حين يكفون عن الجنس لأنهم أخذوا كفايتهم من متعته، فلا يأتي نسل جديد.

([1]) كتبت ذلك في الطبعة الأولى. وقد مرت على الشرق الإسلامي فترة كانت قبلته فيها هي روسيا. وليس هناك فارق كبير!

وتلك بديهية.. فلا بد إذن من هذا الجوع المتجدد لتستمر عجلة الحياة.

ولكنا نجد من جانب آخر أن هذه الحكمة العليا ذاتها، لم تجعل هذا الجوع بحيث يملأ الحياة كلها ويستعصي على الإشباع، وإلا كانت الحياة جحيماً لا يطاق، ولم يكن هناك حتى الوقت الكافي لتدبير الغذاء اللازم لسد هذا الجوع، سواء في أمر الجنس أو الطعام.

وهكذا تنقسم الحياة إلى فترات من الجوع، وفترات من الشبع تتفق في إعداد الطعام. وتلك كانت هموم البشرية الأولى في أبسط أوضاعها.

ولكن الحياة البشرية، تمشياً مع سنة التطور والارتقاء، لم تشأ أن تقف عند هذا الحد البدائي الضئيل، ففيها دائماً تلك النزعة الفطرية إلى "تحسين" الوسائل. ومن ثم نشأت عن الجنس مشاعر وعواطف، تنبع من الغريزة، ولكنها تأخذ صورة متطورة مترفعة. وكان من ذلك الفنون المختلفة، بل الحضارة كلها في أوسع نطاق.

ومع ذلك فلنجعل كلامنا –مؤقتاً– في نطاق الغريزة ذاتها، وفي أضيق حدودها. في صورتها الجسدية البحتة، وما يصاحبها من مشاعر ملاصقة.

لقد ثبت من التجربة العملية أن كثرة الغذاء لا تطفئ الغريزة، بل تزيدها اشتعالاً، حتى تصل بها إلى السعار المجنون. وتلك هي النتيجة المنطقية التي تتفق مع الآراء النظرية. ولكنا نستمد شواهدها التجريبية من الحياة الأمريكية.

فلو أن الاطمئنان إلى إباحة العمل الجنسي، وسهولة الحصول عليه من أقرب طريق، كان يؤدي إلى تهذيب الغريزة وانطفاء ثورتها الجامحة، ما رأينا تلك المظاهر التي لا توجد بهذه الدرجة الفظيعة إلا مع الحرمان الشديد، والجوع المستبد.

فلم يقل أحد ممن شهدوا الحياة الأمريكية عن قرب وامتزجوا بها، إن الفتى والفتاة حين يلتقيان، يلجآن إلى شيء من الغزل الذي تلجأ إليه بعض الحيوانات ذاتها قبل نزوة الأجساد، بل يقولون جميعاً إنهم يلتقون، شباناً وشابات، وفي عيونهم اللهفة الواضحة والنداء المكشوف؛ كل منهما يقول بحركاته ونظراته: أن هلم، أسرع إلى العمل الأخير.

وهذا وحده دليل على أن شيئاً من التهذيب لم يلحق هذه الغريزة بالإباحة الكاملة المطلقة. وهم يقولون لك إننا على عجل. ولا وقت لدينا ننفقه في الغزل. كما أننا قوم عمليون نهدف إلى الغاية المباشرة دون إبطاء –وقد يُعجب بعض المفتونين بهذه السفسطة

التي تخفي وراءها نزوة الحيوان الهائج، الذي لا يصبر حتى على المداعبة التي تهيئ النفوس لتلقي نشوة الأجساد.

ففيم هم معجلون؟ وما هذا الشغل الشاغل الذي لا يجد دقائق قليلة يكسب فيها متعة نفسية مع الشهوة البهيمية؟ إنهم يجرون إلى نواديهم الليلية ليلعبوا القمار، أو يشهدون السينما، أو حلقات المصارعة الوحشية.. الخ. وكل هذه كانت تستطيع أن تصبر بضع دقائق، لو وجدت الرغبة في النفوس.

فهي الحيوانية الجامحة التي لم تشبع بالانطلاق المجنون.

ولكنا لا نكتفي بهذا الشاهد وهو صريح الدلالة على ما نريد. فما تلك الصور العارية التي تملأ السينما والصحف والمجلات والإعلانات، والشوارع والمنازل والنوادي والأحراج؟! وما هذا الإقبال النهم من الفتيان والفتيات على هذه الصور العاريات؟ أنا أفهم أن يكب عليها الشرق "المحروم" كما يزعمون، ليروي في الخيال ما لا يجده في الواقع. ولكن هؤلاء المرتوون ما بالهم؟ ولماذا يستهلكون كل هذا الوقت والجهد في رؤية الصور العارية، لا حيث تقابلهم مصادفة فحسب، بل في أماكن خاصة يسعون إليها سعياً، أقيمت فيها أجهزة سينمائية صغيرة يراها مشاهد واحد في الوقت الواحد، كصندوق الدنيا عندنا، فيضع في ثقب معين قطعة معينة، فيدور أمام عينه شريط عار على مختلف الأوضاع. وتلك المجموعات من الصور للممثلات والراقصات، في أوضاع مغرية مثيرة، لماذا تباع منها الألوف والملايين، لقوم لا يشعرون بلذعة الجوع الكافر والحرمان المسعور؟

إن الغريزة إذن لم تنطفئ ولم تتهذب، وإنما اشتعل أوارها، وزادت لهفة مع الانطلاق المجنون[1]!

* * *

ونرتقي إلى أفق آخر، وإن كنا بعد لا نمس حديث الأخلاق، بل نتحدث عن الأسرة من حيث هي حاجة نفسية للرجل والمرأة على السواء.

([1]) هناك ظاهرة أخرى منتشرة في كل من فرنسا وأمريكا اللتين أباحتا الحرية الجنسية إلى آخر الحدود. وهي ظاهرة الشذوذ الجنسي. وهي عجيبة في مجتمع يبيح اللقاء بين الجنسين، ويسهل الاتصال الكامل بينهما. ولكن يبدو أن هذه الإباحة الكاملة تؤدي إلى الشذوذ كلون من التغيير!

وقد كانت "الحضارة!" الغربية الحديثة بما تقوم عليه من أسس مادية خالصة، وما نتج عنها من تفسيرات قاصرة للنفس والحياة، كالتفسير الاقتصادي للتاريخ، والتفسير الجثماني للمشاعر، والتفسير الجنسي للسلوك... كل ذلك كان سبباً في زلزلة كيان الإنسانية، وتشكيكها في كل مقدساتها، وتصويرها في صورة هابطة منفرة. وشملت الزلزلة فيما شملته فكرة الأسرة، وما يقوم بين أفرادها من عواطف وارتباطات.

والواقع أن الثورة الصناعية كانت حدثاً ضخماً في التاريخ الحديث. وكان تشغيل النساء والأطفال أكبر ضربة أصابت الأسرة في صميمها، وفككت روابطها، وجعلت البيت أشبه بفندق يأوي إليه أفراد الأسرة بعد عملهم الشاق في المصانع، ليجدوا المسكن والمأكل والمشرب، ولكنهم لا يبحثون عن "العواطف" الآدمية، وهم معجلون عنها في زحمة الصراع!

وبدلاً من تصحيح الأوضاع، وإعادة الإنسانية إلى طريقها السوي الذي يليق بكرامة الإنسان، لج الغرب في غيّه، مبهوراً بقوة الآلة وضخامة الإنتاج، وراح يبتدع نظريات – علمية!– تثبت الأوضاع القائمة، وتبرر قيامها واستمرارها، باسم العلم والبحث والتمحيص!

وقد أدى "العلماء" مهمتهم في تلويث البشرية بحماسة شديدة، كأنما هم موكلون بذلك من لدن قوة جبارة، تنفخ في مشاعرهم وتأجرهم على ما يأفكون! قوة اللذة البهيمية، أو قوة الشيطان!

من هذه النظريات –العلمية– نظرية تقول بأن الأسرة مسألة اجتماعية، لا تنشأ من دوافع طبيعية، ولا ميول فردية! وإنما هي من صنع "العقل الجمعي". هو الذي ابتدعها وهي دائماً تحت سلطانه، سواء في تطور نظمها، أو فيما تقوم به من تبعات!

والذين يقولون بذلك، هم الذين يفرقون بين كيان المجتمع وبين الأفراد المكونين لهذا المجتمع، بحيث يعتقدون أن هذا "العقل الجمعي" كائن منفصل تمام الانفصال عن وجود الأفراد! ويستدلون على ذلك بأن المجتمع يقسر الأفراد أحياناً على غير ما تتجه إليه غرائزهم أو ميولهم الفطرية[1].

وقد سبق أن رأينا في فصل "الفرد والمجتمع" أن خضوع الإنسان لنزعته الجماعية على حساب نزعاته الفردية أحياناً، لا يعني أن المجتمع منفصل عن كيان الأفراد، وإنما يعني فقط

([1]) ناقشت هذه الفكرة فيما بعد في فصل "اليهود الثلاثة" من كتاب "التطور والثبات" في حياة البشرية، عند الحديث عن دركايم

أن الفرد يُغلّب إحدى نزعتيه على الأخرى، لأنه يرى في ذلك مصلحة لا يستطيع تحقيقها وهو فرد بمفرده.

ولكن الذي يعنينا هنا أن هذه النظرية توحي لمعتنقيها بأن الأسرة ليست أصلاً ثابتاً من أصول الإنسانية، بحيث لا تقوم هذه الإنسانية بدونه، وإنما هي شيء تحت تصرف المجتمع، إن شاء أبقاها وإن شاء أزالها من الوجود، دون أن يكون لأحد أن يعترض، أو يقول إن المجتمع قد أخطأ أو انحف عن سواء السبيل!

وإذا عنّ للمجتمع الحديث أن يعود إلى حالة الفوضى الجنسية السابقة للتاريخ، فهو وشأنه، لا معقب لكلماته! لأنه لا يُسأل عما يفعل، ولكن الأفراد يسألون!

ولعل أهم هذه النظريات وأخطرها كذلك في نفس الوقت، تلك النظرية القائلة بأن الأسرة بوضعها الذي استقرت عليه فترة طويلة من التاريخ كانت ضرورة اقتصادية!

فمنذ أصبح الرجل هو المالك الوحيد لوسائل الإنتاج –بعد فترة من تكوّن البيئة الزراعية– وصارت المرأة تعتمد عليه اعتماداً كاملاً في أمر إعالتها، اضطرت أن تخضع لأنانيته الجائرة، التي تلزمها بأن تكون له وحده، ولا تكون لجميع الرجال على السواء!

وإذا كان الذي يملك وسائل الإنتاج هو الذي يملك ويحكم ويشرّع، فقد ابتدع الرجل "أخلاقاً" تحيط الأسرة بالقداسة الكاذبة، ليضمن أن تظل المرأة في خدمته وحده، ولا تعرض نفسها لكل طامع غيره من الرجال!

وجاء الدين –ولعله كذلك من اختراع الرجل!– فزاد في تلك الهالات الكاذبة التي تحبس المرأة في نطاق رجل واحد، ولا تبيح لها الخروج على هذا النطاق!

ولكن العالم اليوم قد تغير: وخرجت المرأة نهائياً من أسر الرجل، لأنها صارت تعمل، وأصبحت عنصراً إيجابياً في عالم الاقتصاد. إذن لقد تحررت. ولم تعد منذ الآن مستعبدة للرجل، وللأنانية الكريهة التي ابتدعها وسماها الأسرة! لقد أصبحت حرة.. حرة تهب جسدها لمن تشاء. لا لرجل واحد معين كما كانت تفعل من قبل تحت ضغط الضرورة الاقتصادية. فإذا اشتهت أن تكون الليلة في أحضان هذا الفتى الذي يعجبها ويملك عليها مشاعرها، ثم تكون في الليلة القادمة في أحضان رجل آخر، وجدته مصادفة في العمل أو في الطريق، ورأت أنه أقوى عضلاً، أو أكثر شبهاً بكلارك جبيل، فليس لأحد أن يقول لها: لا تفعلي. فقد بطلت البربرية الأولى، وصارت المرأة تكسب عيشها وتنفق على نفسها.

ولتذهب إلى الجحيم كل دعاوى الدين والأخلاق والتقاليد. فالأخلاق مسألة اقتصادية! وكل نظام اقتصادي ينشئ الأخلاق الصالحة له. والآن وقد تغيرت النظم الاقتصادية، سواء في الغرب الرأسمالي أو روسيا الشيوعية، فقد نشأت "أخلاق" جديدة، تتفق مع الحرية الاقتصادية للمرأة، فتمنحها كذلك حرية الدعارة، باسم الحرية الشخصية، وتحقيق الكيان الذاتي!

* * *

تلك أهم الأفكار الحديثة بشأن الأسرة. وهي على ما بينها من اختلاف تتفق على أمر واحد، هو أن الأسرة ليست شيئاً من طبائع البشر، ولا أصلاً من الأصول الإنسانية. وأن بقاءها فترات متطاولة من تاريخ البشرية ليست حجة لدوام بقائها في المستقبل، إذا اقتضت الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أن تهدمها من أساسها، وتنشى مجتمعاً غير أسَري!

وهذه النظريات العلمية تغفل أهم الحقائق العلمية! وهي أن الأسرة حاجة نفسية بصرف النظر عن دفعة الجنس أو رغبة المجتمع أو حاجات الاقتصاد. وأنها –وهي تشمل عنصر الغريزة وعنصر الاقتصاد، وتخضع لتطورات المجتمع– تضيف إلى كل ذلك "مشاعر" أخرى لا تتصل بهذا وذاك!

والنظرة العلمية الصحيحة، التي لا تغالي في تقدير عنصر من مقومات الحياة البشرية على حساب سائر العناصر، تدرك أن هذه الحياة أوسع من أن تنحصر في "ضرورات" المجتمع أو "ضرورات" الاقتصاد، لأن هذا وذاك رافدان من روافدها الكثيرة المتعددة. وهي تشملهما معاً، ولكنها لا تقف عند أحدهما ولا عند كليهما، وترتفع عن عالم "الضرورة" كله إلى آفاق أخرى أوسع وأشمل، وأجدر بتحقيق كيان "الإنسان".

وما دامت الأسرة نتاجاً بشرياً، فهي ككل نتاج بشري آخر، صادرة من النفس في مجموعها، ومتأثرة بكل عناصرها. ولا شك أن تغير النظم الاقتصادية، وتطور الغريزة الجنسية مع تطور المجتمع، يتحكمان في تكييف الشكل الذي تقوم عليه الأسرة، وتكييف الروابط التي تقوم بين أعضائها. ولكن الأسرة من حيث المبدأ أعمق بكثير في نفس الفرد من دوافع الجسد وضرورات الاقتصاد. فقد يقضي الفرد –رجلاً كان أو امرأة– حاجته هذه وتلك، ويخيل إليه في فترة من فترات عمره أنه قد استغنى نهائياً عن الأسرة وروابطها. ولكن حنيناً خفياً موغلاً في أعماق نفسه، ينتبه في النهاية فيدفع به إلى طلب الأسرة، حيث يجد الاستقرار النفسي الذي لا يجده في أي مكان آخر. والذي هو في ذاته مطلب من مطالب النفس، لا تستقيم بدونه الحياة.

ولننظر نظرة علمية هادئة إلى فرد في أسرة، وفرد بلا أسرة، لنرى أيهما أكثر هدوءاً واطمئناناً في آخر الشوط.

إن الفتى والفتاة اللذين أُطلقا من قيود الأخلاق، ووجدا كفايتهما الاقتصادية، ليبدوان في سعادة غامرة ومتعة لا حد لها، وهما ينطلقان كالحيوان الهائج، يشبعان نزوات الجسد حيثما شاءا وشاءت لهما الأهواء... ولكن هذه السعادة الظاهرة لا تلبث أن تنكشف عن قلق نفسي شديد.

فقد بينا في الفقرة السابقة كيف ينتهي التكالب الشديد على اللذة، إلى سعار دائم لا يرتوي، ولا يشعر صاحبه بالراحة. لأن الذئب المسعور لا يلتذ بكل نهشة ينهشها من هنا أو هناك، وهو هائم كالمجنون، ولو كانت من أشهى طعام يحبه، كما يلتذ المخلوق السوي بالقدر المعقول، الذي يحصل عليه وهو هادئ مستقر الأعصاب. وهذا التكالب المسعور سمة دائمة من سمات الهيام الذي يقع فيه الفرد حين لا يصيخ إلى دافع الأسرة، فينطلق مع الشهوات بلا ضابط ولا حدود.

والأسرة هي الرقية الطبيعية التي تحمي الفرد من هذا السعار.

فهي أولاً تكسر من حدة الشهوة المجنونة، لأن الإنسان يزهد بفطرته من كل شيء يملكه! فإذا اطمأن الزوج والزوجة بعد فترة التعطش الأولى إلى أن كلاً منهما يملك الآخر في كل لحظة يريدها، لم يعد هناك دافع إلى التشهي العنيف والسعار الملهوف.

ولكن هذا ليس معناه أن تموت الشهوة أو تتلبد نهائياً بالزواج، فلحكمة عليا جُعلت شهوة الجنس من الحدة والعنف بحيث لا تخمد طالما كانت المقدرة الصحية للفرد صالحة لأداء الغرض المطلوب، وذلك لكي يستمر النسل، وتستمر الحياة على ظهر الأرض، لا يوقفها شِبَع الارتواء ولا زهادة الزاهدين.

بل إن هذه الشهوة في حالتها السوية ليست في حاجة إلى استثارة نفسية[1]، فهي دائماً سهلة الاستجاشة عند أول طرقة، ولكنها في حاجة دائمة إلى ملطفات تكبح جماحها، لكيلا تكون عذاباً مستمراً لصاحبها، يفقده هناءة العيش. وذلك ما يحققه الزواج.

([1]) على العكس من ذلك قد تحتاج إلى منشطات جسدية، لتجاري التطلع النفسي، حين يهمد الجسم من الإسراف.

والأسرة كذلك بمشاغلها الخاصة، ومطالبها الدائمة، وعلى الأخص حين يكثر الأولاد ويحتاجون لمزيد من الرعاية، تصرف النفس عن الشهوة الملحة، وتقف بها عند الحد المعقول الذي لا يرهق الجسم ولا يكلفه شططا.

فمن ناحية الغريزة الجنسية ذاتها تجد الأسرة هي المنظم الطبيعي لانطلاق الشهوة، بالصورة التي تمنع دمار الجسد وعذاب اللهفة الدائمة، وتمنح الفرد السوي في الوقت ذاته نصيباً معقولاً من المتعة الجسدية، ينتهي به إلى الرضا والارتواء.

ولكن الأسرة لا ترضي جانب الجسد وحده. فهذا الفتى الهائم والفتاة الهائمة لا ينعمان بالسعادة النفسية كذلك. وقد يبدو للحالمين والحالمات من أهل الشرق ومن أهل الفن، أن ما يسمونه "الحب" ويطلقون حوله الهالات الساحرة والظلال الفاتنة، هو السعادة العظمى التي لا يعدلها في الحياة شيء. وإنه لكذلك، حين يكون مرحلة طبيعية تمر بها النفس، لتتهيأ لاستقبال رفيق الحياة. ولكنه ليس كذلك حين يصير شاغل حياة. وإني أُطمئن الحالمين والحالمات أن الحب في الغرب المنحل لم يصبح ذلك النور الإلهي الشفيف، ولا النشوة الروحية المرفرفة التي قد يقرءون عنها في كتب الفن، والتي عرفتها الإنسانية ذات يوم في لحظات ارتفاعها وتطهرها، بل صار كله نشوة جسد ونزوة غريزة، ولم يعد يستحق من الوجهة النفسية أو الوجهة النفسية الخالصة أن يُحرص عليه. فلننظر إليه إذن في واقعه الموجود، لا في مثاله المنشود.

هذا "الحب" الذي انتهى إلى أن يكون شهوة ملهوفة، هو الذي يمارسه أبناء الغرب وبناته كل يوم. فهل سعدوا به حقاً؟ وهل يسعد الإنسان وهو دائماً في مهب الريح، تتقاذفه كل هبة طائرة، أو دفعة هائمة؟ إن الإنسان حين يكشف نفسه لمهاب الفتنة بغير وقاية داخلية أو خارجية، يجد نفسه عرضة للاندفاع مع كل تيار أشد. فهو اليوم هنا، لأنه يرى أمامه إغراء قوياً يجذبه إليه فيحسب فيه إشباعاً لرغباته. ولكنه غداً في مكان آخر، لأنه وجد فتنة أعنف، تبدو لنزوته الطارئة أكثر إغراء وأجدر بإشباع رغائبه. وهكذا هو كل حين في اتجاه جديد. فكيف يستمتع بالاستقرار العاطفي الذي تنشأ معه السعادة؟

أم يقولون إن السعادة هي في هذه اللهفة الدائمة التي لا تكاد تهدأ حتى تثور، والتي تبحث كل يوم عن وجهة جديدة؟ فليسأل كلّ نفسه: كيف يحس من عقابيل كل عاطفة لم تنته إلى الاستقرار المنشود؟ إن كل علاقة نفسية تنفصم هي جرح في القلب تنزف منه الدماء. وقد يجف الدم ويندمل الجرح، ولكنه هيهات أن يزول. ولن يكون قط عالماً بالنفس ذلك الذي يقول: إن علاقة ما يمكن أن تنتهي دون أن تترك وراءها العقابيل في الشعور أو

في اللاشعور، بحيث تظل موجودة أبداً، ولو زالت كل ملابساتها من الوجود. فكيف بالذي يتلقى كل حين طعنة، وتنزف كل حين من قلبه الدماء؟

سيقولون إن هذه أوهام الشرق، الغارق في العاطفة، والذي يصنع الهالات من خياله حول الحقائق الجامدة التي لا تستحق الهالات.

إن الفتى والفتاة يلتقيان في الغرب دون أن يكون في بال أحدهما أنها علاقة دائمة. بل هو لقاء ساعة، يفرغ فيه كل منهما شحنته الدافقة. ثم يفترقان، لا قلوب ولا جراح.

وأنا أعيذ الإنسانية أن تهبط إلى هذا الحد الذي يرتفع عنه بعض الحيوان. ففي الحيوانات ألفة تعقد الروابط بين الأنثى والذكر؛ لا تنشأ من حاجة الجسد، فتلك متاحة على الدوام بين أي أنثى وذكر. ولكنها تنشأ من عوامل أخرى، فطرية حتى في نفوس الحيوان.

أفيحب الغرب المنحل أن يشهد على نفسه أنه هبط حتى عن مستوى الحمام، بل القرود، بل بعض أنواع الثعابين الغائرة في الجحور؟

إنني على سوء ظني بهذا الغرب الهابط المتحلل، لا أستطيع أن أصدق أنه في مجموعه قد هبط إلى هذا الدرك الأسفل من المشاعر. فحوادث الانتحار بين الشباب، والقلق النفسي والعصبي الذي يكابدونه، فيسعى بهم إلى عيادات الأطباء النفسانيين، كلها مظاهر على أن هذا النظام الفاسد المضطرب لا يلائم الفطرة السوية. فإذا اندفعت معه بفعل الإغراء الزائد عن الحد، فإن هذا الاندفاع لا يريحها ولا يسعدها، وإنما تنشأ عنه الاضطرابات العنيفة التي تطلب العلاج.

إن الرجل في حاجة إلى المرأة، والمرأة في حاجة إلى الرجل، لشيء آخر غير ضرورة الجسد ودفعة الغريزة. إن كلاً منهما ليجد عند الآخر وفي رحابه "مشاعر" نفسية: الألفة والحنان، والود، والتعاطف. مشاعر لا يجدها في أي مكان آخر. لا يجدها الرجل —كاملة– عند الرجل، ولا المرأة عند المرأة، إلا في حالات الشذوذ. وهذه المشاعر كلها لا تستقيم مع الطفرات الهائجة والتيارات المتحولة. لأنها بطبيعتها في حاجة إلى الزمن والاستقرار. كيف ينشأ الود بين عابري سبيل قد لا يلتقيان بعد ذلك أبداً؟ وكيف تنشأ الألفة بين شخصين لا يلتقيان إلا كما تلتقي القطر المتقابلة على السكة الحديد، دقائق ثم يمضي كل منهما إلى سبيل؟

كلا! إن هذه المشاعر اللطيفة، النابعة من أعماق النفس، لا تجد منطلقها إلا في جو هادئ مستقر. وتظل –إذا لم تتحقق– تسبب جوعة نفسية دائمة، وحنيناً لاهفاً لا يستقر، ولو وجد الإنسان في كل متعة الجسد، وكل حرية الاقتصاد.

إن كل فرد من أحد الجنسين في حاجة إلى فرد من الجنس الآخر يلقي إليه نفسه كلها، مشاعرها وأفكارها. وينكشف له عن كل أسراره الدفينة. ويتجاوب معه ويتعاطف. ويجد منه حافزاً وعوناً لمواجهة الحياة وتبعاتها المختلفة. وإن الدنيا كلها لتتفتح لقلبين متحابين متآلفين، ولا تتفتح لقلب واحد، محروم من الحب والعطف، مقطوع عن الألفة الندية، ولو كان أكبر قلب لأعظم إنسان. بل هو لن يكون قلباً كبيراً، وهو محروم من هذا الغذاء الروحي الشفيف.

تلك وقائع قد يفتنّ الشعر في تصويرها في عالم المثل والأحلام. ولكنها بغير شعر ولا فن، وقائع "علمية" تشهد بصحتها الحياة كلها منذ فجرها إلى اليوم.

فالاستقرار العاطفي إذن حاجة نفسية للرجل والمرأة، لا يغني عنها كل متعة الجسد وكل حرية الاقتصاد. وهو لا يتحقق في هذا التيار الجارف الذي يسير فيه الغرب المجنون. لأنه لا يتحقق إلا في أسرة وبيت. وهم يقضون حياتهم في الشارع. مشردي النفوس. حائري القلوب. حتى المتزوجون منهم لا يصلون إلى الاستقرار المنشود.

وإن الدعاة المفتونين هنا في الشرق ليفتحون أفواههم كالببغاوات ليصيحوا بنا: انظروا إلى التقدم والرقي. إن الفتى والفتاة هناك يختار كل منهما رفيقه بعد تجربة "كاملة" يعرف فيها عنه كل شيء، حتى أدق الأشياء وأخفاها. حتى خصائص الرغبة الجنسية ومداها. وعند ذلك لا تكون هناك مفاجآت مزعجة. ويستقر المنزل كما ينبغي له أن يستقر.

ولا يملك الإنسان نفسه من السخرية بأولئك الحمقى المفتونين، وهو يرى نسبة الطلاق في أمريكا تزيد عنها في كل بلاد العالم، بما فيها مصر، أمة المتأخرين هواة الزواج والطلاق! فقد وصلت هذه النسبة إلى ٤٠% في بعض الولايات الأمريكية، بينما هي في مصر لم تصل في أشد أوقاتها ارتفاعاً إلى هذه النسبة الفظيعة.

ولكنهم أولى بالسخرية والزراية حين يقولون لك: لا! إن الطلاق في أمريكا دليل تحضر ومدنية. ولكنه في مصر تأخر وهمجية! نعم لأن الطلاق الأمريكي "وارد الخارج" فهو إذن صناعة جيدة متقنة. أما الطلاق المصري فهو صناعة محلية رديئة!! إنه هناك طلاق الشادة، وهو هنا طلاق العبيد!

ثم ينشأ هذا الطلاق المبالغ فيه إلى هذا الحد المجنون؟

ينشأ من تلك الفوضى الجنسية التي لا تعرف الحدود. فالذي تعوّد، والتي تعوّدت، أن يعيشا في الشارع أو المنتدى أو الغابة، لن يجدا للحياة طعماً في جو البيت الهادئ الرتيب، فيكن البيت ذاته هو المفاجأة المزعجة التي تعصف بالهناء المزعوم.

وأبلغ من ذلك في بيان السبب، أن الذي تعود أن يهفو لكل فتنة عابرة، والتي تعودت أن تندفع حيث تقودها عواطفها، بحثاً عن المتعة الخالصة، لن ينعما بالعيش في نظام الوحدانية المستقرة، بل يعاودهما الشوق إلى النزوات المتنقلة والأحضان المتجددة، وتكون الوحدانية ذاتها صدمة عنيفة لم تتهيأ لها نفوسهما من قبل؛ ولن يلبث كل منهما حتى يجد الفتنة التي اختار من أجلها رفيقه قد انطفأت وبردت بحكم الألفة والعادة. ولن يلبث حتى يجد فتنة جديدة قد ظهرت على الأفق في شخص فتاة أخرى أو فتى جديد. وما دام الهدف هو المتعة، فسوف يجد الزوج والزوجة أن مزاجهما لم يعد يتفق، وأن شهيتهما قد اتجهت إلى خارج البيت، فيحدث الطلاق لينطلق كل منهما إلى صيد جديد. وإلا حدثت الخيانة، إذا وقفت الحوائل القانونية دون رغبة الانفصال[1].

وتلك نتيجة طبيعية في حياة كل هدفها المتاع. فلن يوجد شخص واحد يجمع كل الصفات المرغوبة عند رفيقه. ولا بد أن تظهر المصادفة شخصاً آخر، يملك صفة جديدة، أو يبدو أكثر بريقاً لأنه جديد.

والحياة عادة...

فإذا لم يتعود كل شخص من الجنسين أن يكتفي بواحد من الجنس الآخر، يطمئن إليه، ويلقي إليه بكل نفسه ومشاعره وأحاسيسه، كما يلقي إليه بجسده، فلن يجد السعادة في نظام الزواج الذي يفرض هذا التخصيص.

ثم تجارب الماضي ذاتها.. كيف يصدق أحد أنها تنتهي نهاية حاسمة بالزواج؟ إن كل تجربة تترك أثرها العميق –وخاصة في نفس المرأة– مهما نسيت من الظاهر. وهذه الآثار المختفية في اللاشعور توجه حياة الإنسان دون وعي منه، فتؤثر في سعادته ولو خيل إليه أنه يعيش بنفسه كلها في اللحظة الحاضرة. فما قيمة الحياة التي يحياها كل شخص مع شريكه

([1]) كتبت هذا ولم أكن قد اطلعت على كتاب "ول ديورانت" بعنوان "مباهج الفلسفة" فلما قرأته وجدت أنه يقول نفس الكلام عن المجتمع الأمريكي الذي كان يعيش فيه!

بجسده، بينما عواطفه في الخارج تحوّم في الآفاق، بوعي أو بغير وعي، وتنبش في الماضي عن سعادة ضائعة، أو لهفة عارمة أو ذكرى حبيبة؟ وأي سعادة في تلك الحيرة الزائغة والعواطف الموزعة؟

إن الواقع التجريبي، لا الخيال النظري، هو الذي يهدم دعوى الإباحة المطلقة في إسعاد الناس وإراحة الأجسام والقلوب، ويثبت أن تلك الحياة المنطلقة الهائمة التي يحياها الغرب في الشارع، سواء حدث الزواج الرسمي أم لم يحدث، مفسدة للأعصاب مرهقة للنفوس. وقد يحسب بعض "الأذكياء" أن هذا يتنافى مع الواقع المحسوس وهو تقدم هذا الغرب في العلم والاختراع والاقتصاد والسياسة. ولكنا ندلهم من جانب آخر على انتشار الأمراض النفسية والعصبية إلى درجة مخيفة لم تبلغها الإنسانية في كل عهودها، بما في ذلك عهد الكهوف والغابات!

* * *

على أن الأسرة المستقرة ليست حاجة نفسية للرجل والمرأة فحسب، فهي كذلك ضرورة لازمة لإقامة الكيان النفسي للأطفال على أساس قويم.

ونبدأ بتقرير حقيقة نفسية ثابتة وهي أن إنجاب الأطفال شهوة لم ينج منها أحد في القديم أو الحديث. وقد تمر على الشباب الحديث فترة يحسب فيها –بدافع الأنانية وحب الراحة– أنه قد تخلص من شهوة النسل. أو قد تؤثر الأحوال الاقتصادية على هذه الرغبة فتقف في طريقها إلى حد ما. ولكن هذا الشباب تمر عليه فترة أخرى فيحس بالفراغ الهائل في نفسه وحياته كلها، فراغ لا تملؤه إلا صيحة طفل. ويشعر بالندم على ما ضيع من عمره خاوياً من نسل يمد من عمره القصير على ظهر الأرض، ويوهمه بالخلود!

وقد يجد الرجل أحياناً عملاً أو فكرة يغرق فيها نفسه، ليسكت في ضميره هذا الهاتف الملح، والحنين الملهوف. ولكن المرأة.. ما أقصى حياتها وما أشقاها بغير طفل! إن الطفل جزء من المرأة حقاً ومجازاً. جزء من جسدها تحمله وتغذيه من دمائها، ثم من لبنها وهو خلاصة الدماء. وجزء كذلك من كيانها النفسي، بحيث تشعر أنها معطلة أو ناقصة أو عاجزة إذا لم تأت بنسل!

وما دام الإنسان يحب إنجاب الأطفال، فعليه إذن أن يهيئ لهم البيئة الصالحة للتربية والنماء. ولا أقل من ذلك. فالحيوان ذاته لا يترك أطفاله لأنفسهم حتى يطمئن إلى قدرتهم الكاملة على الاستقلال.

وأطفال الإنسان أحوج الأطفال جميعاً إلى الرعاية الدائمة لأمد طويل. فكلما ارتفع الحيوان في سلم الرقي، زادت وظائفه، واتسع مدى الأعمال التي يقوم بها، فكانت أطفاله في حاجة إلى فترة أطول للمرانة على هذه الوظائف والأعمال. حتى نصل إلى الإنسان، أرقى الكائنات (أو على الأقل هذا هو المفروض!) فنجد فترة الطفولة أطول منها لدى الحيوان. وكلما تحضرنا زادت الوظائف الجسدية والنفسية والعقلية، واتسع المجال لعدد لا ينتهي من الأعمال والمشاعر والأفكار، فصارت الأطفال أحوج من ذي قبل إلى زيادة الرعاية والاهتمام.

فنحن إذن كلما تحضرنا زادت حاجتنا إلى الأسرة المستقرة من أجل تنشئة الأطفال، ولم تقل هذه الحاجة كما يزعم المنحلون والمستهترون. فالأسرة هي المجال الطبيعي الوحيد الذي نربي فيه عواطف الطفل —لا جسده فحسب– على أساس إنساني. وهي البيئة الوحيدة التي يمكن أن نزرع فيها عواطف الحب والرحمة والعطف والمودة في نفوس الأطفال، لنتمكن بعد ذلك من إنشاء مجتمع متعاون متعاطف تقوم علاقاته على الحب أكثر مما تقوم على الصراع.

وقد يكون الصراع من ضرورات الحياة. وهو ليس شراً خالصاً في ذاته. فبدونه تترهل النفس وتنحط كما تترهل عضلات الجسد وتسترخي إذا لم تمرن على شيء من الحركات القوية العنيفة. ولكنه يصبح شراً حين يسرف الإنسان فيه، وحين ينسى أنه وسيلة إلى غاية نبيلة، وليس غاية في ذاته. فلا بد إذن من إنبات هذه الغاية في نفس الطفل لتنمو معه في مراحل نموه المختلفة، وليظل على ذكر دائم بأنه يصارع من أجل هدف أسمى، فيمنعه ذلك من أن يعنف في الصراع إلى حد الاعتداء على حقوق الآخرين. وبغير هذه الوسيلة الوحيدة —وهي تربية الطفل في جو من الحب والرعاية الكاملين– لا يتسنى لنا أن نمنع الإسراف في شهوة الصراع، خاصة والحياة تغري به وتدفع إليه.

ويقولون: إن المحاضن قد قضت على هذا الهراء الذي تقوله من أساسه. إذ أمكن تربية الأطفال فيها على أسس علمية صحيحة تزري بكل ما يقدر عليه الأبوان الجاهلان. بل إن الأبوين الجاهلين أحرى أن يفسدا أطفالهما وينشئاهم على أسوأ صورة نفسية وفكرية، وجسدية أيضاً. ولكن المحاضن تتلافى هذا كله، وتنشى للمجتمع أطفالاً أصحاء من كل وجه.

وتلك أسطورة ضخمة، لا يكفي لتثبيتها كل ما تقوله الدعايات المغرية من هنا أو هناك. ففي وسع المحاضن أن تقدم للطفل غذاءه الصحيح، وتعنى به العناية الصحيحة الواجبة، فتزنه كل يوم وتسجل وزنه، وتعطيه حماماً مناسباً، وتختبر ذكاءه، وتمرن مواهبه

العقلية، وتنظر في كل نقص في النمو فتعالجه في اللحظة المناسبة. وبالوسائل العلمية الصحيحة.

كل هذا ممكن. ولكن يبقى شيء أهم من ذلك كله، أو على الأقل يساويه في الأهمية. هو الحاجات النفسية للطفل، التي يستحيل على المحاضن أن يزوده بكفايته منها، ولو رغب في ذلك.. لأنها لا تتيسر إلا في الأسرة بوضعها الصحيح.

والذين يؤمنون، من علماء النفس، بأن النفس كلها تنبع من الجسد. والذين يؤمنون كذلك بأن الظروف المادية وحدها هي التي تنشئ المشاعر، أولئك قد لا تهمهم الحاجات النفسية التي لا تتصل مباشرة بالجسد، أو لا ترتبط بالظروف المادية الخالصة.

ولكنا قد أوضحنا في مبدأ هذا البحث كيف يغفل هؤلاء عن أهم الجوانب البشرية، فتجيء تفسيراتهم قاصرة مضللة.

وقد تحدثت "أنّا فرويد" في كتابها "أطفال بلا أسر" عن الخلل النفسي الذي يلازم تربية الأطفال في الملاجئ والمحاضن، وما ينتج عنه من اضطرابات عاطفية وانحرافات شاذة لا يملك العلم النفساني أن يقوّمها إلا بجهد جهيد. هذا إن استطاع.

إن الطفل يحس في الفترة الأولى من حياته بالحاجة إلى أبوين معاً، يشعر بأنه يملكهما ملكية كاملة لا ينازعه فيها أحد. وحين يجد من يزاحمه في هذه الملكلية، ولو كان أخاه الشقيق، إذا جاء مبكراً عن موعد الفطام الجسدي والنفسي، تنفعل نفسه بانفعالات عنيفة، تصل أحياناً إلى حد المرض العصبي أو النفساني، إذا لم يُتدارك الأمر بطريقة ما.

وفي الأسرة فقط يمكن أن يجد الطفل في الفترة الأولى من حياته أبوين كاملين، يملكهما تمام الملك، ولا يزاحمه فيهما أحد. بينما لا يستطيع المحضن أن يمده إلا بجزء صغير من أم – بحسب عدد الأطفال– قد يكون ربع أو عشر أم، أو جزءاً من عشرين أو ثلاثين. وقلما يمنحه جزءاً مماثلاً من أب.

ولقد يفقد الطفل في حياته العادية أحد أبويه أو كليهما فينشئ ذلك آثاره في نفس الطفل. ولكن هذه ضرورة لا حيلة فيها لأحد ولا يمكن تفاديها. أو قد يجيء طفل جديد – في البيئات المخصبة– قبل موعده المناسب، فيزحم أخاه في الفترة التي لا يقبل فيها المزاحمة. ولكن هذه قلة نادرة لا تؤثر في النسبة العامة، ومن الممكن تفاديها على أي حال.

أما في الحالات الطبيعية وهي الكثرة الغالبة، فإنا نجد نظام الأسرة يرتب الأوضاع بالنسبة للأطفال ترتيباً محكماً يدعو إلى العجب والدهشة، فإن الطفل ليولد فيتلقاه ثدي الأم منذ اللحظة الأولى باللبن، وهو الغذاء الطبيعية الأكمل، الذي لا يغني عنه شيء سواه. ولم يكن هذا اللبن هناك منذ هنيهة حيث لا حاجة له، ولا يتأخر –في الحالة السوية– هنيهة لأن ذلك يؤذي الوليد! ويتلقاه كذلك في نفس الأم شعور لا تقل حاجته إليه عن حاجة اللبن والغذاء، ذلك هو شعور العطف والحب والمودة.

ويجيء دور الأب متأخراً بعض الشيء. ولكنه يجيء في موعده المطلوب بالنسبة للطفل. فهو في حاجة إلى أمه أولاً، ولفترة طويلة بعض الشيء. فإذا بدأ عالمه يكبر عن ثدي أمه، وملامح وجهها، والتصاقه بجسمها صاحياً ونائماً، بدأ يتطلع إلى وجه جديد. ويكون دور الأب هو اجتذابه للعالم الخارجي، وتوسيع أفقه، وتنمية جوانب القوة والمقدرة في جسمه ونفسه على السواء.

ويظل الطفل مدى العامين الأولين تقريباً ملتصقاُ بأبويه، شاعراً بلذته العظمى في امتلاكه لهما، بحيث "يُشغلهما" في إجابة مطالبه، سواء كانت غذاء أو مناغاة أو تدريباً على المشي أو الكلام. وهو على العموم لا يشعر بالأمن النفسي والعاطفي إلا أن يكون على مقربة منهما، مطمئناً إلى استجابتهما الدائمة لكل ما يحتاج إليه. ولكنه في أثناء هذين العامين يتعود بالتدريج على التحرر من الالتصاق الكامل بأبويه. فمن الناحية الغذائية يتطلب جسمه ألواناً أخرى بالإضافة إلى اللبن، ويحتملها جهازه الهضمي كذلك. ومن الناحية النفسية يتسع عالمه عن محيط الأبوين، فيأنس إلى أشخاص آخرين، صغار وكبار، يغذي فيهم نزعته الاجتماعية، وإن كانوا لا يغنونه الغناء الكامل عن أبويه.

ثم يجيء دور الفطام من الثدي. وهي عملية شاقة جداً على نفس الطفل، ولكنها كذلك ضرورية، لأن اللين لا يعود صالحاً لغذائه ونموه. ولأن جهازه الهضمي لا بد أن يمرن لاستقبال الأطوار القادمة من الحياة. والفطام النفسي كذلك ضرورة ولو أدى إلى بعض الانفعالات العنيفة. وليس معناه إقصاء الطفل عن حب أبويه أو إهماله كأنه غير موجود. فليس شيء أضر على كيانه من مثل هذا الإجراء. ولكن معناه تعويد الطفل رويداً رويداً أن يعتمد على نفسه وعلى العالم الخارجي، مع استمراره في تلقي العون والعطف من الأبوين. وبغير هذا لا تنضج نفسه، ولا تصلح عواطفه لاستقبال الأطوار القادمة من الحياة. ويظل طوال عمره طفلاً في مشاعره وأفكاره لا يصلح لموجهة الحياة. وذلك شأن الأطفال المدللين الذين لم تفطم نفوسهم في الموعد المناسب.

فإذا تم الفطام الجسمي والنفسي، وصار الطفل قادراً على الاستغناء عن أبويه إلى حد ما، فعند ذلك فقط تتهيأ الأم في الحالات الطبيعية لمولود جديد. فيأتي في موعده المناسب، دون أن يزحم سابقه، إلا في الحالات النادرة التي لا تحسب في القياس. يأتي فيجد أبوين، أو أماً على الأقل في مبدأ الأمر، مستعدة لاستقبال ومنحه ملكية كاملة، هي الشيء الذي يريده ولا يغنيه شيء آخر سواه.

أما الطفل الأول فلا شك ستنشأ في نفسه الغيرة من الوافد الجديد، الذي استولى على مملكته السابقة. ولكن هذا شعور يمكن التغلب عليه أو تلطيفه إلى أبعد مدى، أولاً بإشعاره أنه ما زال موضع الرعاية رغم الحادث الجديد، وثانياً بإيهامه أنه أكبر من هذا الجديد، فهو بذلك أهم منه شأناً! وثالثاً بتعويده على التوجه بالرعاية إلى أخيه الأصغر بموجب أنه هو أكبر وأقدر! وذلك ريثما تعمل الألفة عملها بين الصغيرين، وتحل فرحة التعاون والتعاطف محل الغيرة والشقاق.

هذا كله يحدث بطريقة محكمة متقنة في جو الأسرة الطبيعي. ولكن أنى له أن يحدث في المحاضن، حيث يشترك عدد من الأطفال ذوي عمر واحد وحاجات متوازية، في أم واحدة، طول الوقت الذي يقضيه الأبوان الحقيقيان في العمل في المصانع، أو الاستمتاع باللذة المحرمة أو غير المحمة في النادي أو الطريق؟

وإن روسيا الشيوعية لهي أشد الأمم محاربة للأسرة ودعاية للمحاضن. ووراء هذه الحرب تكمن شهوة ملحة في مقاومة الفطرة الطبيعية في مسألة الملكية الفردية. فهم يقولون إن نظام الأسرة هو الذي يربي مشاعر الأثرة وحب الملكية لتوريث الأولاد. والنظام الشيوعي يقوم على إلغاء الملكية الفردية. فلا بد –لمقاومة هذه المشاعر ونزع الميل إلى التملك من وجدانات البشر– من محاربة عواطف الأسرة، وجعل الأولاد ملكاً للدولة لا لآبائهم الحقيقيين. يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال ضمان إشراف الدولة على الأولاد ليخرجوا شيوعيين مضمونين!

ولكن هذا يؤدي إلى ضررين محققين: أولهما عجز المحاضن عن إمداد الأطفال بحاجتهم النفسية، مما يؤدي إلى تنشئتهم على الصراع المطلق، لا على الحب والتعاطف. أو تنشئتهم كالآلات لا قلب لهم ولا شعور. والثاني أن علاقة الرجل والمرأة، حين تنتزع منها عواطف الأسرة والأطفال، تهبط إلى أن تكون علاقة جسد وشهوة وغريزة، مما يؤدي حتماً إلى النظر إلى الزواج على أنه قصاصة ورق. فما دامت الدولة تستولي على الأطفال من أي طريق، وما دام الزواج مجرد علاقة جنسية، فما الفارق بين علاقة وعلاقة؟ وما الذي يلزم الزوج والزوجة بالإخلاص، أو الوفاء، الذي يحد من المتعة البهيمية الخالصة؟

ولكن بعض عقلائهم ينفون هذا كله، ويقولون: إن التربية في المحاضن ضرورة لجأت إليها روسيا لتمنع الآباء الجهلاء من إفساد الأطفال بجهالتهم! فعلى هذا الأساس قد نسلم لهم! على أنها ضرورة لجأ إليها جيل، لا على أنها النظام الصالح الأصيل[1].

* * *

ثم نرتقي إلى أفق آخر، ومازلنا بعد لا نمس حديث الأخلاق!

فمن قال: إن الإحساس الجنسي ذاته –بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى كلها– لون واحد ودرجة واحدة؟

هناك الشهوة العارمة التي تتمثل في الجسد الهائج والجوارح الظامئة، والعيون التي تطل منها الرغبة الهائجة المجنونة.

وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة، التي تعد العدة في ترتيب وأناة، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال.

وهناك الأشواق الحارة الملتهبة التي تنبع من الجسد، ولكنها تمر في طريقها على القلب، فيصفيها من بعض ما بها من "العكار" ويعطيها قسطاً من "العاطفة" تمتزج بصيحة الجسد الملهوف.

وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التي تنبع من القلب، ولكنها قد تمر في طريقها على الجسد، فيمنحها بعض لهيبه المحرق، وقد يخلط بها بعض العكار، ولكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء.

وهاك إشراقة الروح الحالمة، قد صفيت من العكار كله، وصارت صفاء مطلقاً لا يعرف الجسد، وإشعاعة لا تعرف القيود. تعشق الجمال خالصاً حتى من الإطار الذي يُصبّ فيه!

وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألفاظ، ولا يقدر عليها التعبير!

([1]) يقول دعاة الشيوعية: إن روسيا قد ارتدت إلى احترام الأسرة وتقوية روابطها. وسواء كان هذا حقاً أو كان دعاية للترغيب، فهو –كما قلت في هامشة سابقة– اعتراف صريح بمطالب الفطرة الأصيلة.

وبين هذه الألوان المختلفة مئات من الأحاسيس، تشترك في الأصل، ولكنها تختلف فيما بينها أشد اختلاف.

فأي كسب للإنسانية في أن تقول مع القائلين: "كله في النهاية جنس"!؟

كله جنس. هذا صحيح. ولكن نظرة كهذه كفيلة بأن تفسد كل شيء وكل علم على ظهر الأرض! فالأحياء مثلاً كلها أحياء! ذلك صحيح في ظاهر الأمر. ولكن فيم إذن يعنّي نفسه علم الحياة في المقارنة بين الأحياء، وتسجيل خصائص كل نوع منها وكل جنس؟ إنه يصنع ذلك، ويبذل فيه جهوداً هائلة، لأن هذه الاختلافات هي التي تميز بين الأحياء فتجعل بعضها أرقى من بعض. ولن يكون علم الأحياء علماً، إذا أغفل هذه الفوارق، أو جعل الأحياء كلها في مرتبة واحدة، لمجرد اشتراكها في أساس واحد هو الحياة.

وعلم النفس كذلك لن يكون علماً حقاً إذا هو أغفل الفوارق بين شعور وشعور في المسألة الجنسية، بحجة أنها تنبع كلها من أصل واحد هو الطاقة الجنسية. فإن هذه الفوارق ذات دلالة عظيمة، وهي التي تفرق بين إنسان وإنسان في سلم الرقي.

* * *

ومن قال كذلك إن كل هم الحياة هو أداء وظائفها البيولوجية، كيما يزعم أناس في الغرب الهابط والشرق المتحلل، أن المسألة الجنسية مسألة بيولوجية خالصة؟

وفيم إذن كان الجمال؟ إن الجمال صفة زائدة عن ضرورات الحياة البيولوجية، لا تستلزمها هذه الضرورات. فأي شق يمكن أن يؤدي وظيفة الفم، وكل فتحة يمكن أن يتكون منها أنف يُدخل الهواء. وكل شقين يمكن أن يكونا عينين تبصران. وإن هذه الوظائف جميعاً لتتم في أقبح وجه وفي أجمل وجه بصورة واحدة من الوجهة البيولوجية.

ففيم كان الجمال، وليست له ضرورة بيولوجية؟ إنه ولا شك إشارة إلى هدف آخر مذخور في فطرة الحياة، هدف يرتفع عن الضرورة، وينطلق إلى ما فوقها من آفاق. هو هدف التسامي والارتفاع.

فإذا كان هذا –بصورة قاطعة لا تحتمل الجدل– من أهداف الخلق في عالم الأجسام، فهو كذلك من أهداف الخلق في عالم النفوس. فالجمال الجسمي، الذي يؤدي الوظائف كلها ويضيف إليها عنصراً زائداً عن الضرورة، لا بد أن يقابله جمال نفسي، يؤدي المشاعر

البيولوجية كلها، ويضيف إليها عناصر أخرى، لا تستوجبها الضرورة البيولوجية، ولكن يستوجبها الارتفاع بالنفس عن مستوى الضرورات.

وتلك فطرة الحياة، لم يخلقها الإنسان لنفسه، وما خلقها الحالمون من أهل الشرق، المتأخرون الذين لم يؤمنوا بالعلم! ولكنها خلقة الله الذي فطر كل شيء، ووجّهه إلى الصعود الدائم والتطور المستمر "إن الله جميل يحب الجمال".

* * *

والآن نترك ما ينحدر إليه الغرب المجنون من مستويات هابطة، بعد اطمئناننا الكامل إلى أن مصلحة الفرد ذاته لا تتحقق بالإباحية المطلقة، والبهيمية الهائجة. وبعد أن تأكدنا أن الحياة لا تهدف إلى مجرد قضاء الوظائف البيولوجية، ولكنها تهدف إلى الارتفاع بها، لكي تؤدّى على نسق جميل يتسامى عن قيود الضروة.

نترك تلك المستويات الهابطة، لندخل إلى رحاب الإسلام، حيث تهدأ الأعصاب من هياجها الثائر، وتطمئن القلوب من القلق الحائر والتطلع الملهوف.

* * *

يعترف الإسلام بالطاقة الجنسية من حيث المبدأ، أصرح اعتراف يمكن أن تصبو إليه الإنسانية! ولكنه لا يعترف بها ضرورة هابطة، ولا خلسة تختلس في الظلام. بل على العكس من ذلك يرفعها ويطهرها، ويسلط عليها النور!

فهو لا يكتفي بذكر الأمر الواقع في مسألة الجنس، حيث يقول القرآن "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ". بل يعتبرها جزءاً من العبادة يستحث النبي صلى الله عليه وسلم على أدائها إذ يقول: "أكملوا نصف دينكم بالزواج". فإذا قيل إنه يقصد بذلك الزواج ذاته لما فيه من إحصان للفرد، أي أنه ينظر إلى الناحية الأخلاقية لا الجنسية، فقد جمع بينهما حيث قال: ".. وفي بضع أحدكم أجر" أي أن الرجل يثاب على العمل الجنسي يأتيه مع زوجته. فلما سأله المسلمون متعجبين: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"! ثم هو الذي يقول: "حُبِّبَ إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة" فيرفع الجنس –من حيث هو جنس– إلى مستوى الصلاة، أطهر ما يتطهر له المؤمن، ومستوى الطيب، أزكى رائحة تنتعش لها الروح!

بل إن ما كان يصنعه المسلمون إلى عهد قريب، ولعل أتقياءهم ما زالوا حريصين عليه، من قراءة اسم الله قبل البدء في اللقاء الجنسي ليدل دلالة قاطعة على مدى نظافة الجنس في حس المسلم. صحيح أنهم كانوا يصنعون ذلك من أجل أن يبارك الله النسل المنتظر. ولكن اسم الله هو أطهر اسم يرد على خاطر المسلم المؤمن، فإذا ذكره في هذا المجال، فهو على اطمئنان من أنه مقدم على عمل نظيف يستأهل هذا الاسم الكريم.

والطاقة الجنسية من حيث المبدأ مسألة بيولوجية، وبدونها لا يمكن استمرار الحياة على وجه الأرض. والإسلام حريص على تحقيق أهداف الحياة العليا، فهو لذلك يحترم كل ما يؤدي إلى تحقيق هذه الأغراض.

ولكن الذي يضع له الإسلام الضوابط والقيود، هو طريقة التنفيذ العملي لتلك الأهداف، بعد الاعتراف بها من حيث أحقيتها بالوجود، والاعتراف للناس بحق الإحساس بها في الشعور.

أي أنه كما بينا في فصل "نظرة الإسلام" لا يكبت النوازع الفطرية التي تؤدي غاية حيوية.. ولكنه يضبط انطلاقها بما تتحقق به مصلحة الفرد الواحد، وبقية الأفراد. وهو في هذا يستجيب للفطرة السوية لا يفرض شيئاً يخالف طبيعتها، ولا يحمل الناس على شيء ليس في وسعهم قضاؤه.

إنه يبيح للناس أن يطاوعوا داعي الجنس ولا يكبتوه في مشاعرهم. بل يأمرهم أمراً بالاستجابة إليه، ويحبب إليهم ذلك ويغريهم به. ولكنه لا يتركهم ينزو بعضهم على بعض كما يفعل الحيوان، لأنه يؤمن إيماناً راسخاً بأن الإنسان أرفع من الحيوان. وتلك حقيقة علمية، قررها العلم بصرف النظر عن الأديان. وهو كذلك ينظر من الأفق الأعلى، فيرى الحاضر، ويرى معه الماضي والمستقبل: حلقة واحدة لا تنفصم أجزاؤها ولا تتفكك. ولذلك لا يجاري الفرد في نزوة من نزواته، وهو يراه رأي اليقين يتردى بهذه النزوة بعد حين. ولا يطيع فرداً بذاته وهو يرى من أفقه المرتفع أفراداً آخرين يقع عليهم الضرر من فعلته، وهم ذوو حق مقدس في أن يأمنوا الضرر ويستمتعوا بطمأنينة الحياة. ولا يستجيب لاندفاع جيل، وهو يرى ببصيرته النافذة كيف يؤذي هذا الجيل باندفاعه بقية الأجيال...

وهو كذلك لا يملي للإنسانية في الهبوط، وهو يعلم أنها تهدف إلى الارتفاع. وتلك حقيقة أخرى أثبتها العلم، منقطعاً عن الإيمان بعقيدة. ولا يكتفي بمجرد أداء الوظيفة البيولوجية وهو يعلم أن الحياة لا تكتفي بها، وإنما في فطرتها أن تصل إلى مستوى الجمال، وهو زائد عن ضرورة الحياة، وهو في الوقت ذاته موضع الإعجاب الشديد وموضع التقدير.

وهو لا يقبل كذلك أن تنحدر الإنسانية إلى الدرك الذي تتشابه فيه أعمال الناس – لأنها أعمال غريزية خالصة– وهو يعرف أن الناس تتفاضل بالمشاعر، كما تتفاضل بالقوة والمقدرة والذكاء والأموال... وأن تعدد النماذج واختلاف الدرجات سنة من سنن الحياة وهدف من أهدافها الأصيلة، لا يتحقق إذا هبط الناس كلهم إلى الحضيض.

وهكذا يستجيب الإسلام لأهداف الحياة كلها في وقت واحد، لا يغفل منها شيئاً، ولا يقحمه إقحاماً على النفوس. فهو إذ يطيع دافع الجنس يعرف حق الحياة في استمرار النسل، وحق الناس في إجابة الشهوة الشاغطة. وإذ ينظف وسائل التنفيذ يعرف استهداف الحياة للارتفاع، وقدرة الناس عليه. ولا يكلفهم مع ذلك شططاً، فلا يدعوهم للرهبانية، ولا يقبلها منهم إذا أتوا بها، بل يعتبرها نكولاً عن واجبات الدين.

* * *

يتصور الإسلام وجود علاقة بين الرجل والمرأة على أنه الشيء الطبيعي الذي ينبغي أن يكون. فهو يقرر أن الله جعل في قلب كل منهما هوى للآخر وميلاً إليه؛ يقول القرآن: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً". ولكنه يذكّرهما بأنهما يلتقيان لهدف هو حفظ النوع. وتلك حقيقة لا أحسبها موضع جدال. فمن المسلم به لدى "العلم" أن للوظيفة الجنسية هدفاً معلوماً. وليس هي هدفاً في ذاتها. فيقول القرآن: " نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ". فيحدد بذلك هدف العلاقة بين الجنسين، بتلك الصورة الموحية: صورة الأرض التي تحرث، لوضع البذرة، وتعهدها حتى تنبت، وتأتي بثمرة جديدة من نفس النوع.

وبهذه الصورة الموحية يتبين رأي الإسلام منذ البدء. فهو يرى أن للشهوة هدفاً محدداً، ولا يوافق على أن إرضاء الشهوة هو في ذاته الهدف الأول والأخير.

وربما خطر في فكر سائل أن يقول: إن هدف الحياة من هذه الشهوة يتحقق، سواء تيقظ إليه الفرد أو كان غارقاً في الشهوة العمياء؛ فما الفرق إذن بين هذا وذاك؟

ولكن الحقيقة أن هناك فارقاً هائلاً بين النظرتين في واقع الشعور. فحين يؤمن الإنسان بأن للعمل الغريزي هدفاً أسمى منه، وليس هو هدفاً في ذاته، يخف سلطان الشهوة الطاغية في شعوره، فلا يتخذ تلك الصورة الجامحة التي تعذب الحس أكثر مما تتيح له المتعة والارتياح؛ وليس معنى ذلك أنه يقلل من لذتها الجسدية، ولكنه على التحقيق يمنع الإسراف الذي لا يقف عند الحد المأمون.

وقد يكون مثال الطعام أقرب إلى الإدراك. فالذي يحسب أن الأكل غاية في ذاته، فيعيش ليأكل، يجعل همه الطعام ويسرف فيه إلى درجة قد تؤدي إلى التخمة، وفقدان المتعة بالغذاء في النهاية. أما الذي يأكل ليعيش، فلن يفقد لذة الاستمتاع بالطعام الشهي، ولكنه سيحد من شهوته إليه، فلا يسعى إليه سعياً يذل كرامته وينقص من إنسانيته، وسيقف كذلك عند الكمية التي لا تؤذي الهضم، ولا تضر في نهاية الشوط.

والشأن في المسألة الجنسية كذلك. فالذي يرى أن إرضاء الشهوة هو كل الغاية، يسرف في طاقة جسده المحدودة، وفي ماله وأفكاره ومشاعره، حتى يصل إلى درجة الضعف الجسمي والانحلال النفسي. أما الذي يستحضر في فؤاده غاية الجنس، وهي النسل، فلن يسرف —لا لأنه سيمنع نفسه عن قصد وإرادة– ولكن لأن نفسه بطريقة آلية ستمتنع عن الإسراف، لانشغالها في أهداف أعلى. وهو في الوقت ذاته لن يفقد اللذة الجسدية حين يتجه إليها بنفسه ومشاعره، كلما فرغ إليها من شغل، أو أحس بدافع الجسد يدعوه.

والفارق الاجتماعي والإنساني، الذي ينشأ من هذا الشعور، هائل كذلك. فحين يكون الجنس غاية في ذاته، لا يحس الفرد بأي احترام لتنظيمات المجتمع التي تضع القيود على التنفيذ، لأن هذه التنظيمات قائمة على الأساس الآخر، وهو وجود هدف وراء الغريزة أسمى منها وأجدر بالاعتبار. ولن يجد كذلك طعماً للمشاعر الإنسانية الرفيعة، لأن هذه تفترض منذ البدء أن النزعات الفطرية كلها —والجنسية من بينها– ذا درجات متفاوتة بين الهبوط والصعود، أعلاها هو أبعدها عن منبع الغريزة، وأدناها هو أقربها إليه.

ومن هنا يهبط الناس في الناحية الاجتماعية والإنسانية هبوطاً شائناً حين يؤمنون بأن الجنس غاية في ذاته، ويرتفعون، كل بقدر ما أوتي من عظمة ومقدرة، حين يؤمنون بوجود هدف آخر (بل عدة أهداف كما سيجيء) وراء اللذة البهيمية الخالصة.

وهذا الهبوط والارتفاع يصدقان على كل النوازع الفطرية، ولكنهما أشد بروزاً في المسألة الجنسية وأعمق أثراً، لما سبق أن بيناه في مبدأ هذا الفصل من عنف الطاقة الجنسية وتعمقها في مسارب النفس، وسيطرتها على عدد هائل من المشاعر والأعمال. ولذلك كانت الأخلاق، وهي مسألة شاملة لكل تصرفات الإنسان، أشد اتصالاً بالمسألة الجنسية منها بأي أمر آخر. حتى صار أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع كلمة الأخلاق هو طريقة الشعور بالدافع الجنسي، وطريقة الاستجابة إليه.

* * *

الهدف الأول القريب هو النسل. وهو الذي بينته الآية التي تقول: "نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ".

ولكن الإسلام لا يأخذ الحياة تفاريق. إنه ينظر إليها ككل أكبر، ثم يوفق بين الجزئيات في تناسق عجيب، بحيث يتألف منها في النهاية هذا الكل المتناسق المتآلف، في ذات الوقت الذي تؤدي فيه كل جزئية عملها الخاص على أوفق وضع وأجدره بإنتاج النتيجة الصحيحة. ومن ثم كانت كل جزئية تؤدي –على الأقل– وظيفتين في وقت واحد: وظيفتها الخاصة القريبة، ثم نصيبها من التناسق الأعظم في الكل الكبير.

رأينا ذلك من قبل في نظرة الإسلام للفرد والمجتمع، وتنسيقه كل شرائعه وتوجيهاته على أساسها، إذ اعتبر للفرد صفتين في آن واحد: صفته كفرد مستقل، وصفته كعضو في الجماعة، ثم وافق بين مطالبه الفردية والاجتماعية بتشريع واحد ذي شعبتين، يتحقق به في ذات الوقت صالح الفرد وصالح المجموع.

ونراه الآن في المسألة الجنسية. فإذا ألقى الله في قلب كل جنس ميلاً للجنس الآخر، فالإسلام يهدف من وراء ذلك أولاً إلى إنتاج النسل. وهو الوظيفة القريبة المباشرة. ولكن هذا جزء من تناسق أكبر. فهناك الأسرة، التي تستجيب لمشاعر الألفة في نفس الرجل والمرأة استجابة كاملة، لا تتيسر بنوعها ومداها ودوامها في أية علاقة أخرى يمكن أن تقوم بين فردين. وتستجيب في ذات الوقت لمطالب الأطفال، الذين أنجبتهم في المرحلة السابقة – أو في الجزئية التي سبقت هذه في الترتيب. وفي الأسرة تتربى الطفولة على مشاعر الحب، التي تخفف من شهوة الصراع الذي تدفع إليه طبيعة الحياة "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ". فيتحقق بذلك أكبر قسط من السعادة لهؤلاء الأطفال أنفسهم، ولآبائهم من قبل، وهم في الوقت ذاته نواة المجتمع المستقبلة، منهم يتكون الجيل الجديد الذي يحكم المجتمع عما قليل. وهكذا تكون الأسرة التي شملت جزئيات أصغر منها، في تناسق وتوافق كاملين، جزئية في نظام أكبر منها، تؤدي وظيفتها الخاصة القريبة، ووظيفتها الأخرى في التناسق الاجتماعي وهو أوسع مدى وأشمل.

وهكذا نتدرج من المجتمع الواحد إلى المجتمعات الأخرى، إلى الإنسانية الشاملة في النهاية، على هذا النسق المتوافق الذي يجعل كل جزئية وسيلة لغاية أكبر، حتى تتحقق غايات الحياة العليا، بالجملة والتفصيل في لحظة واحدة، وبنظام واحد دقيق!

* * *

يصف القرآن العلاقة بين الرجل والمرأة في تعبير دقيق جميل حيث يقول: "هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ". ففي هذه الكلمات القليلة تصوير رائع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح في آن. فاللباس ألصق شيء ببدن الإنسان، وهو الستر الذي يستتر به، وهو في الوقت ذاته مفصل على قده لا ينقص ولا يزيد. والرجل والمرأة ألصق شيء بعضهما ببعض: يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة. وفي لحظة يذوب كل منهما في الآخر فلا تُعرف لهما حدود. وهما أبداً يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذي يشبه اتحاد اللباس بلابسه.

ثم هما ستر، كل واحد للآخر. فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة. وهما على الدوام ستر روحي ونفسي. فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شيء فتنهبه الأفواه والعيون. وهما كذلك وقاية تغني كلاً منهما عن الفاحشة وأعمال السوء، كما يقي الثوب لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير.

وهما بعد ذلك كاللباس في تفصيله مضبوطاً على القد. يلبسه صاحبه فيستريح إليه، ويتحرك نشيطاً في محيطه، ويكتسب به زينة وجمالاً تعجب صاحبها وتعجب الناظرين. فليس أبدع من تصوير هذه المعاني كلها في تشبيه واحد شامل عميق.

وإذ كانت العلاقة بين الرجل والمرأة وثيقة إلى هذا الحد، فقد وجب أن يلتقيا ليكون كل منها لباساً لصاحبه، يزينه ويكمله، ويلتصق به للوقاية والستر.

وقد ذكرنا من قبل أنه لا مناص —حين يلتقي الجنسان– من أن تختار البشرية بين أحد وضعين: أن تكون جميع الإناث لجميع الذكور على الطريقة الغالبة بين الحيوان[١]، أو تكون امرأة واحدة لكل رجل، ورجل واحد لكل امرأة. وكان الأمر الطبيعي أن يختار الدين الوضع الآخر، وهو يحرص على الارتفاع بالإنسانية إلى مكانها الحق الذي اختاره لها الله.

على أننا رأينا من مساوئ الفوضى الجنسية، بالنسبة لاستمتاع الفرد وراحته، ما يجعل المصلحة الفردية ذاتها تهدف إلى النظام الآخر، فتحقق في نهاية الشوط من المتاع والطمأنينة أكثر مما تحقق النشوة المسعورة التي تخلف القلق العصبي والاضطراب النفسي.

---

(١) بعض الحيوانات العليا تنشى نظاماً قريباً من نظام الأسرة، فلا تعترف بالفوضى الجنسية من جانب الأنثى، فإذا اشتهى هذه الفوضى أحد الذكور قامت المعارك التي تنتهي بانتصار الأقوى وإذعان الضعيف.

لذلك يحرص الإسلام (والأديان السماوية كلها) على أن يكون الزواج هو الطريقة التي يلتقي بها الرجل والمرأة، ويزيد على بقية الأديان أن يدعو إليه دعوة حارة، فيجعله النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة نصف الدين، لأنه إذ يقي من الشهوة العارمة، ويخلص النفس من سطوتها ومشغلتها، يهيئ المشاعر والأفكار لاستقبال الأهداف العليا، والعمل في سبيلها. وذلك هو الدين.

والغرب المنحل يزعم مثل هذه الدعوى حين يقول: إننا نتيح لفتياننا وفتياتنا أن يفرغوا شحنة الغريزة بأيسر سبيل، ليتخلصوا من حملها على الأعصاب، وينطلقوا للعمل المثمر المفيد.

وهي دعوى براقة، لولا أنها تخالف الواقع. فالشباب ينطلق للعمل حقاً بعد إفراغ هذه الشحنة. ولكنه العمل الآلي البحت الذي لا يرتفع عن الضرورة، ولا يستوحي أي هدف أعلى من وقائع المادة وحقائق الأرض القريبة. ومن ذلك تنشأ الحضارة الغربية المادية. حضارة الإنتاج العظيم في عالم المادة، مع الضآلة المخزية في عالم النفس والروح والضمير. ولا أقصد الضمير النفعي، الذي ينظم المعاملات الفردية بين التاجر والمستهلك، أو بين الرئيس والمرءوس في العمل.. وإنما أقصد الضمير الإنساني الذي يشعر بالأخوة الإنسانية بين أفراد البشر، ويعمل بوحي هذا الشعور.

فإذا هز قوم أكتافهم، أو أشاحوا بوجوههم، وقالوا ما قيمة هذه الأوهام التي تتحدث عنها؟ إنما النجاح نجاح المادة والعلم والإنتاج الأرضي... فلينظروا إلى العالم بعد أن سيطرت على مشاعره هذه المبادئ الهابطة، وحين غلبت عليه أوربا التي تعتنق هذه الفلسفة الحيوانية.. كيف صار؟ هاتان هما حربان عالميتان في ربع قرن، والثالثة على الأبواب. ألا فليهنأ المفتونون ببريق الغرب الخاطف، بالنعيم النفسي والفكري، في ظل القنابل المدمرة والغارات المميتة!

وإنما ينصرف الناس إلى الغايات العليا ويستشعرون في ضمائرهم الأفق الأعلى، حين يفرغون شحنة الجنس على أساس نظيف، يستهدف وراءه غاية، ولا يجعل الإشباع الجنسي وحده هو الغاية.

ولست أزعم أن مجرد هذا يؤدي إلى ذاك. ولكني أقول إن استشعار الهدف الأسمى من كل نزعة فطرية، يوجد التربة الصالحة، التي يمكن أن تبذر فيها المثل العليا فتنمو وتثمر. وبدون ذلك لا يمكن لأي مثل أن يقوم، مهما تحدثت الدعاية عن "الإنسانية" الرفيعة التي تؤرق ضمير انجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا، وتستحثها على رفع مستوى الحياة للشعوب،

بالاحتلال العسكري حيناً، والإذلال الاقتصادي حيناً آخر، وبالمساهمة حيناً ثالثاً في خلق دولة كإسرائيل، تمتص دماء العرب وترفع مستوى الشيوعية بين اللاجئين!!

وحين كان المسلمون يحافظون على إسلامهم –بمعناه الحق– في صدر الإسلام، ثم في فترات متفرقة بعد ذلك، كانت في نفوسهم تلك المثل العليا التي ساعدت على نشر الإسلام بسرعة مثالية في التاريخ كله، وآخت بين المسلمين كلهم من الهند إلى الأندلس، ومدت مشاعر الإنسانية إلى غير المسلمين من النصارى واليهود، طالما كانوا لا يحاربون الدعوة المنطلقة إلى الخير. وكانت للمسلمين في الوقت ذاته للغلبة العسكرية والاقتصادية والعلمية، لأن الإسلام لا يعيش طائراً في السماء يحلق في الخيال، وإنما يعيش على الأرض يعمل ويكسب، وهو متوجه في نفس الوقت بمشاعره وروحه إلى السماء يستلهمها النور.

* * *

ويقيم الإسلام روابط الأسرة على أساس المساواة الإنسانية بين الجنسين. فكل بشر ذكراً كان أو أنثى هو في نظر الإسلام مخلوق إنساني، له حقوقه البشرية كغيره من المخلوقات. حياته مصونة ودمه وعرضه وماله حرام على الآخرين. وكرامته الإنسانية محفوظة لا يلمز ولا ينبز بالألقاب ولا يغتابه أحد ولا يتجسس عليه ولا يدخل عليه داره بغير إذن.

تلك حقوق يستوي فيها البشر جميعاً لا فرق بين ذكر وأنثى، لأنها تتصل بالقسط المشترك من الحياة الإنسانية.

وكذلك تكون المساواة في الأجر على الأعمال في الحياة الآخرة: "مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ".

ولكن الإسلام الذي يعرف حقيقة الفطرة الإنسانية السوية ويتمشى معها، يعترف بتكافؤ الجنسين لا بتماثلهما، لأن التماثل ليس حقيقة. وهو لذلك يفرق بينهما في بعض الحقوق والواجبات التي تنشأ من اختلاف طبائعهما، واختلاف وظائفهما، بعد أن سوّى بينهما في الأمور الأخرى التي تتصل بالإنسان من حيث هو إنسان.

وهنا موضع الضجة الزائفة التي يقوم بها النساء في مؤتمراتهن، ويؤجرن بعض الكتاب، بما لا أدري أو بما لا أحب أن أسميه من أنواع الإيجار، ليكتبوا لهن عن المساواة المطلقة بين الجنسين في الحقوق والواجبات، وربما طلبوا أو طلبن اختراع أجهزة جديدة تغير بناء الأجسام

وطبائع النفوس، ليتم التماثل المنشود، ويصير كل جنس رجلاً وامرأة في آن، ويستغني كل إنسان عن كل إنسان.

يفرق الإسلام بين الجنسين في موضعين أساسيين: القوامة وتوزيع الميراث.

ونبدأ بالمسألة الاقتصادية لأن دعاة الاقتصاد في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إلى الإسلام في هذه المسألة على أنه نظام "تأخري!" غارق في ظلام الجهالة والاستبداد. وذلك على الرغم من أنه يمنح المرأة من الحقوق الإنسانية ما لا تزال النساء تتظاهر من أجله في كثير من بقاع الأرض فلا يستمع لصراخهن أحد!

يقول الإسلام في الإرث: "لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ". ذلك حق. ولكنه يجعل الرجل هو المكلف بالإنفاق، ولا يتطلب من المرأة أن تنفق شيئاً من مالها على غير نفسها وزينتها. فأين الظلم والاستبداد؟ إن المسألة مسألة حساب، لا عواطف ولا ادعاء.

تأخذ المرأة –كمجموعة– ثلث الثروة الموروثة لتنفقها على نفسها. ويأخذ الرجل ثلثي الثروة لينفقها أولاً على زوجة، أي على امرأة، وثانياً على أسرة وأولاد. فأيهما يصيب لنفسه أكثر من الآخر بمنطق الحساب والأرقام؟ وإذا كانت هناك حالات شاذة لرجال ينفقون كل ثرواتهم على أنفسهم، ولا يتزوجون ولا يبنون أسرة، فتلك أمثلة نادرة، وهي على أي حال مخالفة لتعليمات الإسلام وأوامره، فلا تدخل في اعتبار الإسلام. وإنما الأمر الطبيعي أن ينفق الرجل ثروته على بناء أسرة فيها امرأة بطبيعة الحال هي الزوجة. وهو ينفق عليها لا تطوعاً منه، بل تكليفاً. ومهما كانت ثروتها الخاصة فلا يحق له أن يأخذ منها شيئاً البتة إلا بالتراضي الكامل بينهما. فإذا شاءت أن تحتفظ بها لنفسها فهي وما تشاء، وعليه مع ذلك أن ينفق عليها كأنها لا تملك شيئاً. ولها أن تشكوه إذا امتنع عن الإنفاق أو قتر فيه بالنسبة لما يملك: "عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ". ويحكم لها الشرع بالنفقة أو بالانفصال. فهل بقيت بعد ذلك شبهة في القدر الحقيقي الذي تناله المرأة من الثروة الموروثة؟ وهل هو امتياز حقيقي في عالم الاقتصاد أن يكون للرجل مثل حظ الأنثيين، وهو مكلف ما لا تكلفه الأنثى؟

وينبغي أن نتذكر جيداً أن هذه التفرقة هي في المال الموروث فقط. وقد وزع على الرجل والمرأة بحسب حاجة كل منهما وتكاليفه. أما المال المكتسب فالمساواة الكاملة فيه هي القانون. وليس في الإسلام نص واحد يبيح التفرقة بين الرجل والمرأة في الأجر أو الكسب. بينما لا يزال النساء في انجلترا إلى اليوم –أي بعد الإسلام بأربعة عشر قرناً– يتظاهرن من أجل الحصول على هذه المساواة!!

ليس وضع المسألة إذن أن قيمة المرأة نصف قيمة الرجل في حساب الإسلام، فقد رأينا بمنطق الأرقام أن هذا غير صحيح. وليس اعتبار شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد دليلاً كذلك على أن المرأة تساوي نصف رجل، ولو أن النسبة هي نفس النسبة في الميراث! إنما هذا إجراء روعي فيه توفير كل الضمانات في الشهادة. ولما كانت المرأة بطبيعتها العاطفية المتدفقة السريعة الانفعال، مظنة أن تتأثر بملابسات القضية "فتضل" عن الحقيقة، روعي أن تكون معها امرأة أخرى "أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى". ومن النادر جداً، حين تحضر امرأتان في مجال واحد، أن تتفقا على تزييف واحد، دون أن تكشف إحداهما نوايا الأخرى فتظهر الحقيقة!

أما مسألة القوامة، فالضرورة تقتضي أن يكون هناك قيّم توكل إليه الإدارة العامة لهذه الشركة القائمة بين الرجل والمرأة، وما ينتج عنها من نسل، وما تستتبعه من تبعات. وقد اهتدى الناس في كل تنظيماتهم إلى أنه لا بد من رئيس مسئول، وإلا ضربت الفوضى أطنابها، وعادت الخسارة على الجميع. وهناك ثلاثة أوضاع يمكن أن تفترض بشأن القوامة في الأسرة: فإما أن يكون الرجل هو القيّم. أو تكون المرأة هي القيّمة. أو يكونا معاً قيّمين.

ونستبعد الفرض الثالث منذ البدء لأن التجربة أثبتت أن وجود رئيسين للعمل الواحد أدعى إلى الإفساد من ترك الأمر فوضى بلا رئيس. والقرآن يقول عن السماء والأرض: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" "إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ" فإذا كان هكذا الأمر بين الآلهة المتوهّمين، فكيف هو بين البشر العاديين؟

وعلم النفس يقرر أن الأطفال الذين يتربون في ظل أبوين يتنازعان على السيادة، تكون عواطفهما مختلة، وتكثر في نفوسهما العقد والاضطرابات.

بقي الفرضان الأولان. وقبل أن نخوض في بحثهما نسأل هذا السؤال: أيهما أجدر أن تكون وظيفته القوامة، بما فيها من تبعات. الفكر أم العاطفة؟ فإذا كان الجواب البديهي هو الفكر، لأنه هو الذي يدبر الأمور في غيبة عن الانفعال الحاد، الذي كثيراً ما يلتوي بالتفكير، فيحيد به عن الطريق المباشر المستقيم، فقد انحلت المسألة دون حاجة إلى جدال كثير.

فالرجل بطبيعته المفكرة لا المنفعلة، وبما زودته به الحياة من قدرة على الصراع، واحتمال أعصابه لنتائجه وتبعاته، أصلح من المرأة في أمر القوامة على البيت. بل إن المرأة ذاتها لا تحترم الرجل الذي تسيّره هي فيخضع لرغباتها، بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أي اعتبار. فإذا كان هذا من أثر التربية القديمة التي تترك طابعها في اللاشعور، وتكيف مشاعر المرأة دون

وعي منها، فهذه هي المرأة الأمريكية التي ساوت الرجل مساواة كاملة في الحقوق الاقتصادية وصار لها كيان ذاتي مستقل، عادت فاستعبدت نفسها للرجل؛ وهذه هي كما تتحدث الاعترافات التي تنشرها الصحف الأمريكية، وكما يشهد الذين زاروا تلك البلاد، تتحسس عضلات الرجل، وتتطلع إلى صدره العريض وذراعيه المفتولين، ثم تلقي بنفسها بين أحضانه، حين تطمئن إلى قوته بالقياس إلى ضعفها، أي حين تتلبس النتوءات والمنحنيات ليتألف منها مزاج مؤتلف متناسق.

على أن المرأة إذا تطلعت "للسيادة" في أول عهدها بالزواج، وهي فارغة البال من الأولاد وتكاليف تربيتهم التي ترهق البدن والأعصاب، فسرعان ما تنصرف عنها حين تأتي المشاغل، وهي آتية بطبيعة الحال. فحينذاك لا تجد في رصيدها العصبي والفكري ما تحتمل به مزيداً من التبعات.

وليس مؤدى هذا أن يستبد الرجل بالمرأة أو بإدارة البيت، فالرئاسة التي تقابل التبعة، لا تنفي المشاورة ولا المعاونة. بل قد يكون العكس هو الصحيح. فالرئاسة الناجحة هي التي تقوم على التفاهم الكامل، والتعاطف المستمر. وكل توجيهات الإسلام تهدف إلى إيجاد هذه الروح في داخل الأسرة، حتى لينفّر النبي صلى الله عليه وسلم الرجال من استعمال حقوقهم في تأديب زوجاتهم الناشزات –تلك الحقوق التي صرح لهم بها القرآن– إلا في حالات الضرورة القصوى. فهو يقول لهم: "أما يستحي أحدكم أن يضرب زوجته أول النهار ثم يضاجعها آخره؟" فيدعو إلى تغليب الحب والتفاهم على النزاع والشقاق. ويجعل مقياس الخير عند الرجل هو طريقة معاملته لزوجته حيث يقول: "خيركم خيركم لأهله".

ومن حق القوامة نشأ في الإسلام أن يكون الرجل هو الذي له حق الطلاق لا المرأة؛ وتقول النسوة اللائي احترفن إقامة المؤتمرات للإعلان: إن هذا ظلم، وإنه كان ينبغي أن تعطى المرأة أيضاً هذا الحق فتطلق الرجل حين تريد.

والمسألة أبسط من أن تقوم فيها المماحكة. فلتسأل كل امرأة نفسها كم مرة في حياتها وافقت على الشيء بكليتها ثم رفضته هو ذاته حين تغيرت عاطفتها نحوه.. ولنتصور بعد ذلك كم مرة كانت ستطلق زوجها ثم تعود فترده، ثم تعود فتطلقه، وهكذا وهكذا. بحيث لا يقر للبيت قرار، وتختل لنفوس الأولاد من هذه الحركة الدائمة من النقيض إلى النقيض.

وليس معنى هذا لأنه لا يوجد رجال يصنعون ذلك، فقد بينا من قبل أن في كلا الجنسين قدراً من طباع الآخر يزيد أو ينقص. ولكن الأحكام العامة في مثل هذه الأحوال تكون موكلة بالأغلبية الساحقة، لا بالحالات الفردية التي تدخل في باب الشذوذ.

على أن الإسلام أباح للمرأة أن تشترط عند عقد الزوج أن تكون عصمتها بيدها، فتنفصل عن الرجل حين تريد. فإذا شاءت أن تستعمل حقها فهي وما تريد[١].

* * *

في حدود الأسرة، وفي نطاق الزواج، يتيح الإسلام للطاقة الجنسية مجالها الطبيعي المعقول. ولكنه لا يتيح لها المجال في الشارع، خلسة أو علانية، وهو يرى ببصيرته كيف تنحل الأمم وتسقط حين تترك أفرادها يتهاوون في الرذيلة، دون أن تأخذ بحجزهم وتمنعهم من الانحدار.

وقد يقول البعض: "إن هذا النظام الذي يقصر المرأة على رجلها، ويحرم عليها إبداء زينتها إلا له: "وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ" نظام ظالم المراة، لأن من طبيعتها أن تزهو بفتنتها، وهي تحب أن تجرب سحرها في أكبر عدد من الرجال، ولا تشعر أن كيانها قد تحقق إلا إذا ظفرت بالإعجاب الإجماعي. فكأننا نكبت طبيعتها الأنثوية حين نقصرها على رجل واحد فحسب. وصحيح أن النظام الذي حرم عليها أن تجرب تأثيرها إلا في هذا النطاق المحدود قد هدف إلى مصلحة أكبر من الفرد، هي مصلحة الجماعة. ولكنا قد بينا بما لا يدع مجالاً للشك أن كل تشريع أو توجيه في الإسلام نظر فيه إلى مصلحة الجماعة، قد قصد به في ذات الوقت مصلحة الفرد نفسه. وإلا فهل تحب المرأة أن تطلق لها الحرية تجرب فتنتها فيمن تشاء من الرجال، تحقيقاً لكيانها الذاتي، على أن تترك رجلها يقع في فتنة غيرها من النساء، اللواتي نلن مثلها حق الفتنة والإغراء؟ وهل يحقق سعادتها أن تظل أبداً مشغولة البال على رجلها أن "تخطفه" امرأة أخرى، فيكون معنى ذلك أن فتنتها هي قد عجزت عن الاحتفاظ به وتكون صدمة لكبريائها تعصف بكل ما أرادت تحقيقة من كيان؟

على أن المرأة تحقق كيانها كاملاً حين ترى رد الفعل في نفوس الأخريات، في المجتمع النسائي الخالص، الذي ليس فيه رجل حاضر بشخصه، لأن كل واحدة منهن تدرك بفطرتها أن هذه الجاذبية كفيلة بأن تجتذب رجلاً ما. وهذا يكفي، دون أن تقع جريمة، ولا ينحدر المجتمع إلى الفوضى والانحلال.

فإذا قيل —كما يقال– إن هذا قيد قد اختصت به المرأة دون الرجل، لأن الإسلام يحابي الرجل على حساب المرأة، فتلك مغالطة بيانها بسيط. فإذا كان في طبيعة المرأة أن

---

(١) في كتاب "شبهات حول الإسلام" في فصل "الإسلام والمرأة" شيء من التفصيل عن وضع المرأة في الإسلام من كل نواحيه.

تعرض فتنتها على الأنظار، فإن في طبيعة الرجل أن يجد لذة عظمى في إخضاع أكبر عدد من النساء لسيطرته في وقت واحد، يتنقل بينهن بحسب طبيعته المتنقلة. فهل أباح له الإسلام ذلك؟ أم حرمه عليه لنفس السبب، وهو مصلحة الجماعة التي تحقق مصلحته هو في ذات الوقت؟ فإنه حين يباح لكل رجل أن يتنقل بين النساء بلا ضابط، فلا مناص من أن يعتدي واحد على اختصاص الآخر، فلا تتحقق السعادة المرجوة لهذا الرجل الذي يريد أن يحقق كيانه.

على أن الإسلام وهو يفرض هذا المنع على الرجل والمرأة لمصلحتهما الخاصة، لم يفرضه عليهما من خارج أنفسهما، ولا كلفهما ما ليس في طبيعتهما. وإنما هو يستحيب لنزعة أخرى في داخل النفس البشرية، لا تقل أصالة وعمقاً عن النزعة الأخرى، تلك هي الحنين إلى الأسرة، والمتعة الغامرة التي يجدها الرجل والمرأة كلاهما في جو الاستقرار والحب والأنس والألفة التي تهيئها الأسرة ولا تتهيأ في أي مكان آخر.

* * *

ولكن الشبهة الكبرى في هذا الشأن هي تشريع تعدد الزوجات الذي يبيح للرجل أن يتزوج من النساء "مثنى وثلاث ورباع" ولا يبيح للمرأة تعدد الأزواج.

والمرأة لم تطالب إلى هذه اللحظة بإباحة تعدد الأزواج، ولذلك نسقط هذا الأمر من الحساب! ولا نحتاج أن نتحدث عن مخالفته لطبيعة المرأة الأصيلة، إذ تخلص بكيانها كله للرجل الذي تحبه، وللأسرة التي تستظل بكنفها، فلا يبقى لديها ما تمنحه لشخص آخر ولو ارتبطت به!

أما تعدد الزوجات الذي يُشنّع به على الإسلام فوقاية شرعت للطوارئ كما ذكرنا من قبل. فحين يزيد عدد النساء على الرجال لسبب من الأسباب، كالحرب في الغالب، أو الأوبئة التي يتعرض لها الرجل في الخارج أكثر مما تتعرض لها المرأة داخل البيت، ويموت بسببها من الرجال عدد أكبر من النساء إذا تعرضاً لها معاً —كما تثبت الإحصاءات– بسبب مناعة جسمها ضد الأمراض أكثر من مناعة الرجل... الخ. حين يحدث هذا الاختلال العددي، لا يكون هناك بد من إجراء وقائي يمنع نتائجه المحتومة. ولن يكون له نتيجة إلا أن يجد نساء أنفسهن بلا رجل. وبصرف النظر عن الإنفاق، الذي قد تحله النظم الاقتصادية بطريقة ما، فإن حاجة المرأة للرجل، كحاجته إليها، ليست قائمة في أساسها على الاقتصاد. وإنما هي حاجة نفسية وجسدية لا يمكن أن يستغني عنها أحد الجنسين. فما لم تكن هذه الفتاة التي ليس أمامها رجل، قديسة أو ملاكاً، فلن تجد طريقة لإشباع حاجة الجسد ومتعة النفس إلا

خلسة، وفي الظلام. وحتى إذا انحل المجتمع وأباح لها أن تصنع ذلك علانية، فسيبقى الجوع الدائم إلى بيت. إلى أسرة. إلى رجل تعيش في كتفه وتشعر أنها في جواره. فأيهما إذن خير؟ أن تكون هذه الفتاة شريكة لامرأة أخرى في رجل، أو تظل حياتها شقية مبتئسة لأنها لا تجد الرجل إلا خطفاً؟

وإن الحياة مع امرأة أخرى في كنف رجل واحد لهي جحيم نفسي دون شك. ولكنه بلا جدال أيسر من الجحيم الآخر، الذي تعيش فيه المرأة بلا رجل. ولولا ذلك ما قبلت أن تقدم عليه، اختياراً لأهون الضررين.

هو إذن تشريع ضرورة، لمواجهة الطوارئ التي تحدث من عدم التوازن بين عدد الرجال والنساء. ولا يمكن تحقيقه أبداً في الظروف العادية التي يتكافأ فيها عدد الجنسين، لأنه لن توجد الأنثى الزائدة بلا رجل، التي يمكن أن يضمها إليه رجل عنده امرأة! ولن تقبل فتاة أن تأوي إلى كنف رجل متزوج، وهي تجد الرجل الذي تعيش معه دون شريك!

ويستوي أن يكون عدد الرجال قد نقص فعلاً أو حكماً، فالرجل العاجز عن الزواج لأسباب اقتصادية أو صحية، أو نفسية، غير موجود بالنسبة للمرأة. وكل هذه حالات من عدم التوازن، بعضها يمكن علاجه، وبعضها الآخر –كنتائج الحرب– ليس لأحد حيلة فيه. وعندئذ فقط ينفذ قانون الطوارئ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولتخفيف الضرر المحقق إلى أقل قدر مستطاع. وقد اتجهت ألمانيا بعد الحرب الأخيرة التي أفنت عدداً هائلاً من الشبان إلى إباحة تعدد الزوجات، وهي دولة غير مسلمة، مما يدل على أنها قد وجدت ذلك خير حل ممكن لتلك المشكلة الفظيعة، ويشهد للإسلام شهادة تسقط بعدها جميع المماحكات[1].

* * *

أما في الظروف العادية التي يتكافأ فيها عدد الجنسين فالفرص المتاحة واحدة، ولا يباح للرجل شيء غير ما يباح للمرأة. بل قد يكون الإسلام أحرص على المساواة الخلقية والنفسية من كل نظام آخر.

---

(1) لم بنفذ هذا الاتجاه في ألمانيا رغماً عن إرادتها، لأن الدول التي احتلها خشيت –حين تجد كل فتاة زوجاً شرعياً– ألا يجد جنود الاحتلال متعتهم المحرمة التي يجدونها اليوم بغاية اليسر، كما أن إفساد الأخلاق في ألمانيا المحتلة كان هدفاً من أهداف الاحتلال، لكي يؤخر قومة الغول الذي يهدد المحتلين!

فعلى حين تنظر المجتمعات كلها إلى خطيئة الرجل نظرة أرفق وأكثر تساهلاً من نظرتها إلى خطيئة المرأة، على اعتبار أن الرجل حين يخطئ لا يسيء إلى شرف أهله ولا زوجته، ولا يحمل في جسده أعقاب الجريمة، ولا يزور على المرأة نسلاً أتى به من غيرها، بينما تحمل المرأة هذا العار مجسداً، وتزوّر على الرجل نسلاً لم ينجبه، نجد أن الإسلام كان عادلاً كل العدالة، حين جعل العقوبة واحدة على الجريمة الواحدة من أي الجنسين. إذ نظر إلى الجريمة من حيث الرغبة فيها، وهي متكافئة في نفس الرجل والمرأة، ولم ينظر إلى نتائجهما العملية التي لا حيلة للمرأة في خلقها، ولا مزية شعورية للرجل في اجتنابها. كما نظر إلى حق الأبناء في أبوين نظيفين، وهو حق يقع بالتساوي على كل من المجرمين.

بل أكثر من ذلك أن الفتاة ذاتها قد لا تتطلب العفة في الرجل الذي يتقدم إليها، كما يتطلب هو العفة فيها. وكأنما تريد أن تطمئن إلى أنها تهب نفسها لرجل قوي، قد تحققت قدرته فعلاً، بالتجربة العملية. وفي الوقت ذاته كأنها تجد إرضاء لغرورها أن تستولي على شخص له قيمة في نظر الأخريات، لتشعر أنها أكثر منهن جاذبية وأقدر على الاستيلاء. أما الرجل "الخام" كما تسميه، فهو صيد سهل لا يحتاج إلى براعة، ولا يثبت الكفاءة للفتاة التي تستولي عليه. وكلما زادت تجارب الرجل، وزاد عدد النساء اللواتي تخلص من أسرهن ليقع في أسرها، كان ذلك أدل على جاذبيتها وأبلغ في تحقيق ذاتيتها. ولكن الإسلام كان أعرف بمصلحتها، وأكرم عليها حتى من نفسها، حين جعل أوامره واحدة للجنسين: "قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ". "وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ". وحرم على الزاني أن يستمتع بالمرأة الطاهرة: "الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" فضمن لها أن تطمئن إلى أن الرجل الذي تمنحه نفسها لم يتلوث من قبل: لا جسده ولا نفسه ولا ضميره. ولم تترك فيه التجارب الماضية تلك الجروح والندوب التي قد تحتجز جزءاً من مشاعره، فلا تكون خالصة لشريكة حياته. وهكذا يرتفع الإسلام بالمشاعر البشرية عن مستوى الحيوان، وهو يحافظ في الوقت ذاته على فطرة الإنسان.

* * *

ومن الشبهات كذلك، القول بأن الرجل في ظل الإسلام أكثر استمتاعاً بالحياة من المرأة، لأنه يخرج إلى الشارع، بينما يقال للنساء "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ". وفي ذلك القول كثير من المغالطة، فإذا كان الرجل يجتمع بزملائه من الرجال في الخارج، فالمرأة تجتمع بزميلاتها في الزيارات التي يتبادلنها على الدوام. وإذا كان القصد استمتاع الرجل بصحبة النساء في الخارج فمن أين تتاح هذه المتعة حين يحرم على كل أنثى أن تخرج متبرجة، أو أن تبدي زينتها

للآخرين؟ إنه لن يجد الأنثى التي يستمتع بها في الخارج، ما دامت كل امرأة في بيتها مخلصة لزوجها وأسرتها. إنما توجد المتعة الزائدة للرجل إذا خرجت المرأة إلى الطريق. أما حين يطيعان كلاهما أوامر الإسلام، فسيكونان سواء في المتعة المباحة وسواء في الحرمان.

فلم يبق إذن إلا أن يكون الشارع في ذاته، لا بمن فيه من الكائنات، متعة يظن أن الرجل يستمتع بها وحده، ولا تشاركه فيها المرأة في ظل الإسلام، فإذا كانت المرأة ترى الشارع متعة مغرية فالإسلام لم يحرمها أن تخرج إليه. ولم يمنع أن يشترك الزوجان وأولادهما في نزهة أو زيارة. ولكنه منع فقط أن تتبرج في خروجها، وأن تنطلق من عقالها لتغري هذا وذاك. وقد بينا حكمة هذا المنع، وضرورته لحماية المرأة ذاتها من أن تختطف رجلها امرأة أخرى أكثر منها إغراء وفتنة، سواء كان هذا الرجل زوجاً بالفعل أو خطيباً، أو مرجواً لهذا وذاك.

* * *

ويقول الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في عباد الله ليحققوا مآربهم الخسيسة في يسر وسهولة، دون أن يتعرضوا لثورة المجتمع ولا سيف القانون: إن الحياة تصير أبهج وأمتع حين تخرج المرأة إلى الطريق سهلة القياد طليقة من القيود. وإنه لكذلك. فإن ألواناً كثيرة من الطعام لهي أشهى من لون واحد بلا جدال. ولكن ما القول حين تكون هذه الصحاف مسروقة، من كل بيت صحفة؟ وأنه لا يستمتع أحد بصحفة شهية، مسروقة من بيت آخر، حتى تكون الصحفة التي في بيته قد سرقت ليستمتع بها آخرون؟ أوّ كذلك يحبون؟ أم يخيّل إليهم الغررو أنهم حدهم يفتكون، وتبقى بيوتهم آمنة لا يسطو عليها الفاتكون؟

أم يريدونها علانية؟ كل واحد يحضر صحفته بنفسه ليلغ فيها غيره، في مقابل أن يلغ هو في صحاف الآخرين؟ إذن لقد عدنا إلى الفوضى الجنسية التي رأيناها في الغرب المنحل، ووجدنا أنها لا تحقق في نهاية الشوط تلك السعادة الموهومة التي كان يرجوها المستمتعون.

* * *

على أن للعادة شأناً كبيراً في ذلك. فإذا تعود الزوج أن يكتفي بزوجته، والزوجة أن تكتفي بزوجها، في نطاق المتعة المباحة، وأخرجا من حسابهما نهائياً أن في الإمكان أن يسعى أحدهما إلى اللذة المحرمة أو يحصل عليها، فسيجد في الحياة الزوجية متعة كاملة تغنيه فلا يشعر بالحرمان:

والـــــنفس راغبـــــة إذا رغبتهـــــا   وإذا تـــــرد إلى قليـــــل تقنـــــع

لكن يقال: إن هذا النظام "المتزمت" الذي يفصل بين الجنسين يولد الكبت. وإن الشرق الإسلامي مكبوت لأنه لا يسمح بالاتصال الحرّ بين الرجل والمرأة. فمن أين نشأت هذه الأسطورة؟

إنها أسطورة حديثة لم تنشأ إلا بعد أن خرجت المرأة متبرجة إلى الشارع والسوق، وأصبحت فعلاً أو حكماً في متناول الراغبين. ولم تكن موجودة قبل ذلك حين كان كل رجل يتزوج، وكل فتاة تتزوج، فيكتفي كل واحد بالآخر، فلا يشعر بالكبت والحرمان.

أما حين خرجت الفتنة إلى الطريق فقد وجد الكبت حقاً. لأن هذه الفتنة تستثير مشاعر محرمة في نفس المسلم (أو المسلمة) الذي تربى في ظل التعاليم الإسلامية. وهي ليست محرمة لأنها تتصل بالجنس، فقد مر علينا كيف يكرم الإسلام الجنس ويرفعه إلى مستوى العبادة. ولكنها محرمة لأنها تتصل بالفاحشة، بالجريمة التي لا يجوز أن تحدث. فكان طبيعياً إذ ذاك أن ينشأ الصراع بين هذه الفتنة الجائحة في الخارج، وموانع التحريم في الداخل، لا لأن هذه الموانع هي المخطئة، وهي التي ينبغي أن تزول، بل لأن هذه التقاليد المنحلة هي الخطأ الذي يجب أن يزول. ومناط الحكم في هذه القضية ليس هو العواطف الهائجة والشهوات الجارفة، وإنما هو التحقيق العلمي الصحيح في أي الوضعين أسلم لبنية الفرد ذاته، وأكثر تحقيقاً لسعادته الفردية في نهاية الشوط. وليس أمام العلم النزيه إلا جواب واحد، حين يمسك بالقضية من جميع أطرافها، وينظر إليها بعين الأجيال كلها، لا بعين جيل واحد محدود.

وقد عرف الإسلام هذا الجواب الواحد قبل ألف وثلثمائة عام، وما زال هديه هو الصحيح على مر الأعوام.

* * *

وحين يبيح الإسلام المتاع الجنسي في نطاق الزواج وحده، ويحرمه في خارج هذا النطاق، تنشأ مشكلة الشباب الذي لم يتزوج بعد.

وهي مشكلة ما في ذلك شك. وكلما تعقدت الحياة الاجتماعية والاقتصادية، في ظل الحضارة الغربية، زادت هذه المشكلة تعقداً وعنفاً. وقد كان الشغل الشاغل لعلماء النفس والاجتماع في الغرب هو الاهتداء إلى حق معقول لهذه المشكلة الخطيرة؛ وكان الانحدار

العنيف الذي انزلق إليه الغرب نتيجة للاتجاه إلى حل خاطئ، والسير فيه إلى أبعد الحدود، لأن هذا الحل بطبيعته لا يعرف القيود والسدود!

بدءوا بالاختلاط البريء! وانتهوا إلى الإباحية الجنسية الكاملة، لأنها النتيجة المحتومة لتلك البراءة المزعومة!

فلقد كان هذا الاختلاط البريء أسطورة ضخمة طلع بها الغرب في بدء انحلاله، ليعالج بها الكبت الجنسي. وراح علماء النفس والاجتماع يهولون في فائدتها المطلقة وخيرها العميم... ثم عاد الغرب فكفر بها، ولم يعد اليوم يجري ذكرها على لسانه، بعد أن تكشفت عن نتيجتها الطبيعية المحتومة.

فأما علماء النفس وأطباء الأعصاب فقد نكلوا عن رأيهم السابق في هذا الاختلاط الشفوي، بما فيه الرقص على أنغام الموسيقى، وحفلات الشاي "البريئة" والنزهات الخلوية "تحت رقابة الوالدين أو إشراف المدرسين".

فهم يقولون اليوم: إن كل اختلاط من شأنه أن يهيج المشاعر الجنسية لا أن يخمدها. فإذا كانت هذه المشاعر تَسكت أو تُسكت، بحكم ظروف الاجتماع التي لا تمكّن من التنفيذ العملي، أو بحكم الحياء من الظهور أمام الموجودين والموجودات بمظهر الجائع المتعطش، أو لأي سبب آخر، فإن هذا لا بد أن يحدث لوناً من القلق النفسي والعصبي بعد الهدوء المؤقت الذي قد تحدثه الاجتماعات المختلطة. وعندئذ يحدث أحد أمرين: فإما أن يلجأ الشاب إلى تفريغ الشحنة المستثارة، في مكان آخر لا تقوم حوله الحواجز، أو يظل في قلقه المفسد للأعصاب. بل زاد بعض الأطباء أن يقولوا: إن الاستمرار على هذه الحال، أي الإثارة الدائمة بدون تفريغ، قد يؤدي عند الشاب إلى ضعف عصبي، بالإضافة إلى اللهفة النفسية الدائمة.

وهكذا انكشفت حكاية "التهذيب الجنسي بالاختلاط البريء" عن وهم كبير! فما قيمة أن تتهذب مع واحدة بعينها، لتنطلق مع أخرى كالحيوان، أو تظل دائماً في لهفة وهيام؟ وما قيمة أن تكون الفتاة التي تهذبك اليوم وتتهذب بك فريسة في الغد لفتى آخر، قد "تهذب" من قبل، فانطلق يريد الارتواء؟!

إنها أضحوكة، أو ستار رقيق جداً يكشف عن المغالطة التي تستتر وراءه. وعلى أي حال فقد كفر الغرب بها، ولم يعد يزعم أن الاختلاط البريء أمر ممكن التنفيذ. لقد ألقى

القناع، وأعلن في صراحة حمقاء، أنه قد أباح لفتيانه وفتياته أن ينزو بعضهم على بعض بلا حياء!

فما بال هذا الشرق المسكين يتشبث بهذه الأساطير؟ وفي أي مكان على ظهر الأرض يوجد اليوم –أو وجد قبل الآن– اختلاط بريء، حتى يدعو إليه هنا الكتاب والمؤلفون؟ ألا فليملأ الكتاب الفارغون اسطواناتهم بطبعة جديدة، فقد بطلت الطبعة الأولى وأصبحت غير ذات موضوع!

ولقد كان الإسلام أشد بصراً بالطبيعة البشرية، وأدرى بإمكانياتها ومساربها الخفية، حين منع هذا الاختلاط، وهو يعلم أنه لن يظل بريئاً قيد خطوات.

وهو حين دعا إلى الاستمتاع المعقول داخل نطاق الزواج، وحرم المتاع الفاجر في الخارج، لم يكن قصده مجرد التحكم في الناس لشهوة التحكم، وإنما كان يقصد إلى منفعتهم، وتوفير أسباب الراحة النفسية والعصبية للجميع. فإذا كان الشباب الفائر لا يرى هذه المصلحة في لحظة من اللحظات، لأنه لا يرى الهوة في آخر الطريق، فلا ينتظر مما يراها رأي العين، أن يسكت عليه حتى يتردى قبل أن يفيق.

*   *   *

وقد كانت المشكلة عندهم في العالم المسيحي، مشكلة نفسية وعصبية أكثر منها جسدية وعضلية. كان الأمر الذي يطلبون علاجه هو الكبت النفسي الذي يعانيه من يتربى في ظل التعاليم المسيحية، كما أوحى بها رجال الدين وكتب المواعظ الدينية. ولكن الطريقة التي عالجوا بها الكبت، قد فشلت في إيجاد السلامة النفسية والعصبية، ولم تزد على أن تستبدل به الجوع الدائم واللهفة التي لا تشبع، فضلاً على حالات القلق المتزايد، التي تفد كل يوم، بنسبة مزعجة، على العيادات النفسية في أمريكا خاصة، وهي التي طبقت هذا الحل المثالي إلى آخر مداه!

وهنا يتميز الإسلام بأنه لا يكبت المشاعر الجنسية، ولا يستقذرها في ذاتها، ولا يعتبر من تلم به خارجاً عن ملكوت الله. بل يعترف بها أولاً على أنها أمر واقع، ثم يرفعها في حس المسلم إلى درجة النظافة الكاملة التي تقترن بالعبادة وباسم الله الكريم.

فإذا امتنع الكبت فقد خفت المعركة النفسية إلى درجة كبيرة، ولكنها لم تَزُلْ من الوجود. فما زال المراهق بين الشد والجذب: بين دفعة الجسد الملحة، ومعرفته بأن الإجابة

العملية لهذه الدفعة ممنوعة عنه "الآن" حتى يستطيع الزواج. ومرة أخرى نجد أن توقيت المنع بفترة معينة، يخفف كثيراً من وقعه على الأعصاب. وإن كان بعد لا يزيله!

وهنا يلجأ الإسلام إلى شَغْل المراهق بما ينفس عن الطاقة الجنسية، من طريق الجسد والنفس في آن. فأما الفتى فقد كان يشغله بالفروسية ومطالب الجهاد. وهذه ترفع المشاعر كلها وتهيئ الرجل للصراع النبيل في المستقبل، وتستنفد طاقة الجسد، فتنفس في الوقت ذاته عن كثير من الرصيد المحبوس، كما بينا من قبل. وقد صار الفتى اليوم يقضي مراهقته في المدرسة فعليها أن تقوم بما كانت تفعله الفروسية من قبل، فتجعل الرياضة البدنية والتدريب العسكري شيئاً أساسياً في الدراسة، وتأخذه مأخذ الجد. وإن كانت المدارس المصرية لم تزل بعد لا تجدّ في شيء البتة، حتى إعطاء الدروس وامتحان التلاميذ!

وأما الفتاة فقد كان يشغلها بأمور المنزل، فيهيئها لمستقبلها كأم وربة بيت، ويشغل أفكارها عن خوطر الجنس مباشرة، فيدعها أحلاماً مبهمة بمستقبل سعيد، ويستنفد طاقة الجسد الفائر في غير إرهاق. ومن هنا تتضح جريمة المدرسة التي تدرس للبنات في سن المراهقة الحساب والجبر والهندسة والكيمياء، ولا تشفع ذلك بالتدبير المنزلي كمادة أساسية، لا كحصة طائرة؛ مادة تستغرق الوقت والتفكير والجهد، وتوجه مشاعر الفتاة وجهتها الصحيحة فلا تدعها تسترجل وتنسى طبيعتها الأصلية. وبعد ذلك لا قبله، تدرس من المواد الأخرى بقدر ما تشاء، دون قيد إلا الرغبة والمقدرة.

وهذه الفتاة التي تدرس دراسة لا تستجيب لطبيعتها الأنثوية، ولا تستنفد طاقة الجسد المذخورة، بل ترهق الأعصاب فتجعلها أقرب إلى الهياج، تجد طاقتها الجنسية فائرة لم تستنفد ولم يخفف منها شيء. ولذلك تتسكع في الطرقات، وتَعرِض نفسها للنظرات الجائعة والشهوات الهائجة، ثم تسقط في النهاية إلى حيث يؤدي بها الطريق.

وفي المجتمع الإسلامي لا توجد تلك المهيجات العنيفة التي تعمل على استثارة الشهوة على الدوام، وبدرجة غير طبيعية. لا توجد الصور العارية ولا الصحافة العارية، بكتابها المنحلين الذين يرتزقون بإفساد أخلاق الشباب، وإثارة الحيوانية الفاجرة في نفوسهم كما يفعل القوادون وتجار الأعراض. ولا توجد فيها السينما الخليعة والمراقص الداعرة التي لا تمثل فناً ولا فكرة، ولا شيئاً آخر غير عرض الشهوات المريضة والأجساد العارية في كل وضع مثير.

فإذا امتنعت هذه المثيرات غير الاعتيادية فقد خفت حدة الشهوة إلى حد كبير.

ولكن الإسلام وقد تحاشى الكبت، وحدد المنع بفترة محدودة، وشغل المراهق —فتى كان أو فتاة– بما يستنفد طاقته ويحول أفكاره، ومنع عنه المثيرات العنيفة المتلفة للأعصاب.. يعلم أن ذلك كله "تصبيرة" لا تغني عن الغذاء الأصيل؛ وعند ذلك يفتح باب الزواج، ويقف عنده منادياً: أن هلموا وبكروا، ولا تتأخروا عن النعيم المباح!

وذلك هو العلاج الحقيقي للمشكلة، والحل الذي لا يغني عنه شيئاً آخر، مهما ابتدعت الإنسانية في القديم والحديث.

الزواج ينهي المشكلة، فيصرف الطاقة الحبيسة، ويهدئ الشهوة الجامحة، ويرتفع بالإنسان عن مستوى الحيوان، ويذكره بالأهداف العليا للحياة الإنسانية، ويخلص مشاعره وأفكاره من الدوران في دائرة الجنس، فيتيح لها العمل على تحقيق هذه الأهداف.

ولذلك كله يدعو الإسلام إلى التبكير في طلب الزواج، بمجرد الاستطاعة. ويشهد الواقع الإسلامي بأن هذا كان حالاً ناجحاً للمشكلة الجنسية، إلى حد أنه لم يحوج الناس إلى ارتكاب الجريمة، لا لأنهم مكبوتون وممنوعون، ولكن لأنهم واجدون فمستغنون.

ويزعم بعض الناس أن وجه الأرض لا يمكن أن يخلو من جريمة الزنا، ولهذا ينبغي ألا تقاومه الدولة أو المجتمع، بل تعترف به وتنظمه وتشرف عليه. وكان من أولئك كتّاب لهم أقلام، لا يستحون أن يدعوا هذه الدعوة المجرمة في بلد إسلامي، بدل أن يدعوا إلى الحل الصحيح.

فهذا هو الواقع التاريخي للإسلام يكذبهم. صحيح أن الجريمة لم تنقطع انقطاعاً كاملاً ولا أيام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. ولكن النسبة تختلف. وفرق بين مجتمع لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذاً يستنكر، وبين مجتمع تحدث فيه كأمر عادي لا يثير الاستنكار، بل يكون الامتناع عن الجريمة فيه هو الشيء الذي يبعث الدهشة والاستنكار!

وقد كانت الأغلبية الساحقة من المسلمين لا ترتكب الخطيئة، لا لأن الناس قد صارت ملائكة، ولكن لأن دوافع الجريمة لم تعد موجودة. واكتفى الناس بالزواج المبكر فلم يعودوا يشعرون بالحرمان.

وتلك هي طريقة الإسلام في تهذيب النفوس، فهو لا يعظهم من المنابر. وإنما يقدم الحلول العلمية للمشاكل، ثم يجعل الوعظ متمماً للحل العملي، وباعثاً على الوصول به إلى النتيجة المطلوبة.

ولكن هذا الحل يبدو اليوم في حكم المستحيل! هكذا يقول الذين لا يتصورون الأشياء إلا كما يرونها موجودة أمامهم في هذا الجيل!

فهم يرون في معظم أجزاء العالم نظاماً اقتصادياً معقداً، لا يتيح للفرد أن يتكسب إلا بعد فترة طويلة من التعليم والمرانة. وحتى بعد ذلك فإن كسبه لا يكاد يفي لضروراته، فضلاً على إنشاء أسرة ومواجهة تكاليفها المتزايدة.

ويرون نظاماً تعليمياً معقداً لا يتيح للطالب أن يتخرج في سن مبكرة، إذا أراد أن يحصل على شهادة محترمة، تهيئ له بعد الجهد المضني هذا الكسب الضئيل الذي أشرنا إليه. ولا تتيح له هذه الدراسة بنظامها المعقد، أن يعمل في أثناء الدراسة، ليحصل على شيء من الكسب.

ويقولون غير ذلك: إن الفتى لا يستطيع أن يدرس ويتزوج في آن واحد. فلا مناص من تأخير الزواج إلى ما بعد التخرج، ثم تأخيره إلى ما بعد الحصول على عمل، ثم إلى ما بعد القدرة على توفير مبلغ صالح للزواج والإنفاق...

بل يقولون: إنه ليس من المصلحة أن يتزوج مبكراً، قبل أن تصقله التجارب، فيعرف كيف يختار، وكيف يتحمل التبعة، وكيف يربي أولاده... الخ.

فإذا كانت الأمور كلها كذلك، فلا حل للمسألة إلا أن تتيح للشباب حاجتهم الجنسية من غير طريق الزواج؛ وإلا احترقت أعصاب أولئك المساكين المحرومين! إلا ما أشد قسوتنا وتأخرنا إذا وقفنا في جانب الدين، الذي لم يعد يصلح لتلك التطورات الاقتصادية والاجتماعية الحديثة! لا. لا! ينبغي علينا، لكي نكون أحرار الفكر، أن ندعو إلى إباحة الفاحشة؛ وإلا سخرت منا أوربا وقالت: إننا متأخرون! حتى ولو كانت أوربا ذاتها قد بدأت تستنكر البغاء الرسمي وتلغيه!

وأحب أن أؤكد أولاً أن الإسلام نظام كامل لا أجزاء متفرقة، وأنه ينشئ مجتمعه بنفسه، على الطريقة التي يريدها ويراها كفيلة بتحقيق أهدافه المرسومة. وأن الإسلام ليس مكلفاً أن يصحح للناس أخطاءهم ويحل لهم مشاكلهم، إلا إذا حكّموه جملة وتفصيلا وعاشوا تحت ظله هو، لا تحت ظل نظام أجنبي عنه، له جهازه الخاص ومشاكله الخاصة. فلا يجوز —ولا يصلح– أن ننتقي قطعة إسلامية بذاتها، ونضعها بدل قطعة جاهلية، في نظام جاهلي كامل. إنها بطبيعة الحال لن تصلح، ولن تحل المشكلة، لا لأنها فاسدة في ذاتها، ولكن لأنها من

"مقاس" آخر، ومفصلة على جهاز آخر، يختلف عن غيره اختلافاً رئيسياً في الطريقة والأهداف.

حين تختل ساعتك، فلن تستطيع إصلاحها "بترس" من نوع آخر مهما يكن متيناً في ذاته ومتقن الصنع. وإنما عليك أن تغير الساعة كلها إذا رأيت أنها تضايقك، أو تأتي لها بقطعة غيار من نفس نوعها وعلى حساب طاقتها.

فإذا فسد الاقتصاد المأخوذ من الغرب، أو من أي نظام آخر غير إسلامي، وأثر فساده في المجتمع والأخلاق، وجعل الزواج المبكر عملية مستحيلة، فلا يقل أحد: إن الإسلام لم يعد يصلح للحياة، لأنه ينص على أمر لا يمكن تنفيذه في ظل الأوضاع الاقتصادية المقلوبة. وإنما يقال فقط إن هذه أوضاع غير إسلامية، فلا يمكن أن تنفذ فيها الأساليب الإسلامية. وعلينا حين نقتنع بأن طريقة الإسلام هي الأصوب، أن ننشئ المجتمع الإسلامي كاملاً، فنجد كل جزئية في مكانها الصحيح، مفصلة على مقاسه، عاملة منتجة على خير الوجوه.

وقد يستهول الأمر الذين ضعفت قلوبهم، واستعبدت أرواحهم فظنوا أن الأوضاع الاقتصادية القائمة لا يمكن أن تتبدل أو تزول! ولكن الشيوعية مثلاً قد غيرت كل ما كان قائماً من النظم الاقتصادية والاجتماعية، وأنشأت لها نظاماً خاصاً جديداً من ألفه إلى يائه (وإن كانت في نظرنا لم تغير الأساس المادي للحضارة كما بينا في فصل "الشيوعيون"! فلم يستعص عليها التغيير؛ وتحولت مشاعر الناس وأفكارهم مع جهاز الدولة الجديد فصارت تستنكر ما كان أمراً واقعاً من قبل. والإسلام أقدر، حين يؤمن به أهله ويسعون إليه، على تغيير النفوس والمشاعر والنظم الاقتصادية والاجتماعية، لأنه –فوق تنظيماته وتشريعاته– يتصل بمكمن العقيدة في أعماق الضمير.

وفي ظل النظام الإسلامي الكامل تنحل مشكلة الزواج المبكر، وتصبح أمراً طبيعياً لا تقف في طريقه العقبات.

فالنظام المادي الغربي، الذي يحجر المشاعر، ويثير الأنانية البغيضة حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، هو الذي جعل الوالد ينكل عن الإنفاق على أبنائه بعد سن معينة، فصاروا لا يجدون إلا ما يكسبونه بأيديهم، مهما كانت ثروة الوالدين. ونظام الميراث المختل هناك يجعل الولد الأكبر وحده هو الذي يرث، ويخرج بقية الأولاد فقراء معدمين. أما في النظام الإسلامي المتعاطف المتعاون، فلا تقوم هذه الحواجز المتحجرة بين الأب وأولاده، ولا يمتنع عن الإنفاق عليهم حتى تمكنهم ظروفهم من الكسب، في غير لهفة ولا استعجال. وذلك في مقابل حقه عليهم في أن ينفقوا عليه في كبرته حين يعجز عن الكسب، أو يحتاج إلى زيادة

في النفقات... وهكذا يتبادلان التعاون، كل حسبما يقدر، وفي الوقت الذي يكون قادراً فيه.

وبذلك لا يقف عجز الولد عن الإنفاق عائقاً في طريق الزواج المبكر، لأن والده لا يمتنع عن معاونته حتى يستطيع الاستقلال عنه. والذين يزعمون أن هذا يدعو إلى تواكل الأولاد وتقاعدهم عن العمل، يتحدثون عن فرض خيالي لا وجود له في الواقع (إلا في الحالات الشاذة بطبيعة الحال) ويغفلون عن عوامل نفسية مهمة. فليس أحب إلى الفتى أو الشاب من كسب يده، مهما تكن الثروة التي يجدها عند أبيه. والذي يذهب إلى الريف يجد تسابق الصبيان والمراهقين إلى العمل في جمع المحاصيل، ليحصلوا على نقود خاصة لأنفسهم، لا يقعد منهم عن ذلك إلا أولاد المترفين من الأغنياء. والإسلام يحارب الترف ويعده جريمة تؤدي إلى العذاب.

وفي ظل الإسلام لا يوجد الفقر الذي يُعجز الشاب ووالده معاً عن بناء أسرة جديدة والإنفاق عليها. لأنه يعمل على توزيع الثروة بصورة تضمن العدالة الاقتصادية بين الجميع، ويضع في يد ولي الأمر سلطات واسعة جداً، تبيح له كما قال عمر، أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء، ويعيد التوازن إلى المجتمع كلما جنح إلى الاختلال.

وبيت المال مكلف خاصة بمعاونة من يريد الزواج من الفقراء ولا يقدر على نفقاته. أي أن الدولة، بلغتنا الحديثة، مكلفة بدفع إعانة لمن يحتاج إليها من الفقراء، باعتبار أن هذا دفع لضرر اجتماعي وأخلاقي منظور.

فالمسألة الاقتصادية في الإسلام لا تقف عائقاً عن الزواج.

ومع ذلك فلنفرض أننا في بلد كأمريكا، لا يعول الوالد فيه ولده ولا ابنته كذلك بعد الدراسة الثانوية، ولا تنفق الدولة شيئاً على راغبي الزواج. فماذا يحدث هناك؟ إن الصبيان بعد الدراسة الابتدائية ليبدأون في العمل ليكسبوا نفقاتهم الخاصة. فإذا أكملوا الدراسة الثانوية انقطعت كل صلة مالية لهم بأهليهم، وصار عليهم أن يكسبوا ما يتعلمون به في الجامعة، وما يعيشون به كذلك. ونظم التعليم هناك من المرونة بحيث تتيح لهم أن يتعلموا ويعملوا في وقت واحد. فتنظم الجداول، ومواد الدراسة، وطرق الامتحان، بحيث يصبح في مقدور كل طالب أن يجد وقتاً للعمل والكسب، دون أن ينقطع عن التعليم.

فما دام هذا ممكناً في أي بلد على ظهر الأرض، فما الذي يمنع من إمكانه عندنا حين نريد؟ أهو فرض علينا أن نظل على هذه النظم الفاسدة التي اقتبسناها من انجلترا وفرنسا، ثم جمدنا عليها كأنها منزلة من السماء؟

فإذا انتهت المشكلة الاقتصادية والتعليمية، بقيت المشاكل النفسية.

إن الشاب لا يقدر على الدراسة والزواج في آن واحد. لماذا؟ إن الفتى الأمريكي —وهو آدمي كبقية الآدميين– يدرس، ويحتمل تبعة نفسه، وينفق على حياته الخاصة كلها، ثم يقيم علاقات "غرامية" مع الفتيات، ويقوم بالجانب الجنسي على طريقة الحيوان. فأي شيء في الزواج يزيد عن هذه الأعمال إلا نظافة الحس والضمير؟ فإذا كان إنجاب الأطفال في سن مبكرة يشغل الأبوين عن الدراسة، أو يرهق الوالد بالتكاليف قبل الأوان، فقد أصبح في الإمكان —بالوسائل الحديثة– تأخير النسل بضع سنوات، وليس في هذا التأخير ما يتعرض لغضب الإسلام إذا كان ضرورة ليس منها مناص.

أما حكاية النضج فأمرها عجيب. فما الذي يمنع أن ينضج الناس في داخل أسرهم، بدل أن ينضجوا في الطريق؟! وهل كل هذه الأجيال التي تزوجت مبكرة قد وقفت عن النضج، بكل من خرج فيها من عظماء التاريخ؟

تبقى تلك الدعوى الفارغة التي تقول: إن الزواج المبكر عرضة للعواصف حين ينضج الزوجان فيجدان نفسيهما غير متكافئين أو غير متفاهمين. وإنه لذلك ينبغي التأخير حتى يحس الزوجان وزن الأمور، ويختار كل منهما رفيقه اختياراً يقوم على الاختبار الدقيق!

ومثل هذا الكلام كان يمكن أن يقام له وزن، لو أن الاختيار المبني على الاختبار الكامل، قد أثبت أنه أكثر استقراراً وأبعث على التفاهم بين الزوجين. ولكن كيف الحال ونتيجته هي الطلاق الجنوني الذي شرحنا أسبابه ودوافعه في هذا الفصل؟

ومع ذلك فأسوأ الفروض أن ينفصل الزوجان بعد نضوجهما، ويبحثا عن زواج جديد. أليس كذلك؟ فلنأخذ نتائج الإحصاء. إن المجتمع المصري الريفي يزاول الزواج المبكر. ومع ذلك لم تصل فيه نسبة الطلاق ما وصلت إليه في أمريكا، بلد الاختبار الكامل الدقيق!؟

ولكن أناساً سينظرون إلى المجتمع الإسلامي، وقد اختفت الفتنة الهائجة في الطريق، وارتفعت مشاعر الناس عن الدنس والقذارة، فيخيل إليهم أنهم سيفقدون المتاع الذي هم فيه اليوم غارقون! ذلك أنهم يتصورون أنفسهم، بمشاعرهم الحالية، ورغائبهم وشهواتهم

وأفكارهم، ومشاغلهم وطرائق حياتهم، وأهدافهم كما هي الآن، ثم يتصورون أنهم دخلوا في الإسلام بهيئتهم الحالية دون تغيير! فيحسون أنهم "حُرِموا" من متاع كبير! ولكن الواقع أن الإسلام سينشئهم من جديد: سيمنحهم نفوساً ومشاعر ومشاغل وأهدافاً وطرائق حياة تنسجم مع نظامه الخاص، فإذا هم خلق آخر لا يشعر بالحرمان من المتاع الدنس، بل يحس نحوه بالاستعلاء والنفور!

* * *

في رحاب الإسلام إذن تجد المشكلة الجنسية حلها الكامل، الذي يريح الأعصاب، ويحفظ المجتمع نظيفاً من الجريمة، ويهيئ الجو النفسي والشعوري للارتفاع فوق عالم الضرورة، لتحقيق أهداف الحياة العليا التي تليق بالإنسان، ذلك المخلوق الذي كرمه الله ورفعه على بقية مخلوقاته، ليسود الأرض، ويصل بينها وبين السماء!

القيم العليا

حين يهبط الإنسان إلى الظلمات الكريهة التي يضع فيها فرويد النفس الإنسانية، وحين يدخل المعمل مع التجريبين فيرى مزقاً منها ملقاة هنا وهناك تحت الاختبار، وقد صعدت منها روائح التحلل المتعفنة، وحين يسير مع المذهب المادي والمذهب الاقتصادي إلى آخر الطريق، فيرى البشرية قطعاناً تحركها الآلة ويسيرها الاقتصاد، دون أن ترتفع لحظة عن قيود الأرض وعالم الضرورة...

حين يهبط الإنسان إلى هذه المستويات الدنيئة، يأخذه الدوار ويصيبه الغثيان!

هل هذه هي النفس حقا؟ هذه القذارة المغثية، والضرورة الهابطة؟

أم إنها تهمة يطلقها المنحلون وصغار النفوس وملوثو الضمائر، ليداروا ما فيهم من ضآلة ونقص، ويبرروا ما يرتكبونه من آثام؟

هل القيم العليا كلها خرافة؟ والمشاعر النبيلة كلها أوهام؟

هل كانت عبثاً كل دعوة الأنبياء والمصلحين، وكل محاولة لتهذيب الطبائع البشرية؟

وهؤلاء العظماء من كل لون وفي كل باب: الذين ضحوا بصالحهم لصالح الإنسانية. الذين استعصوا على دعاء الشيطان واستمعوا لهاتف الضمير. الذين أقاموا أنفسهم مثلاً رفيعاً للعدل والنزاهة والرحمة والعطف، والاعتداد بالكرامة، والإيمان بالأفكار العليا، والجهاد في سبيلها.. هل كانوا كلهم خرافة؟

أبو بكر وعمر وعثمان وعلي... وأبو عبيدة وأبو ذر وعمر بن عبد العزيز... وغيرهم وغيرهم.. كلهم أوهام؟

ومئات وألوف وملايين في تاريخ البشرية العرض، بعضهم من ذوي الأسماء اللامعة، وأكثره جنود مجهولون في ساحة الشرف، جاهدوا أو استشهدوا في صراع الحياة الأكبر.. كلهم أساطير لم تعمر وجه الأرض، وإنما عمرها فقط الشريرون والخبثاء والمجرمون؟

فلنعد إلى أقذر صورة تخيلها للإنسانية ذهن إنسان! الصورة التي رسمها فرويد جاهداً ليلوث بها كل جميل في مشاعر البشر!

لنعد إلى هذه الصورة ذاتها، لنجد الجواب على غير ما يزعم الهابطون والمنحلون وصغار النفوس.

قتلت الإنسانية أباها الأول، ليستمتع الأولاد بأمهم في شهوة جنس دنس مسعور. ولكنهم ما كادوا يصنعون ذلك، ويرون أباهم جثة هامدة، حتى اعتراهم الندم على فعلتهم الآثمة..

ونأخذ الرجل من لسانه!

فمن أين أتى شعور الندم لهذه الحيوانات الهائجة التي تتصرف بدوافع الحيوان؟ من ذا الذي أوحى إليهم بأن عملهم هذا كان خطأ لا يجوز؟

إننا هنا أمام أول شعور إنساني يفرق بين الإنسان والحيوان، وذلك على فرض أن القصة كلها صحيحة، وفرويد نفسه لا يملك على ذلك أي دليل. فهذا الندم على الجريمة يؤكد وجود الحاسة التي تفرق بين ما ينبغي وما لا ينبغي أن يعمل، بين ما هو خيّر وما هو شرير. حاسة تقدر "قيماً" ذاتية للأعمال، منفصلة عن الدافع الغريزي الذي يدفع إليها.

هذه واحدة.

ثم نظر الأبناء فيما بينهم فوجدوا أن أحداً منهم لن يفوز بأمه وحده، إلا إذا قتل الآخرين. وإذن فستنشب معركة عنيفة لا تؤدي إلى تحقيق المصلحة المنشودة، فاتفقوا بينهم على أن يتركوا أمهم لا يمسها أحد منهم، وينصرفوا راشدين متآخين، بدلاً من أن يقتتلوا فينقلبوا خاسرين!

وهذه هي الثانية.

فهنا شعور إنساني آخر: شعور التآخي على مصلحة عامة، بدل الأنانية القاتلة والصراع المرذول.

ولا يقف ما نستخلصه من القصة عند هذا الحد. فهي تثبت كذلك مقدرة الإنسان على "ضبط" نوازعه الفطرية في سبيل الخير العام، الذي يعود في نهاية الأمر على كل فرد بما فيه مصلحته الخاصة.

فإن فرويد يقول، نقلاً عن دارون، إن مجتمع الثيران يحدث فيه ما تخيل حدوثه في مجتمع الإنسان. فتنطلق الثيران الفتية الشابة تريد أن تنزو على أمها وتستخلصها من الأب المسيطر عليها. فيبدأون أولاً، كمجموعة، بقتل أبيهم (ولا يصيبهم الندم على ذلك)، ثم يقتتلون فيما بينهم (لا تمنعهم الأخوة ولا يحدوهم دافع مشترك) حتى يموت الضعاف منهم ويبقى واحد قوي يستولي على البقرة التي كانت موضع النزاع.

أما الإنسانية الأولى كما رسمها فرويد نفسه، فقد ترفعت عما يفعله الحيوان، فأحست بالندم، وربط بينها شعور التعاون، واستطاعت أن تضبط نزوات الانفعال.

ونحن لم نقل أكثر من ذلك، وما نريد أن نقول أكثر منه!

فذلك حسب أي إنسان يريد أن يؤمن بالإنسانية، ويرتفع بها عن قيود الضرورة ونزوة الغريزة.

إن هذا الاعتراف الذي أقر به فرويد دون أن يدري، ليهدم كل ما أقامه بعد ذلك من نظريات ملوّثة، وتصميمات خبيثة. فهو ينفي الجبرية النفسية إذ يقر بالإرادة الضابطة التي امتنع بها الأولاد عن غشيان أمهم. وينفي أن كل مشاعر الإنسانية غريزية، إذ يقرر إحساس الأولاد بالندم على ما صنعوه بدافع الغريزة. وينفي أن القيم الأخلاقية مفروضة على الإنسان من قوة قاهرة خارج نفسه، فهذا الندم ذاته قيمة أخلاقية، أحس بها الأبناء تلقائياً لحظة انتهائهم من الجريمة.

فمن هذا الظلام الهابط الكريه يشاء الله أن يخرج بصيص من النور!

وليست هذه هي الحقيقة الوحيدة التي انزلق فرويد إلى الاعتراف بها على غير قصد منه. فقد جعل يبدئ ويعيد في نظرية لتفسير السلوك الإنساني مؤداها أن كل مشاعر البشر ثنائية الطبيعة والاتجاه. فاللذة يصحبها بطريقة ذاتية شعور الألم. والحب يصحبه الكره. والرغبة يصحبها النفور. لا لأن هناك أسباباً موضوعية للشعور المضاد، ولكن لأنه هكذا خلقت "الطبيعة" الإنسان. ففي اللحظة التي يولد فيها الحب ينشأ الكره تلقائياً تجاه الشخص أو الشيء المحبوب! بل الغالب أن يكون الكره هو السابق في الظهور! وكلما اتسع نطاق الحب. اتسع نطاق الكراهية في ذات اللحظة حتى تشمل نفس الميدان الذي يشغله الحب. ولكن لما كان من المستحيل أن يحتل الشعوران المتضادان منطقة الشعور، فإن الحب يظهر على السطح، وتكبت الكراهية في اللاشعور! والحياة كلها في نظر فرويد قائمة على الكره المكبوت الذي يوجه المشاعر على غير وعي منها، ويؤثر كذلك في الأعمال. ومن هذه

الكراهية، أو بالأحرى من الصراع الدائر بين الحب الظاهري والكراهية المكبوتة، نشأ الدين والحضارة وتقاليد المجتمع.. وكل مظهر من مظاهر البشرية!!

وهو يقرر هذا المبدأ في معظم ما يكتب، ويتحمس في إثباته، ليقرر في ذهن قارئه أنه حقيقة لا تقبل النقاش. ولكن الله يشاء أن ينزلق قلمه في سطرين اثنين من كتاب، فيقرّ بحقيقتين هائلتين تهدمان هذا المبدأ من أساسه. فهو يقول في كتاب " Totem and Taboo" ص١٣٩: "إن الكراهية التي تنشأ في نفس الولد نحو أبيه **من منافسته على أمه**، لا تستطيع أن تستولي على نفسه دون أن تتعرض للمنع والحجر. فإن عليها أن تصارع الحب والإعجاب اللذين نشآ قبل ذلك في نفسه تجاه الشخص ذاته" (أي تجاه الأب).

فهو يقرّ هنا أولا بأن للكراهية أسباباً موضوعية، هي المنافسة على الأم، وأنها لا تنشأ نشوءاً ذاتياً من الحب، ودون تدخل أية عوامل أخرى، كما أراد أن يقرر في غير هذا الموضع. ويقرّ ثانياً بأن الحب سابق في ظهوره على الكراهية. وأن الكراهية التي تنشأ متأخرة تصارع هذا الحب الموجود من قبل (أو old establishedكما يقول). وذلك فضلاً عن إقراره بحقيقة ثالثة لا تقل أهمية عما سبق، وهي أن الذي يصارع الكراهية ويكبتها ليس قوة خارجية قاهرة، وإنما هو شعور أصيل في داخل النفس، هو الحب الذي ينشأ سابقاً للكراهية. وذلك كله على فرض صحة وجود الشعور الجنسي بين الولد ووالدته، وهو وَهْمٌ ليس عليه دليل.

ونحن لم نقل أكثر من ذلك، وما نريد أن نقول أكثر منه!

فذلك حسب أي إنسان يريد أن يؤمن بالإنسانية، وبأن المجتمع الإنساني يمكن أن يعيش على مشاعر الحب والعطف والرحمة، حين يظلله نظام يخفف إلى أقصى درجة ممكنة أسباب الكراهية التي تنشأ من الصراع.

* * *

لسنا إذن واهمين حين نؤمن بالقيم العليا، والنصيب الذي تقوم به في الحياة.

ففي النفس الإنسانية منذ فجرها الأول، بل في ظلماتها الأولى قبل أن ينبثق عليها النور، وفي أسوأ صورة رسمت لها في وهم بشر، نجد البذور الأولى للقيم العليا من خلقية واجتماعية وإنسانية.

وقد مر على ذلك دهور طويلة لا يعرف إلا الله مداها، ولكن قوماً يعدونها بملايين السنين. وفي خلال تلك الدهور تطورت الإنسانية وارتفعت مشاعرها وتهذبت طباعها. وقامت الحضارات المختلفة، والرسالات السماوية المتعاقبة، وظهر في البشرية أنبياء ومصلحون حققوا هذه القيم العليا في أشخاصهم، ودعوا إليها من يستمع لهديها ويقدر عليها. فاتبع النور كثيرون، منساقين إليه بدافع من نفوسهم، متطوعين بالخير غير مقهورين عليه.

فنحن أولى اليوم وقد تحضرنا —والغرب يزعم أنه متحضر– أن يزيد إيماننا بالقيم العليا والعمل من أجلها. أمام حين ننكرها، ونقول عنها إنها أوهام وخرافات، فلنكن على يقين من أننا ننتكس إلى أسفل، ولو حطمنا الذرة، ولو استعمرنا القمر وذهبنا إلى المريخ.

إن هناك وهماً صارخاً يستولي على أفئدة الناس في الغرب، ويتسلل إلى المستعبدين في الشرق فيملأ في نفوسهم من تفاهة وفراغ. إنهم يظنون أن العظمة العلمية تستتبع حتماً أن يكون "الإنسان" كله قد ارتقى. فلا بد إذن أن تكون الأخلاق والعادات والتقاليد الموجودة في عصر الذرة، أفضل من مثيلاتها في العصور السابقة، التي لم يكن العلم فيها قد وصل إلى هذه الأسرار!! وما دام الناس اليوم لا يؤمنون بإله، ولاي تبعون قواعد الأخلاق، ويستبيحون الفوضى الجنسية، وينكرون القيم العليا ويعتبرونها خرافة، فلا بد إذن أن يكون هذا كله هو الحق، لأن هذا هو عصر العلم والنور والحقيقة!

فأية خرافة أكبر من هذه الخرافة التي يعيش فيها هذا الجيل من البشرية؟

إن المقياس الحقيقي لعظمة الإنسان ليس هو جهاز الراديو أو التليفزيون الذي يملكه، ولا السيارة التي يركبها، ولا جهاز الغسيل الآلي، ولا القنبلة التي يدمر بها الحياة على وجه الأرض... وإنما هو أثر ذلك كله في مشاعره وعواطفه، وكيانه النفسي على وجه العموم، فإذا كان يصل به إلى فكرة عن الإنسانية أوسع وأشمل، وفكره عن الحياة أكبر وأرفع، فقد ارتقى الإنسان حقاً بكل ذاك. أما إذا كان يضيّق مشاعره إلى نطاق الأنانية المرذولة، ويعكف به على ملذات الجسد الملهوفة، فقد انحطت البشرية رغم هذا البريق الذي يخطف الأبصار...

وطالما كان الأمريكان يعاملون الزنوج —الذين يتحدثون معهم في اللغة والدين والوطن– هذه المعاملة المزرية بكرامة الإنسان. والإنجليز يعاملون المستعمرات معاملة مصاصي الدماء، ويقيمون لافتات على محلاتهم كتب عليها "للبيض فقط". والفرنسيون يعاملون الشمال

الإفريقي —وهم الدخلاء فيه– معاملة المجرمين[1]. والروس يعاونون في إقامة إسرائيل، على أساس الدين وحده، مخالفين كل مبادئهم ودعاياتهم، لتكون سنداً لهم ضد الإسلام في هذه المنطقة من الأرض، ويبيحون لأنفسهم بالأمس أن يفتكوا بعشرات الألوف في المجر وبولندا..

طالما كانت هذه المبادئ التي يسير عليها الغرب، وتلك هي المشاعر المسيطرة على أهله، فكيف يزعم أحد أنه ارتقى، ولو بنى الأساطيل وأقام المصانع ووصل إلى الأفلاك؟ إنما مقياس الرقي البشري هو الطريق التي يعامل الإنسان بها أخاه الإنسان. ولكن المحك في ذلك ليس معاملة الإنجليزي للإنجليزي مثلاً، حيث يتدخل القانون، وتتحكم القوة المتكافئة في تحديد العلاقة، وإنما هو معاملة الغربي للآخرين الذين لا يملكون السلاح، ولا يجدون في الوقت الحاضر القوة المكافئة. فهنا يبرز الشخص على حقيقته الكامنة وراء القشور والأصباغ، وينكشف مدى إيمانه الحقيقي "بالإنسانية"!

وحين يؤمن الغرب بذلك يكون قد ارتقى حقاً. ولكنه لن يؤمن حتى يغير نظرته للأحياء والحياة والأشياء. ويقيم فلسفته على أساس آخر غير البراجماتزم، أو غير الغاية النفعية للأعمال.

وإنما ينكر الغرب كل القيم العليا، ويؤمن بالمادية النفعية، بسبب ظروف البيئة الأوربية التي جعلت شعوباً مختلفة تزدحم على رقعة ضيقة من الأرض قليلة الخيرات. فأصبح الصراع هو الغالب على طبائعهم، لا التعاون والحب. وصارت تسيطر على مشاعرهم تلك الواقعية المادية التي لا ترتفع عن محيط الأرض وعالم الضرورة. فهو إذن عيب اضطرهم إليه ظروف معينة، وليس مزية تُشتهى كما يتصور المغفلون!

وصحيح أن الغرب اليوم يملك القوة والسيطرة، وأنه امتلكها في الفترة التي كفر فيها بالقيم الإنسانية العليا، وآمن بواقع الأرض المحدود. ولكن ذلك لا يعني أن هذه هي الطريقة الوحيدة لامتلاك القوة. ودليلنا الذي نتخذه من وقائع التاريخ، هو أن العالم الإسلامي — وقت تمسكه بالإسلام وإيمانه الحقيقي به– كان هو الذي يملك السيطرة في عالم الحرب والسياسة والعلم والاقتصاد. حتى إن أوربا التي تلوح اليوم لعقول الشرقيين وقلوبهم كالمارد الجبار، كانت تتلمذ على الشرق الإسلامي في كل اتجاه.

([1]) كتب هذا أيام احتلال فرنسا للشمال الأفريقي. وإذا كانت فرنسا قد رحلت من مستعمراتها فليس ذلك لفضيلة اكتسبتها وإنما لظروف قاهرة أجبرتها على الرحيل.

فامتلاك القوة إذن لا يستلزم الكفر بمقومات الإنسانية الحقة، ما دام قد أمكن عملياً أن يجتمع هذا وذاك. وأهم من ذلك أن امتلاك القوة على الأسس المادية النفعية لم يجلب للإنسانية غير الخراب والدمار، فهو قائم على الصراع لا على الحب. وعلى أن الغلبة للأقوى لا لصاحب الحق. وما دام الأمر كذلك فالنتيجة الحتمية لهذه الفلسفة البربرية هي الحرب التي تحطم في لحظة ما شيده الإنسان في أجيال.

ويظن بعض البلهاء من "المثقفين" أن الإيمان بالروحانية والقيم العليا يستلزم من جانب آخر أن ننفض أيدينا من اكتشافات العلم الحديثة وكل التيسيرات التي أدخلها العلم على وسائل الحياة! وهو وهم لا يقتصر على "مثقفي" الشرق فقط! بل لعله سرى إليهم مع "الثقافة" التي تثقفوها من الغرب! فقد حدثني رجل انجليزي متخرج في أكسفورد، ويعمل أخصائياً في مؤسسة اليونسكو، وهي مؤسسة ثقافية! زار مصر منذ سنوات، وجرت بيني وبينه عدة مناقشات، فقال: إنه لا يحب الروحانية لأنه يحب أن يستمتع بالسفر بالطائرة، والاستماع إلى المذياع!! فقلت له مدهوشاً: وماذا يحملك على ترك هذا المتاع حين تؤمن بالروحانية؟ قال: أو ليس يقتضي ذلك أن أعود إلى الخيام؟!

كلا يا هؤلاء المثقفون! إن الإيمان بالقيم العليا لا يمنع العلم أن يتقدم ويصل كل يوم إلى اكتشاف جديد. وقد كان العلم الوحيد على ظهر الأرض في فترة من فترات التاريخ هو ما يعرفه الشرق الإسلامي في الطبيعة الكيمياء والفلك والرياضيات! ولن يمنع كذلك من استخدام الطائرة أو الصاروخ الجوي، ومن احتلال القمر والمريخ. ولكنه سيجعل لكل ها غاية... غاية إنسانية نبيلة ترتفع على النفع المادي القريب.

* * *

وقد يتفلسف الغرب المادي لتبرير كفرانه بالقيم العليا فيقول: إن النفس الإنسانية هكذا لا تقبل الارتفاع، ولا تخضع لهذا التهذيب الذي ربما كان جميلاً في ذاته ولكنه غير مستطاع. ويستدلون على ذلك بأن الجريمة لم تنقطع من وجه الأرض حتى في أيام الرسل والأنبياء. ويستجيب المنحلون والهابطون من أهل الشرق إلى هذه الفلسفة، وتنسط لها أساريرهم، ويقولون لك: لا فائدة! لا تتعب نفسك، فالواقع يكذبك على طول الخط!

وهؤلاء وأولئك يبررون ضآلتهم وانحلالهم بهذا الحديث. ولكن فيه مغالطة مكشوفة. فهناك فارق هائل كما قلنا في الفصل السابق، بين مجتمع لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذاً يثير النفور والاستنكار، ومجتمع يكون الامتناع عن الجريمة فيه هو الذي يبعث الدهشة والاستنكار! فإذا كانت الجريمة لم تنقطع حتى أيام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم،

فقد كانت نسبتها بلا شك أقل بكثير جداً مما هي عليه الآن. وبمثل هذه النسبة تقاس المجتمعات.

على أن الغرب قد وصل في تهذيب بعض الطباع إلى درجة مثالية. فبائع الصحف الذي يترك صحفه في انجلترا وعليها كومة من النقود، فيأتي الزبائن فيأخذ كل منهم صحيفته ويضع ثمنها دون أن يفكر في أخذ هذه النقود المتروكة بلا حراسة، يعتمد دون شك على التهذيب الفائق الذي صقل النفوس فمنعها من السرقة المتاحة.

وللبيوت في أمريكا حدائق ليس لمعظمها أسوار. فالسائر في الطريق يراها بكل ما تحمله من زهور وثمار، ويتمكن –لو أراد– من دخولها وقطف ما يريده منها دون أن يراه أحد، في الليل على الأقل. ومع ذلك لا يسرقها أحد. بل سمعت عن أحد المصريين العائدين من هناك، أنه سمع جرس بابه يدق ذات مرة، فقام يفتح فإذا طفل صغير يشب على قدميه ليبلغ الجرس، يستأذنه –إذا لم يكن عنده مانع– في أن تأخذه أخته الصغيرة زهرة من زهور الحديقة! وقد كان الطفل وأخته قادرين على أخذها دون أن يحس صاحبها أو ينتبه!

فإذا كان هذا التهذيب ممكناً وواقعاً –لأي سبب وبأية طريقة– فكيف نقول إن الطبيعة البشرية لا تقبل التهذيب؟ وقد كان أولى بالغرب الذي توصل إلى مثل هذا التهذيب، أن يجربه ويصل إليه في كل مناحي النفس البشرية، فلا يطلق أبناءه كالبهائم ينزو بعضهم على بعض، بحجة أن الغريزة الجنسية لا تخضع للتهذيب!

وإنما وجّه الغرب كل عنايته إلى هذا اللون من التهذيب النفعي، ونجح فيه، لأن طبيعته مادية نفعية، ولم يتجه إلى التهذيب الخلقي والإنساني، لأنه لا يؤمن بالمبادئ الخلقية والإنسانية، لا لأنه حاول فاستعصت النفس البشرية على المحاولة... وقد عمل الإسلام من قبل، في كلا الميدانين، فنجح. وكان من نجاحه تلك الأمثلة العجيبة التي أوردنا بعضها في فصل "نظرة الإسلام".

فالنفس البشرية لا تستعصي على الارتفاع حين تجد التوجيه والترغيب، ولكنها حين تترك وشأنها، أو حين تجد المغريات الدائمة للهبوط، فلا شك أنها تهبط حين تصل إلى مستوى الحيوان. وهذا ما وصل إليه الغرب في المسألة الجنسية خاصة، حين اعتبرها مسألة بيولوجية منفصلة عن الأخلاق! وحين قال عن الاستعمار إنه مسألة اقتصادية لا تخضع للأحكام الأخلاقية، كما تثب القطة لتأكل الفأر دون أن يوصف عملها بأنه أخلاقي أو خارج على مقتضيات الأخلاق!

في دنيا الحيوان فقط يمكن أن توجد الأعمال منفصلة عن القيم الأخلاقية، لأنها محكومة بدفعة الغريزة، ولا إرادة للحيوان في الاستجابة أو الامتناع. ولكنها لا يمكن أن تكون كذلك في عالم الإنسان، وقد رأينا الإنسان الأول يقدر قيمة أخلاقية لأعماله، وهو ما يزال في ظلام الكهوف.

* * *

بل إننا لنجد في عالم الحيوان ذاته ما يصلح أن يكون بذوراً للقيم العليا التي نطلبها في عالم الإنسان.

فإذا كان الفيل حين يدهمه المرض ينعزل عن بقية القطيع، ويحتمل مرارة الوحدة والحرمان، حتى يشفى فيرتد إلى رفاقه، أو يموت حيث هو في عزلته، لكي يؤمن بقية القطيع من خطر العدوى...

وإذا كان الحمام يصل به الوفاء إلى درجة مثالية عجيبة، فإذا مات أحد الإلفين، ظل الآخر حزيناً عليه لا يأكل ولا يشرب ولا يتسلى، حتى يلحق به، وأمامه البديل الممكن لو أراد...

وإذا كانت الجمال تأبى أن تقوم بالعملية الجنسية في مكان مكشوف، بل تسعى إلى التستر عن عيون المتطلعين...

وإذا كان الحصان –فيما يقال– يأبى أن يواقع أمه، مهما تحايل الناس على ترغيبه...

إذا كان هذا وأمثاله يقع في دنيا الحيوان بلا وعي منه ولا إرادة، أفما يجدر بالمخلوق الذي يقرر العلم أنه أرفع وأرقى، أن يعتنق هذه المبادئ السامية، ويسعى إلى تحقيقها بوعيه وإرادته؟!

* * *

بل أنا أزعم أن العقل الباطن في الإنسان ليس شهوة خالصة ولا ظلمات كافرة. وأزعم أنه زاخر –إلى جوار ذلك– بأحلام البطولة، والخير الخالص، والمثل العليا الرفيعة. وإلا فمن أين جاء الإنسان بهذه الأحلام؟ من الذي أوحي إليه بتلك الصور الخلابة التي رسمها لأبطاله فتصورها بيضاء ناصعة، لا يعتورها نقص ولا تشوبها خسة؟

إن فكرة الكمال المطلق عميقة عميقة في نفس الإنسان، وإلا لما اهتدى إليها في طفولة البشرية، ولا حلق في آفاقها الرحيبة.

وإن بريق القيم العليا والنظافة النفسية ليجذب الناس إلى أعلى فيرتفعون مختارين لا يقهرهم شيء. وتبهرهم البطولة فيحبون تقليدها بدافع داخلي كامن في الأعماق. ولن يكون ذلك إلا إذا كان في باطن النفس رصيد لهذه القيم وتلك البطولة. صيد مذخور ينتظر اللحظة المناسبة للانطلاق، في عالم الواقع أو في عالم الأحلام.

* * *

وقد كان الإسلام على صواب حين قدر قيمة الإنسان بمقدار تمسكه بالقيم العليا والعمل على تحقيقها، لأنه لن يكون إنساناً حقاً بغير ذلك ولو ملك القوة والسلطان. وإن دعوى الفصل بين القيم الخلقية وبين الأعمال لهي أعجب ما جاء به الغرب في فترة انحطاطه الحالية.

إن حقائق الحياة كل لا يتجزأ، ولا يتعارض إلا في العقول الصغيرة والقلوب الصغيرة. وكلما اتسعت النظرة فشملت أكثر من جانب واحد من جوانب الإنسان كانت أصح تقديراً وأقرب إلى الصواب. ومن هنا تجيء قيمة الإسلام الذي أشرف على الحياة من أعلى، ووضع الإنسان في مكانه الصحيح، بعد أن وفق بين نزعاته الداخلية والخارجية أجمل توفيق.

وقد كان لهذا التوفيق أثره الحاسم في تهذيب النفس البشرية والارتفاع بها عن مستوى الغريزة والضرورة. وإذا كان الغرب –لأي سبب– قد هبط عما ينبغي له، ولم يعد يؤمن بالقيم العليا، فنحن لم نقع تحت ضروراته، وليس هناك ما يلزمنا أن نأخذ بنظرته الهابطة، ونحن نملك في دنيا الواقع لا في عالم الأوهام، أمثلة أخرى ونظرة أخرى لأهداف الحياة ونوازع الإنسان.

فحين كان الجنود الإنجليز في الحرب الماضية يعتدي أحدهم على آخر، فيتلاكمان، فمن انتصر فهو صاحب الحق، وعلى الآخر أن يعتذر بصرف النظر عن المسيئ الحقيقي، يكون الذي يحكم هو قانون الغابة، "قانون القوة هي الحق[1]". أما حين يشكو القبطي إلى

([1]) كتبت هذا في الطبعة الأولى. ثم كان اعتداء إسرائيل مع انجلترا وفرنسا على مصر سنة ١٩٥٦ أبشع تطبيق لقانون الغابة.

عمر أن ابن عمرو بن العاص ضرب ولده بغير وجه حق، فيقول عمر للقبطي: اضرب ابن الأكرمين، يكون قانون آخر هو الذي يحكم: قانون العدالة المطلقة بين بني الإنسان.

وحين يحدث كما حدثني أحد المصيين الذين هاجروا إلى فرنسا لطلب العلم، أن التي سكن في بيتها كانت تبالغ في استلاب نقوده بكل وسيلة -وهو يتعلم علم بلادها ويقبس من وحيه- حتى إنها دعته ذات يوم إلى نزهة ثم اتضح له وقت الحساب أنها دعته فقط ليدفع لها أجر الذهاب والإياب! وطلبت له في أثناء النزهة فنجانة من الكاكاو، ولنفسها مثله، وإذا به يفاجأ بأنها حسبت عليه كلتا الفنجانتين!! حين يحدث ذلك يكون الجشع المادي هو الذي يحكم. فأما حين كان الأنصار يقتسمون مع المهاجرين بيوتهم وأرزاقهم لا يريدون منهم جزاء ولا شكورا، وإنما ابتغاء وجه الله، وفرحة بما يقيسون من وحيهم، فقد كان الإيثار النبيل هو الذي يحكم.

وحين يأبى الأمريكي أن ينفق على والديه، ولو كانت ثروته تعد بالملايين وهما شيخان فقيران، لأنه غير مكلف، ولأن على كل امرئ أن يعول نفسه، تكون الأنانية البغيضة هي التي تحكم. فأما حين يشعر الفرد المسلم أن الإنفاق على أبويه المعوزين جزء من عرضه، ويعيّر بهما إذا نكل عن أداء هذا الواجب المقدس، لقاء ما جهدا في تعليمه وتربيته، يكون البر الإنساني هو الذي يحكم.

وحين يعامل الأمريكان الزنوج الذين يشتركون معهم في دين واحد ولغة واحدة تلك المعاملة الوحشية، فيركلونهم حتى يزهقوا أرواحهم، ثم يعلقونهم في جذوع الشجر عقاباً ونكالاً لأنهم باشروا بعض حقوقهم الإنسانية المشروعة كالسير في طرقات المدينة، أو ركوب سياراتها العامة، أو دخول أحد مقاهيها، تكون الروح الهمجية البربرية هي التي تحكم. أما حين يقول الرسول الكريم: "اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد أسود كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى" فلا يعطى العبد مجرد المساواة في الإنسانية، بل يؤهله حتى لمركز القيادة ما دام يطبق شريعة الله، فهنا الروح الإنسانية العالية هي التي تحكم.

وحين يكون الاستعمار شهوة سلطان، لاستنباط موارد جديدة للرقيق كما كان في الدولة الرومانية القديمة، أو لفتح أسواق جديدة لتصريف فائض الإنتاج كما هو الحال في ورثة الروح الرومانية من دول أوربا وأمريكا، تكون المادة وحدها هي التي تحكم، ويكون الناس مستعبدين للمادة لأنهم ينقصون روح الإنسان. أما حين كان الفتح الإسلامي يهدف إلى نشر النور الجديد في كل أركان الأرض دون دافع اقتصادي ولا استعماري، وحين كان الإسلام لا يبخل بكل علومه ومعرفته على البلاد المفتوحة، وحين كان ينفق الأموال المجموعة من البلاد على أهلها أولاً، فإذا بقي شيء حمل إلى بيت المال العلم لينفق على لمسلمين

جميعاً في العالم الإسلامي، فلم تكن المادة هي التي تحكم وإنما "الروح" الشفيفة التي قبست من نور الله.

فمن واقع الإسلام إذن لا من عالم الأوهام نبتت القيم العليا، وأثمرت ثمارها، حين كان يتعهدها الغارسون بالغذاء والرعاية. فأما اليوم فقد نكل المسلمون عن دينهم الحق، ليقلدوا الغرب الهابط المنحل، فصاروا أسوأ منه مادية، وهم أضعف منه في ميدان القوة العملية. فخسروا الدنيا والآخرة معاً، وباءوا بغضب الله واحتقار الناس.

فإن أرادوا أن يعودوا إلى عزتهم، فإن أمامهم مثلهم الخاصة، التي استمدوا منها قبل ذلك العزة والمنعة والسلطان: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ".